الصبر والجزع بين المثير والاستجابة في شعر ما قبل الإسلام

رسالة تقدمت بها

رجاء لازم رمضان

إلى مجلس كلية الآداب / جامعة بغداد

وهي جزء من متطلبات نيل درجة الدكتوراه في

اللغة العربية وآدابها

بإشراف

الأستاذ الدكتور محمود عبد الله الجادر

1424 هـ 2004م

بسم الله الرحمن الرحيم

" ربِّ أَوزعني أن اشكرَ نعمَتكَ التي أنعمت
عليَّ وعلى والديّ وأن اعملَ صالحاً ترضاه
* وأصلح لي في ذريَّتي أني تبتُ اليك
انّي من المُسلمين "

صدق الله العظيم

الأحقاف /15

إقرار المشرف

اشهد ان أعداد هذه الأطروحة المرسومة (الصبر والجزع بين المثير والاستجابة في شعر ما قبل الإسلام) قد جرى تحت إشرافي في كلية الآداب –جامعة بغداد ، وهي جزء من متطلبات نيل درجة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها.

المشرف

أ. د. محمود عبد الله الجادر

بناء على التوصيات المتوافرة ، ارشح هذه الأطروحة للمناقشة.

أ. د جميل نصيف

رئيس قسم اللغة العربية

كلية الآداب – جامعة بغداد

التاريخ / / 2003 م

الاهداء

إلى نبض قلبي ونور عيني والديَّ العزيزين

واخوتي (حسين ، حسن ، محمد ، علي ، احمد اسعد)

وأخواتي

والى من صدق ووفى زوجي (صفاء حسن)

أهدي لهم جميعاً ثمرة جهدي

الباحثة

رجاء لازم

المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدمة :	أ
التمهيد :	1
الفصل الأول: مثيرات الصبر:	8
أولاً : المثير الذاتي:	9
1.الموت ومعضلات الحياة :	9
2.فقد الاحبة :	20
3.الشيخوخة والهرم :	28
4.عقدة النقص :	32
ثانياً : المثير الاجتماعي :	35
1.الحـــرب :	37
2.القبيلة :	49
3.العلاقات الأسرية :	55
ثالثاً : المثير البيئي :	63
1.شظف العيش :	64
2.الجبال والمراقب والرياح :	68
3–قسوة الصحراء :	74
الفصل الثاني :مثيرات الجزع	81
أولاً : المثير الذاتي :	82
1.الشيخوخة والهرم :	83
2.فقد الأحبة :	94
3.الموت ومعضلات الحياة :	107
4.عقدة النقص :	114

ثانياً : المثير الاجتماعي : 117

1.**العلاقات الأسرية :** 118

2.**الحرب :** 128

3.**القبيلة :** 137

ثالثاً : المثير البيئي : 142

1.**الأطلال :** 143

2.**شظف العيش :** 149

3.**الحيوانات :** 154

الفصل الثالث:الدراسة الفنية: 160

أولاً : الألفاظ والتراكيب : 160

ثانياً: الصورة الشعرية : 169

ثالثاً: موسيقى النص الشعري : 185

الخاتمة : 210

المصادر والمراجع : 214

ملخص الرسالة باللغة الإنكليزية

المقدمة

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين ، وافضل الصلاة والسلام على خير الأنام نبينا محمد حبيب إلهِ العالمين وعلى إلهِ الطيبين الطاهرين وصحبه رضي الله عنهم أجمعين.

لقد تجلت عظمة موروثنا من الشعر الجاهلي في خلوده لانه استطاع ان ينقل المشاعر والأحاسيس ويصور الحياة ويعبر عن كوامن النفس ، فالشعر الجاهلي صوت صادق لحياة العرب في تلك الحقبة اذ كان وثيق الصلة بحياة العرب ما جلّ منها وما صغر يحمل في طياته الخير والشر والصفاء والكدر.

لقد صور الشعر الحياة الجاهلية تصويراً رائعاً ، وتجلت قدرته الإبداعية في رسمها وضم أفكاراً منتظمة وإيحاءاتٍ دلت على براعته وهذا هو السبب الذي دفعني الى اختيار هذا العصر الذي أحببته ،وقد كنت اجد في نفسي نزوعاً الى دراسة موضوع في الأدب الجاهلي جديداً وفيه من بوادر الجدة ما يمنح العمل العلمي أصالته .

لذا بادرت باستشارة أستاذي الدكتور محمود عبد الله الجادر في جملة من الموضوعات فلفت نظري الى موضوعي هذا وأهميته في الدراسة الأدبية ، فأقبلت عليه مقتنعة بما لمسته من تشجيع الأساتذة المتخصصين ، وابتدأت العمل في البحث متوكلة على الغفور الرحيم .

ام المنهج الذي اتبعته في هذا البحث فهو المنهج الوصفي التحليلي الذي يعتمد على إبراز الجوانب الموضوعية الفنية من خلال استقراء النصوص وتحليلها واستخراج النتائج منها . وقد أقيم البحث على ثلاثة فصول مسبوقة بتمهيد ضم مبحثين أولهما { مدلول الصبر والجزع } وثانيهما { دلالة المثير والاستجابة في علم النفس} .

أما الفصل الأول فقد أفردته لدراسة مثيرات الصبر ، وقد جعلته في ثلاثة مباحث ، تكفل الاول بـ (المثيرات الذاتية) وجاء الثاني موسوماً بـ(المثيرات الاجتماعية) وتناول الثالث (المثيرات البيئية).

أما الفصل الثاني فقد تكلمت فيه على مثيرات الجزع ، وقد قسمت هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث ، تناولت فيها – المثيرات الذاتية أولاً والمثيرات الاجتماعية ثانياً والمثيرات البيئية ثالثاً . وان سبب تقديمي وتأخيري في المثيرات في هذا الفصل فضلاً عن حذف وإضافة مباحث أخرى في الرسالة يعود إلى طبيعة المادة المتوافرة في الدواوين الجاهلية التي رجعت إليها الرسالة . وتناولت في مباحث الفصل الأخير الخصائص الفنية التي كانت بارزة في شعر الصبر والجزع من حيث الألفاظ والتراكيب والصورة الشعرية وكان المبحث الأخير لدراسة الموسيقى.

ثم ختمت البحث بخاتمة ذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت أليها الدراسة ثم ألحقت بالبحث قائمة بالمصادر والمراجع التي اعتمدت عليها فيه ، و أعقبت ذلك بخلاصة باللغة الإنكليزية .

ومن معاني الوفاء ان اقدم عظيم امتناني للأستاذ الدكتور محمود عبد الله الجادر الذي كان لي أباً قبل ان يكون أستاذاً مشرفاً ، فقد وهبني من وقته وطيب قلبه الكثير ، فضلاً عن ملاحظاته التي أغنت البحث عمقاً وتوجهاً ، فجزاه الله عني خير الجزاء سائلةً الله تعالى ان يحفظه ذخراً للعلم ومناراً للطلبة .

ولا أنسى فضل اخوتي الأحبة وفضل الأستاذ صفاء حسن الذين يعجز اللسان عن شكرهم فقد كانوا نعم العون فجزاهم الله عني خير الجزاء .

كما أتقدم بجزيل الشكر إلى أمينة مكتبة قسم اللغة العربية والسيدة ام علي أمينة مكتبة الدراسات العليا وموظفاتها جزاهم الله عني خير الجزاء

وأخيراً وليس أخرا.....

اسأل الله العلي القدير ان أكون عند حسن ظنّ أساتذتي وان أنال رضا الله اولاً ورضاهم أخراً ، واعتذار عمّا قد يكون من زلل فالكمال لله وحده ، والله اسأل ان يسدد خطانا وان يجعلنا (ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه) ، (ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا او أخطأنا ، ربنا ولا تحملْ علينا إصْرَاً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعفُّ عنّا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين).

التمهيد

1. مدلول الصبر والجزع :

الصبر :نقيض الجزع ، صَبَرَ يصِبر صَبْراً ، فهو صابر وصبّار وصَبيرٌ وصُبُرٌ ، والأنثى صبور أيضاً ، بغير هاء ، وجمعه صُبرٌ [1]

وقيل مراتب الصبّر خمسة . صابر ومصطبر ، ومُتصبِّر وصبور وصبّارٌ فالصّابر : أعمّها ، والمصطبر المكتسب للصّبْر المبتلى به .

والمتصِّبرُ : متكلفُ الصبر حامل نفسه عليه .

والصبور : العظيم الصبر الذي صبره أشد من صَبْرِ غيره والصّبّار :الشديد الصَّبْرِ [2]

وسُمّي الصومُ صبراً لما فيه من حبس النفس عن الطعام والشراب والنكاح [3].

ومن أسماء الله تعالى : الصبور تعالى وتقدس ، هو الذي لا يعالج العصاة بالانتقام ، وهو من أبنية المبالغة ، ومعناه قريب من معنى الحليم ، والفرق بينهما ان المذنب لا يأمن العقوبة في صفة الصبور كما يأمنها في صفة الحليم . واصل الصّبر الحبس وكل من حبس شيئاً فقد صبره ، ومنه الحديث : نهى عن المصبورة ، والمصبورة التي نهى عنها هي المحبوسة على الموت.[4]

وقوله تعالى " وتواصوا بالصبر " [5]، معناه : وتواصوا بالصبر على طاعة الله والصّبر عن الدخول في معاصيه .

والصَّبْرُ : الجرأة ، ومنه قوله عز وجلّ : " فما أصبرهم على النار "[6] أي ما اجرأهم على أعمال أهل النار وقوله " فصبرٌ جميلٌ" [7]، أي صبري صبرٌ جميلٌ ،

---

[1] لسان العرب مادة (صبر).

[2] تاج العروس مادة (صبر).

[3] لسان العرب مادة (صبر).

[4] م.ن مادة (صبر).

[5] البلد /90.

[6] البقرة /2.

[7] المعارج /70.

وقوله عز وجلّ :"اصبروا وصابروا "[1]، أي اصبروا واثبتوا على دينكم ، وصابروا أي صابروا أعداءكم في الجهاد . وقوله عز وجل :"استعينوا بالصبر" [2]،أي بالثبات على ما انتم عليه من الإيمان .

والجزع نقيض الصّبر والجزوع ضد الصبور على الشر . جَزِعَ ،بالكسر يجزَعُ جَزَعاً ، فهو جازع وجزِعٌ وجَزُعٌ وجزَعٌ ، وقيل : إذا كثر منه الجزعُ ، فهو جَزوعٌ وجزاعٌ .والهِجْزَع : الجبان ، هِفْعَل من الجزع ، هاؤه بدل من الهمزة عن ابن جني قال: ونظيره هِجْزَعُ وهِبْلَع فيمن أخذه من الجرْع والبلع. [3] وقال جماعة : هو الحزنُ . وقيل هو اشد الحُزْنِ .[4] فقد قال الله تعالى :" اذا مسّه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً ".[5] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" إذا احب الله قوماً ابتلاهم فمن صبر فله الصّبر ، ومن جزع فلهُ الجزع " [6]. وقيل لرجل اشتد جزعه :"لوآمنت بالمرتجع لم تجزع ، ولو اقتصدت في التمتع لم تضرع ، فالجزع لا يلم ما تشعث ولا يرد ما انتكث . الجزع منقصة الحياة ، ومن أعان على نقصان حياته فقد عظمت خطيئته".[7]

وان (الصبر والجزع) من المفهومات التي تتعدد وتختلف وجهات النظر حولها حين نتناولها بالبحث والدراسة وذلك لما يتضمنه مفهوم (الصبر والجزع) من معنى ديني و أخلاقي ونفسي و أدبي وسياسي أيضاً ، وعلى الرغم من انه يمكن معالجة المفهوم في ضوء المعاني السابقة برمتها فأننا سوف ندرسه هنا من خلال مفهومه الأدبي ، من حيث هو قيمته أدبية لها دورها في بناء القصيدة الجاهلية .

---

[1] عمران /3.

[2] البقرة /2 .

[3] لسان العرب مادة (جزع) .

[4] تاج العروس مادة (جزع) .

[5] المعارج /70 .

[6] الترغيب والترهيب 283/4 .

[7] محاضرات الاصبهاني 504/4 .

اما على الصعيد الاصطلاحي فان مفردة (الصبر) يمكن ان تتجه إلى ثلاث دلالات بحسب حرف الجر الذي تتعدى بوساطته فثمة (الصبر عن...) و(الصبر على ...) و (الصبر في ....)[1].

فالأول هو (الصّبر عن ...) السوء والشر ودواعي الهوى والشهوة وكل ما يمس كرامة الإنسان وسمعته ، والمعنى الثاني هو (الصّبر على .....) المكروه والألم وتحمل الرزايا وكل ما يقلق الراحة ، أما المعنى الثالث فيشير إلى (الصّبر في .....) مواطن الخوف والذعر ، وهذا النوع من الصبر يسمى الشجاعة والأقدام ، فالشجاعة هي ضرب من الصّبر [2].

ويفرد ابو حامد الغزالي في مؤلفه " أحياء علوم الدين " جزءاً كبيراً منه لتوضيح مفهوم الصبر ويسمى هذا الجزء " كتاب الصبر والشكر " وهو يقول ان الصّبر ضربان : أحدهما ضرب بدني ، كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليهما والضرب الآخر هو الضرب النفسي عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى ..وان كان عن احتمال المكروه الذي غلب عليه الصبّر ، فان كان في مصيبة اقتصر على اسم (الصبر) .....وان كان في حرب ومقاتلة سمي (شجاعة) ويضاده (الجبن) وان كان في كظم الغيظ سمي (حلماً) ويضاده (التذمر) وان كان في نائبة من نوائب الزمان مضجرة سمي (سعة الصدر) ويضاده (الضجر والتبرم وضيق الصدر) وان كان في إخفاء الكلام سمي (كتمان السر) وسمي صاحبه (كتوماً) وان كان عن فضول العيش سمي (زهداً) ويضاده (الحرص) وان كان صبراً على قدر يسير من الحظوظ سمي (قناعة) ويضاده (الشره) [3].

وطبقاً لهذا المفهوم فان الصبّر ليس موقفاً سلبياً كما يفهمه بعض الناس ، كما يتعاملون به في الحياة على أساس من ذلك المفهوم الضحل ، حيث يعدُّ المرء منهم نفسه من الصابرين إذا هو استسلم للمحن والإزراء واصبح ضعيفاً متهالكاً أمام

---

[1] ينظر : الخلق الكامل 487/4.

[2] ينظر :م . ن487/4.

[3] ينظر : احياء علوم الدين /12.

الأزمات والأخطار وهذا الموقف لا يدخل على الإطلاق في مواقف (الصبّر) ولا يكون صاحبه من الصابرين [1].

أما الجزع اصطلاحاً فقد تناولته المصادر بصيغ مختلفة تدلُ على الجزع ، فقد فسر من خلال الدراسات في مجال تأثير الضغط في صحة الإنسان ، وان الفرد الذي يقوم أحداث الحياة سلبياً ، تكون نتيجة تقويماته تغيرات نفسية وحيوية تؤدي في النهاية بصورة مباشرة او غير مباشرة إلى الأمراض ويكون الشخص بدون طاقة او قدرة تحمل ،وغالباً ما يمتلكه الشعور بالعدم ، فيصبح فاقداً لأية وسيلة للتصميم والعزم ويقوده عجز بالتالي إلى الاستسلام . فضلاً عن ان الدراسات قد أظهرت ان الأفراد من ذوي قوة التحمل الواطئة هم الأكثر استخداماً للعدوانية من ذوي قوة التحمل العالية [2].

والملاحظ ان الذكور هم أعلى في قوة تحمل الشخصية وان الإناث هن من ذوات قوة تحمل الشخصية الواطئة وهذا يعود الى التنشئة الاجتماعية التي تؤدي الدور الأهم في الحياة .[3]

2.دلالة المثير والاستجابة في علم النفس:

(الأَثَر) بفتحتين ما بقي من رسم الشيء وضربة السيف . وسُننُ النبي عليه الصلاة والسلام (آثارهُ) . و(أستأثر) بالشيء أستبدّ به والاسم (الأثرة) بفتحتين . وأستأثر الله بفلان إذا مات ورُجِى له الغفران . و(أثارةٌ) من علم بقيّةٌ منه وكذا الأَثَرة بفتحتين .... و (التأثير) إبقاء الأَثر في الشيء .[4]

وفي مادة (ج و ب) يقال : (أجابه) و(أجاب) عن سؤاله والمصدر (الإجابة) والاسم (الجابة) كالطاعة والطاقة . يقال أساء سَمْعا فأساءَ جابةً

---

[1] ينظر : اليهود في القرآن /84.

[2] ينظر : قوة تحمل الشخصية وأساليب التعامل مع ضغط الحياة /107،61،12،6.

[3] ينظر : الأطفال مرآة المجتمع /286.وينظر : علم نفس الاجتماعي /247.

[4] لسان العرب مادة (أثر).

و(الإجابة) و (الآستجابة) بمعنى ومنه (إستجاب) الله دعاءه . و(المجاوبة) و(التجاوب) التحاور [1].

وإذا تتبعنا التعريفات والاستعمالات المختلفة للمصطلح (مثير) ، نجد أربعة توجهات تناولت هذا المصطلح :وأول هذه التوجهات هو الذي يضع تعريف المثير بالطريقة الآتية : المثير جزء من البيئة ، أو تغير في جزء منها . وثاني الاتجاهات التي استعمل فيها المصطلح (مثير) فهو المشتق من قواميس علم النفس والفسيولوجيا فيعرفه وارن بأنه : طاقة خارجية بالنسبة لعضو الاستقبال ، تؤثر فيه وتستثيره ، وهكذا تكون وظيفة المثيرات قاصرة على تلك الفئة التي تنتج نوعاً من الاستجابة عند الكائن تحت شروط معينة .[2]

وثالث الاتجاهات التي يستعمل فيها المصطلح (مثير) ، ويرتبط بالاتجاه الثاني ، الذي سبقت الإشارة إليه ، مع تعديل مهم . فهو يتسع بالنسبة لاستعمال المثير ، من حيث انه يتضمن نوعاً من الأحداث الفرضية ، التي غالباً ما تكون داخل الكائن الحي ، ونطلق عليها مثيرات [3].

أما النوع الرابع فهو الاتجاه الذي يتبعه سكينر ، الذي يقصد بالمثير نوعاً من الأحداث البيئية ، التي لا يمكن تحديدها منفصلة عن ملاحظات أسلوب معين من أساليب النشاط للكائن الحي ، والتي يجب ان تسيطر على هذه الأساليب من النشاط ، تبعاً لمجموعة معينة من القوانين [4].

والخلاصة ان مصطلح مثير ، لا يقصد به نوعاً من العوامل المستقلة تماماً بالنسبة للسلوك ، إذ لا يمكن معالجة المثيرات إلا على أساس سلوك الكائن الحي .

ويمكننا ان نميز بجانب مفهوم المثير ، من حيث انه جزء من البيئة الخارجية ،أو تعديل في جزء منها ، مفهوماً آخر للعوامل البيئية ، نجده في نظرية سكينر ، وهذا المفهوم يتعلق بمجموعة الأحداث التي تسمى عمليات مثل الحرمان او التعزيز

---

[1] لسان العرب مادة (جوب).

[2] ينظر : نظريات التعلم /259.

[3] ينظر : م .ن /259.

[4] ينظر: م.ن /259.

، وهي عمليات تخضع لمجموعة من القواعد تعبر عن تنظيم علاقات نوعية بين صفات المثيرات وصفات الاستجابات من ناحية ، وبين العمليات والاستجابات من ناحية أخرى .[1]

وفي ضوء معرفتنا المفهوم المثير يمكن ان نوضح المقصود بمفهوم الاستجابة في نظرية سكينر الوصيفة .

وإذا راجعنا قواميس علم النفس نجد ان دريفر يعرف الاستجابة بأنها " نشاط غدي او عضلي ، للكائن الحي ، نتيجة استثارة خارجية او موقف معين يجابهه "[2].

ولا يخالفه وارن كثيراً حين يعرفها بأنها " تقلص عضلي او افراز غدي او أي نشاط آخر ينتج عن استثارة "[3]. والواقع ان هذا المعنى لمصطلح استجابة يقابل الاستعمال الثاني للمصطلح مثير الذي أشرنا أليه في الفقرات السابقة ، ويحسن ان نشير هنا إلى هذا المعنى الفسيلوجي الأساسي للاستجابة الذي يبدأ منه عادة علماء النفس السلوكيون او الشرطيون في تقريرهم للمبدأ العام " لا استجابة دون مثير "[4].

ويفرق سكينر بين نوعين من الانعكاسات او الاستجابات :

النوع الأول : ما يسميه السلوك الاستجابي وهو ما يرتبط بمثير معين في البيئة الخارجية ، وهذا النمط لا يمثل لنا إلا قدراً ضئيلاً من سلوك الكائن الحي . ويعرف الحدث المثير لفعل ما بالمثير المحدث للاستجابة [5]

النوع الثاني : فما يطلق عليه سكينر السلوك الإجرائي ، وهو ما لا يرتبط بمثير معين ، وإنما يستدل على مثيراته من آثاره ونتائجه في البيئة الخارجية .

ويلاحظ ان سكينر يطلق على النوعين من الاستجابات مصطلح (انعكاس) بالرغم من اعترافه بان هذا المصطلح الأخير يقصد به في الأصل النوع الأول من

---

[1] ينظر : نظريات التعلم /262.

[2] ينظر :م. ن /262.

[3] ينظر : م. ن /262.

[4] ينظر : م. ن /262.

[5] ينظر : م. ن /262، ينظر : مدخل علم النفس /197.

الاستجابات ، ويبرر هذا بقوله ان هذا الاستعمال مناسب لان كلا النوعين من الاستجابات وحدات طبوغرافية للسلوك ، كما ان رد الفعل الاستجابي عادة ما يكتسب علاقة مع استثارات سابقة .[1]

ويقول الأصفهاني :"أصل البعث :إثارة الشيء وتوجيهه"[2]. فالباعث لا يقف عند مثير الشيء ومحفزه ، وانما يتعداه إلى توجيه ذلك الشيء إلى جانب انه يحمل المعنى الاشمل من مفردات أخرى تحمل معنى مماثلاً . فالدافع مثلاً :" هو الضغط الداخلي في الفرد الموجه باتجاه البيئة والمحرض على تحقيق الكفاية في الحاجة المطلوبة الموفية بمتطلبات داخلية . فالحافز هو المثير البيئي في المواضع والأشياء والأحداث التي تحدث في الفرد استجابات ورود أفعال بصيغ مختلفة "[3].

فالاستجابة الناتجة في موقف معين تقترن بحالة من الرضا والارتياح ، وهذا من شأنه تقوية الرابطة بين المثير والاستجابة الناجحة بما يؤدي إلى تثبيت هذه الاستجابة واطراد حدوثها حين يتكرر الموقف ، أي ان النجاح يدعم الاستجابة .في حين ان حالة عدم الرضا التي تنجم عن فشل استجابة معينة تقلل من احتمال حدوث هذه الاستجابة مرة أخرى .[4]

ولقد كانت استجابة الشاعر الجاهلي لمجريات الحياة في ظل مفاهيم وثقافات وحضاراتٍ مدّته بتأملات واضحة إزاء معظم ما تجري به الحياة تنطوي على مواقف لا فضل فيها للشاعر نفسه في اغلب الأحيان ، فقد كان يسخط او يثور ، او يحب او يكره طبقاً لأحداث زمانه ونوازع شخصه .وذلك ما يسعى هذا البحث لاستجلائه من خلال دراسة ما وصل ألينا من نتاج العصر الشعري .

---

[1] ينظر : نظريات التعلم /262-263.

[2] مفردات القرآن /52. نقلاً من رسالة (بواعث البكاء /10).

[3] نقد الشعر في المنظور النفسي /32.

[4] ينظر : أصول علم النفس /240 .

الفصل الأول

مثيرات الصبر

اولاً: المثير الذاتي : 1- الموت ومعضلات الحياة

2- فقد الأحبة

3- الشيخوخة والهرم

4- عقدة النقص

اولاً :المثير الاجتماعي :1- الحرب

2- القبيلة

3- العلاقات الأسرية

ثالثاً: المثير البيئي: 1. شظف العيش

2. الجبال والمراقب والرياح

3- قسوة الصحراء

واجه العرب قبل الإسلام ظروف حياة قاسية وشاقة أفرزتها عوامل متشعبة انبثق بعضها من طبيعة حياة الإنسان نفسه وما تفرزه ذاته من مخاوف وهموم وأحزان وانبثق بعضها الأخر من طبيعة العلاقات الاجتماعية والبنية القبيلة وما أفرزته من معضلات وتحديات . ثم كان للبيئة الصحراوية وجدبها وتضاريسها ان تعزز تحديات تجتمع مع سابقاتها لتحيل حياة الفرد والجماعات سلسلة من المواجهات التي لم يكن أكثرهم يمتلكون وسيلة لمواجهتها وتجاوزها الا التشبث بأهداب الصبر ومحاولة العبور الى ضفة الأمان النفسي او المادي او الاجتماعي من خلال التحمل والمطاولة وذلك ما انعكس على صفحة الشعر فكانت صورة الصبر والتعبير عن إدارة التمسك به قوام نصوص جاهلية كثيرة سنتابع نماذجها موزعة على المثيرات التي شكلت مضمونها وبعثت الشاعر على التعبير عن صبره على تحملها ومواجهتها ومحاولة اجتيازها وهي بحسب أهميتها :

أولاً : المثير الذاتي

ثانياً : المثير الاجتماعي

ثالثاً : المثير البيئي

أولاً : المثير الذاتي :

منذ ان خلق الإنسان حمل بين حناياه مشكلات وجوده وفنائه ومشكلات وجود من يحب وفنائه وبين الذات والقريبين من الذات تعددت التحديات التي لم يجد سبيلاً لمواجهتها أحياناً إلا الصبر او التصبر او محاولة النسيان . وسنتابع في المباحث الآتية أهم المثيرات التي عبرت النصوص الشعرية عن مواجهتها بسلاح الصبر والتحمل .

1. الموت ومعضلات الحياة :

من المشكلات الفكرية التي طالما واجهها الإنسان محاولة الكشف عن حقائق الكون وحل لغزّ الحياة والموت ، " وما الموت إلا حدّ للحياة ، هو الصورة التي تلبسها الحياة وتحطمها من بعد " [1]. إلا انَّ الموت يبقى في وعي الشاعر الجاهلي ذلك التحدي الذي لا يواجه الشعر إلا من موقع الصبر او اصطناع الاطمئنان إلى حتميته وشموله لكل الأحياء . ففي دالية عبيد بن الأبرص [2]التي يوصي أهله بها وهو يودعهم عندما حان اجله بتشبث بالصبر ويوصيهم بعدم الجزع للمصاب وكأنه يعكس بطريقة غير مباشرة صبره هو وتجلده الخفي أمام تحدي الموت فيقول :

فـــأبلغ بنـــيّ وأعمـــامهم ... بـــأنَّ المنايـــا هـــي الـــواردْه
لهـــا مُـــدّةٌ فنفـــوس العبـــادِ ... أليهـــا وإن كرهـــتْ قاصـــده
فـــلا تجزعـــوا لحمـــامِ دنـــا ... فللمـــوت مـــا تِلـــدُ الوالـــدهْ[3]

---

[1] الموت والعبقرية /18.

[2] ينظر : ديوانه /57 ، اذ يقول :

فمـــن لـــم يمـــتْ فـــي اليـــوم لابـــد أنّـــهُ ... ســـيعلقه حَبْـــلُ المنيـــةِ فـــي غـــدِ

[3] ديوانه /62.

والمرء مهما حاول الفرار من الموت فإنَّ الحقيقة ستلوح أمام عينيه ساطعة لتقول قولها الفصل انْ لاسبيل الى البقاء وأن نسيان الفناء أمان كاذبة ، فرائية زيد الخيل نقلت وجهة نظره في الموت العدو الذي لا يمكن الظهور عليه إذ يقول :

فلستُ إذا ما الموت حوذر وِرْدُه وأتِرعَ حوضاه وحُمَّج ناظرُ
بوّقافة يخشى الحتوف تَهَيُباً يُباعدني عنها من القُبّ ضامِرُ[1]

فلا مناص ولا خلاص من الموت ولا هرب من قبضته ، فهو مصير محتوم للكبيرُ والصغير والرجل والمرأة والغني والفقير ، وقد صرح النمر بن تولب اكثر من مرة بأيمانه بان الموت قدر لا مهرب منه وان الخوف منه لا ينجي الخائف فلا سبيل لمواجهته الا بالأيمان بحتميته :

فان المنيّة من يخشها فسوف تصادِفهُ أينما[2]

وقد يبحث الشاعر الجاهلي عما يعزز تمسكه بالصبر في مواجهة تحدي الموت فلا يجد الا ما يعزي النفس به بانه ليس الوحيد الذي سيناله الموت حين يناله فموجودات الطبيعة التي تمتلك من وسائل القوة والمقارنة ما لا يمتلكه هو سينالها الموت كما يناله هو ، وذلك ما عبر عنه عمرو بن قميئه في قوله :

لا عجيب فيما رأيت ولكن عجبٌ من تفرّطِ الاجالِ
تدرك التمِّسح المولّعَ في اللـ ـجة والعُصْمَ في رؤوس الجبالِ
والفريدَ المسفّعَ الوجهِ ذا الجدَّ ة يختار آمناتِ الرحالِ[3]

---

[1] ديوانه /55، أترع : امتلأ . حمج : فتح عينه ، الوقاف : المحجم عن القتال . وفرس أقب: ضامر البطن دقيق الخصر .

[2] شعره /101.

[3] ديوانه /67-68،(التمسح) : التمساح ، العصم : الوعل ، الفريد : الثور ، الجدّة:الخط الذي في ظهر الحيوان وله لون يختلف عن سائر لونه .

وما دام الموت من نتاج الزمن فلا جدوى في الهرب منه ، إذ قد تكون محاولة الهرب منه هذه هي نفسها سبب الوقوع فيه ، يقول أمية بن أبي الصلت :

يوشكُ مَنْ فرَّ من منّيتهِ في بعض غرّاتِهِ يوافقها[1]

وقد يكون الشاعر الفارس عنترة من أقدر الشعراء على تصوير صبره في مواجهة الموت الذي يقتحم هو غمراته بإرادته ويعزز صبره بقناعته بان الموت لابد ملاقيه سواء عليه أصبر على مخاطر القتال أم فرّ منه لأنه إن فرّ فلن ينجو من براثن الموت الذي لابد أن يلاقيه فلم لا يصبر ويتحلى بالشجاعة التي قد تكون هي سبيل نجاته من الموت فهو يقول :

وعرفْتُ أنّ منيتي إنْ تأتني لا يُنْجني منها الفرارُ الاسْرَعُ
فصبرتُ عارفةً لذلك حُرَّةً تَرْسو اذ أنفْسُ الجبانِ تَطَلّعُ[2]

وقد يعلن الشاعر صبره على تحدي الموت متجاوزاً تحدياً آخر اكثر مرارة منه في نظره ، فالفقر وعجز الشاعر قد يدفعانه إلى اعتناق الموت من أجل انتزاع لقمة العيش وكرامته وذلك ما عبر عنه عروة بن الورد في رائيته :

ذريني أطوَّفْ في البلاد لعلني أخليك أو أُغنيك عن سوء محضري
فان فاز سَهَمُ للمنيةِ لم أكنْ جزوعاً وهل عن ذاك من متأخر[3]

---

[1] ديوانه /240.

[2] ديوانه /264.

[3] ديوانه /67 . اخليك : أي اقتلُ عنك.

وقد يكون الموت عند الشعراء الصعاليك سبيلاً إلى تجاوز أزمة نفسية من خلال قناعة غريبة بان الموت هو الذي سينهي كل التحديات التي يواجهونها مما " دفعهم جميعاً إلى الأيمان بفكرة الفناء " [1]. وعينية تأبط شراً تصور مواجهته للموت والاقتناع بحتميته ، إذ يقول :

وإنّـــي–ولاعِلْـــمٌ . لأعْلَـــمُ أننّـــي سَـألقى سَنَانَ المَوْتِ يَبْرُقُ أصلَعَا[2]

فالموت سبيل كلّ حيّ ولن يخلد أحد في هذه الحياة ، وانه لو كان هنالك من يخلد لما هلك اكثر المخلوقات .....

ويبدو أن طبيعة الحياة الدينية في العصر الجاهلي كانت مسؤولة عن منح تحدي الموت حجمه المجرد من الأمل في حياة ثانية في وعي الشاعر الجاهلي وجمهوره ، فعلى الرغم من علمنا أن المجتمع كان يضم أحنافاً موحدين وأهل كتاب فان الوثنية كانت ديانة السواد الأعظم ونظرة الوثنية إلى الموت تتلخص بأنه النهاية التي لا حياة بعدها ، وتلك حقيقة يبقى القران الكريم اصدق شاهد على استقرارها في النفوس [3].

وممن هنا يمكن لنا ان نتصور طبيعة الشاعر الجاهلي إلى هذا الحدث الغامض المجهول الذي قد يشكل حسماً لكل التحديات ولكنه التحدي الذي لا سبيل إلى تجاوزه ، ومادام الأمر كذلك فلابد من هذا الاستسلام اليائس [4]الذي يشيع في نماذج لا حصر لها منها فائية أوس بن حجر التي يقول فيها :

---

[1] الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي /32.

[2] ديوانه/118.

[3] قوله تعالى حكاية عن المشركين " أإذا متنا وكنا ترابا وعظاماً أإنا لمبعوثون " الآية 47 من سورة الواقعة والآية 16 (الصافات) ، وقوله تعالى " ويلٌ يومئذ للمكذبين ، الذين يكذبون بيوم الدين " الآيتان 10/9 من سورة المطففين ، وقوله تعالى " هذا يوم الفصل الذي كنتم تكذبون " الآية 21 من سورة الصافات .

[4] ينظر : دراسات نقدية في الأدب العربي /183.

ولـو كنـت فـي ريمـان تحـرسُ بابَـهُ أراجيــلُ أحبــوشٍ وأغّضَــفُ ألــفُ
اذن لا تنتــيْ حيــث كنــتُ منيّتــي يخــبّ بهــا هــادٍ لا ثــري قــائفُ[1]

ولا يعدُّ الشاعر الهزيمة أمام الموت وانتصار الموت عليه عاراً ، فالعار هو في خشية الموت وليس الوقوع في براثنه ، وهذا ما حاول الشاعر إقناع الملتقي به ، ورائية عدي بن زيد كشفت عن هذه القناعة الدالة على تجلده ، بقوله:

بــان المــرء لــم يخلــق حديــداً ولا هضــــباً توقــــاه الوبــــارُ
ولكــــن كالشــــهاب فــــثم يخبــــو وحــادي المــوت عنــه مــا يحــارُ
فهــل مــن خالــدٍ أمــا هلكنــا وهــل بــالموت يــا للنــاس عــارُ[2]

والشاعر يتقصد الاستسلام للموت عند المواجهة بطرق شتى لِصُبر نفسه بان هنالك من سبقه أليه من ملوك وآباء وأجداد وبائية امرىء القيس جاءت تعزيه لنفسه أمام الموت :

أُرَجَّــي مــن صــروف الــدّهرِ لينــاً ولــم تَغْفَــلْ عــن الصُّــمَّ الهضــابِ
واعلــــم أننــــي عمــــا قريــــب سانشــب فــي شــبا ظفــر ونــابِ
كمــا لاقــى أبــي حجــرُ وجــدي ولا أنســــى قتــــيلاً بــــالكلاب[3]

---

[1] ديوانـه /74،(ريمـان) :حصـن ، اراجيـل : جمـع رجـال ، احبـوش :جماعـة ، اغضـف :كلـب مسترسل الأذنين ، هاد : الذي يسير في أول القافلة ، قائف : يقفو الاثر . وينظر : ديوان عمرو بن قميئه /85.

[2] ديوانه /132.

[3] ديوانـه /99-100 ، (الصم الهضـاب) : الجبـال الصـلبة ، شبا ظفر ونـاب : حدهما وهذه كناية عن الموت . الكلاب : اسم واقعة وقعت في واد بهذا الاسم ،(قتيل كـلاب) : تعنـي بـه عمه شرحبيل .

وبالمنطق نفسه عزى الشاعر الأسود بن يعفر نفسه مستذكراً موت من غَبر من سادة قومه ، قائلاً :

فـأنْ يـكُ يـومي قـد دنـا واخالُـهُ كـواردةٍ يومـاً علـى غيـر منهـلِ
فقبلـي مـات الخالـدان كلاهمـا عميـد بنـي حجـوان وابـن المضـللِ
وعمـرو بـن مسـعودٍ وقـيسٌ بـن خالـدٍ وفـارسُ راس العين سلمى بـن جنـدلِ
واسـبابه اهلكـن عـاداً وانزلـت عزيـزاً يغنـي فـوق غرفـةِ موكـلِ[1]

ومهما تعددت طرق مواجهة الموت وتحديه فأنها تنبثق من قناعة الشاعر وأيمانه بان الموت ذاقه الناس جميعاً قبله ، وانه يلحق بالناس اللاحقين ولا يثنيه عن الفقير فقره ولا عن الغني غناه وذلك ما سجله بشر بن أبي حازم في قوله :

لا أرى النائبـات عـرَّينَ حيـاً لا لعُـدْمٍ ولا لكثـرةِ مـالِ[2]

وقد يبدو الشاعر اقرب إلى الموقف الفلسفي البسيط الذي غدا في التشريع الإسلامي الحقيقة الإيمانية الكبرى في الموقف من الموت والحياة وهي ان الروح وديعة من الله تعالى يستردها متى شاء ، وهكذا غدا منطق لبيد بن ربيعة قريباً جداً من الروح الإسلامية في رثائه لأخيه أريد الذي قيل ان صاعقة أصابته فأحرقته في الجاهلية ، اذ يقول :

فـلا جـزع ان فـرق الـدهر بيننـا فكـل امـرىء يومـا لـه الـدهر فـاجع
ومـا المـال والاهلـون الا ودائـع ولابـد يومـاً ان تـردُّ الودائـع[3]

---

[1] ديوانه /56-57.(الخالدان) : خالد بن نضلة وخالد بن المضلل ، (غرفة موكل) : موضع باليمن .

[2] ديوانه / 37 .

[3] شرح ديوانه /170.

ولا يجد الشاعر نفعاً من جزعه ، ولا ملإذا من آلامه وتفجعه ، فيعود إلى تأسيه وتصبره بالحكمة والموعظة ، ولا يوجد اكثر من معاني التأسي ثباتاً في قصيدة الرثاء لما تحتويه من صفة التجلد والتحمل التي طالما اتصف بها العربي وتجمل بها فنجدها في قول طرفة :

لعمركَ ان الموتَ ما أخطأ الفتى لكالطول المرخى وثنياه باليد
متى ما يشأ يوماً يَقُدهُ لحتفهِ ومن يكُ في حَبْلِ المنّية ينقدِ[1]

ويستلم تأبط شراً بهدوء للقدر في نظرته الواقعية للموت:

واجملُ موتِ المرءِ، إذ كان ميتاً ولابدّ يوماً ، موته وهو صابرُ
وخفضّ جأشي ان كلّ ابنِ حُرّةٍ الى حيث صِرْتَ ، لا محالة ، صائر
وانّ سوامَ الموتِ تجري خلالنا روائعُ من أحداثهِ وبواكِرُ
إذا راع روع الموتِ راع،وانْ حَمَى: حَمَى مَعَهَ حُرٌ،كريمُ،مصابرُ[2]

وقد يمزج الشاعر بين صبره على تحديات الحياة وصبره على الموت من خلال معادلة يوازن فيها الصبر على هذا والصبر على ذلك ، وفي صورة سردية معاكسة تبدو المعادلة مادة نص الأعشى الذي يقول فيه :

تقول بنتي وقد قرّبتُ مرتحلاً ياربِّ جنِّب أبي الأوصاب والوجعا
واستشفعت من سراة الحيّ ذا شرفٍ فقد عصاها أبوها والذي شفعا

---

[1] ديوانه / 53-54.

[2] ديوانه /84-85.

مهلاً بُنّي فان المرء يبعثه هَمٌّ إذا خالط الحيزوم مِضُطجعا
عليك مثل الذي صليت فاغتمضي يوماً فإنّ لجنب المرءِ مُضطجعاً
واستخبري قافل الرّكبانِ وانتظري أوبَ المسُافِرِ ان ريثاً وان سَرَعا[1]

وبعد هذه المحاورة مع ابنته يستطرد الشاعر الى قصة زرقاء اليمامة لِيصُبرّ ابنته ، الحزينة الخائفة ، مستلهماً الصبر الذي توحي به تلك القصة فيقول :

كوني كمثل التي غاب وافدها أهدتْ له من بعيد نظرةً جزعا
ولا تكوني كمن لا يرتجي اوبةً لذي آغتراب ولا يرجو له رجَعَا[2]

لقد ظل الموت فكرة مبهمة عند اكثر الجاهليين ، وكانت صورته المبهمة الغامضة قادرة على ان تثير في نفوس الشعراء إحساساً بالحيرة والترقب والخوف ولكننا رأينا ان كثيراً من التجارب الشاعرية التي رويناها عكست صبراً لا يحد الشاعر منفذاً أليه الا من خلال القناعة بحتمية ملاقاته . ومن هنا وجد الجاهليون ان الصبر على ملاقاته خير وسيلة لإبعاد شبحه في مواقف القتال وان الصبر على ملاقاته وتهوين شانه خير وسيلة لإقناع النفس بالتغلب على هواجس الخوف التي يثيره وذلك ما تفتقت عنه فطرة الشاعر الجاهلي إلى ان جاء الإسلام الحنيف فوضع الحقيقة المذهلة موضع القناعة وهي ان الموت بداية حياة أبدية وبعدها ينتقل المسلم إلى دار الخلد – الجنة – التي هي دار السعادة الأبدية ، وأما الحياة الدنيا فهي دار اختبار وابتلاء لتلك الحياة الأبدية .....

أما مصاعب الحياة فحسب الشاعر الجاهلي ان يدرك واقعياً ان الموت قدر لا مهرب منه لينفض يده نهائياً من مسألة التشبث بدوام الحياة المادي بل ان طبيعة الحياة وما يتخلل مسيرتها من أحداث قاسية ، فضلاً عما يفعله السن بالجسد من ضعف وتهافت جعلته يقلع عن ممارسة حلم الخلود الجسدي .....وعلى الرغم من

---

[1] ديوانه /151–153 (الوصب : نحول الجسم من التعب) . (شفع له اعانه) . (الحيزوم وسط الصدر) ، (قفل الركب عاد) ، (الريث : البطء) ، (اوبة : عودة).
[2] ديوانه /153.

ذلك كله حاول الشاعر الجاهلي ان يواجه قهر الحياة القاسية في إطار الصيغة الشعرية في الأقل [1]. بالصبر عليها وتحمل مشاقها وكوارثها، والشعراء الذين واجهوا الحياة كانوا ذوي حكمة وأبياتهم تحمل بين طياتها النصيحة ، واغلب من تحدث عن الصبر على قسوة الحياة هم الشعراء المعمرون ، ومن ذلك فالج بن خلاوة غطفان في لاميته التي يقول فيها :

فصبراً على رَيْبِ الزّمانِ وعَضهِ ولاتكُ ذاتيةٍ ولا تتعللِ
خُذِ العَفْوَ واقنعْ بالصحَّاح فَرُبّما أكون لِزاز العارضِ المتهلّلِ[2]

وجاءت الوصايا والحكمة في عصر ما قبل الإسلام صدى لصفاء النفس وللتجارب اليومية ، المستمدة من تأملهم في شؤون الحياة ، يقول أبو ذؤيب الهذلي:

وصبرٌ على حدثِ النائباتِ وحلمٌ رزِينٌ وَقْلْبٌ ذكيٌّ[3]

فالمصائب قد تلم بالإنسان ، ولكن حلها قد يكون في غاية البساطة ، وبالعزم والإرادة يستطيع الشاعر التغلب على قسوة الحياة ، وعبيد بن الابرص في لاميته يطالب في تصبير النفس وتعويدها على التجلد ، قائلاً :

صبرّ النفس عند كُلّ ملمٍّ إن في الصبر حيلةَ المحُتال
لا تضيقنَّ في الأمور فقد تكشـ ـف غمّاؤها بغير احتيالِ
ربما تجزع النفوس من الامـ ـر له فرجةٌ كحلِّ العِقالِ[4]

أما صبر الشاعر عدي بن زيد على مصائب الحياة فيكون باستسلامه لهذه الدنيا التي فيها الظلمة والشر حيناً والنور والخير أحياناً آخر :

---

[1] ينظر : دراسات نقدية في الأدب العربي / 231-233.

[2] كتاب المعمرين /77. (لزاز) : نطاق الباب الذي يشد به ، ورجل لزاز : شديد اللزوم وعاش فالج بن خلاوة بن سبيع بن بكر بن أشجع بن ريث بن غطفان ثمانين ومائة سنة وكان فارساً ، وكان عريضاً ، وهو الذي تضرب العرب به المثل ، يقال للرجل اذا عرض فيما لا يعنيه " أنت من هذا الأمرِ فالج بن خلاوة " الحماسة 64/2.

[3] ديوان الهذليين 68/1.

[4] ديوانه /112.

غيـــرا ان الأيـــام يغـــدرن بـــالمر ءِ وفيهـــا الميســـور والمعســـور
فاصــبر الــنفس للخطــوب فــان الــد هــر يــدجو حينــاً وحينــاً ينيــر[1]

وان مثل هذه الأحداث والنوائب لا تفتت من عضد الشاعر ، ولا يستكين لها او يدل من اجلها ، ويقول حسان بن ثابت في داليته :

فــلا المــالُ ينُسِــيْني حيــائي وعفتــي ولا واقِعَــاتُ الــدّهْرِ يفَلْلــنَ مَبْــرِدي[2]

ولان الشعر لا ينتهي من معالجة التفاصيل إلا بمحاولة استخلاص مدارها النظري الذي يغدو نظرية لتجارب مماثلة كانت تائية الأعشى مؤهلة لتقديم قاعدة لا تخطئ في مواجهة مصاعب الحياة التي لا يحلها إلا العزم والصبر :

لعمــرك مــا شــف الفتــى مثــل همــه إذا حاجــة بــين الحيــازيم جلــت[3]

وعبر قيس بن الخطيم عن تجلده أمام الخطوبَ بصورة رائعة مجسداً فيها الألفاظ المعبرة عن معانيه ، إذ يقول :

أبــى الــذّمَّ آبــاءٌ نمتنــي جــدودهُمْ ومجــدي لمجــدِ الصــالحين معــينُ
فــذلك مــا قــد تعلمــين ، وأننــي لجلْــدٌ علــى ريــب الخطــوب متــينُ[4]

ونحن نجد ان المعاني التي مثلت الحدث ، قد جاءت متسمة ببساطتها وصدقها ، متخذة الوصف عمادا لها ، معبرة عن الحدة النفسية التي جاءت مطابقة للواقع ومحددة المسار الملائم لاستيعاب العاطفة . ومنه يقرر بعض الشعراء ان لا نجاة من دواهي الدهر وأزماته الا بالصبر عليها وتحملها ، وهذا ما عبر عنه سلامة بن جندل بقوله:

---

[1] ديوانه /87.

[2] ديوانه /128، (مبردي) : كناية عن الصبر والتجلد .

[3] ديوانه / 311(اجتروا عليه بالسهام ؛ اقترعوا عليهن) (شفه الحزن اضناه) (جلت : عظمت).

[4] ديوانه /165-166.

قــوم إذا صــرَحتْ كحــل بيــوتهم عــزُّ الــذليلِ ، ومــأوى كــل قرضــوب

ينجـيهم مـن دواهـي الـدهر ان ازمـت صَـبْرٌ عليهـا وقَـبْضٌ غيـر محسـوب[1]

من خلال ما رويناه من نصوص نقف على حقيقة أساسية وهي ان طبيعة رؤية الشاعر الجاهلي للموت ومعضلات الحياة وضعته أما مجاهيل لا تخلو من تحديات لا قبل له بمواجهتها او اجتيازها فما كان منه إلا ان يؤول إلى إرادته يستل منها العزم على المواصلة مستعيناً بإرادة الصبر فان لم ينجده الصبر وجد في التصبر وتعزية النفس موئلاً يعينه على مواجهة معضلة الموت التي ظل يعلل النفس بشتى التعلات للتهوين من وقفها المرعب على نفسه أما مفصلات الحياة فقد استل في مواجهتها من صبره ما هيأ له قناعات مختلفة كان للشعر ان يصوغها نصوصاً تستدر قناعة الشاعر مثل متلقيه وتبعث على الاطمئنان الى سيرة الحياة بحلوها ومرها وتعين على مواصلة الشوط حتى نهايته ....

---

[1] ديوانه /47.

2. فقد الأحبة :

إذا كان الصبر والتجلد موقفاً تبناه بعض الشعراء . فان التأسي او العزاء كان محاولة للوصول إلى ذلك الموقف ، وهو مستوى يعين الشاعر على ان يتحول من إنسان هزته الفجيعة ، إلى إنسان لملمّ أحزانه ، وهدأ من انفعالاته واستقرت نفسه ، وإذا كانت مضامين الرثاء ذات صيغة عاطفية بحتة ، فان التأسي عن الحدث ذو صيغة عقلية ممزوجة بالمنطق والتفكير وان لم بفقد روح العاطفة [1].

فقد وجد الصبر عند العرب في الجاهلية وهم لا يرجون ثواباً ولا يخشون عقاباً [2]. وكانوا يفتخرون به ويعيرون بالجزع أهله إيثاراً للحزم وتزيناً بالحلم . ويلتمس الشعراء في ذلك كله السلوة والصبر والرضا بما نزل بهم والاستسلام للقدر وهذا ما يعرف بـ(العزاء).

وقد عبرت الخنساء عن صبرها وتعزيها بكثرة من نكبوا بأهلهم من حولها فسينية الشاعرة جاءت محملة بتأسيها لفقد أخيها إذ تقول :

فلـــولا كثـــرة البـــاكين حـــولي علـــى إخـــوانهم لقتلْـــتُ نفســـي
ولكـــــن لا أزال أرى عجـــــولاً وباكيـــة تنـــوح ليـــوم بخـــسِ
أراهـــا والهـــاً تبكـــي أخاهـــا عشـــية رُزئـــهِ او غـــبَّ أمـــسِ
ومـــا يبكـــون مثـــل أخـــي ولكـــن أُعـــزّي الـــنفس عنـــه بالتأســـي[3]

وقد واجه الجاهلي مصيبة فقد جماعته ، فلا يقف أمام فقدان حبيب واحد بل مجموعة من الأحبة فلا يفت ذلك في عضده ، هذا أبو فراس يواجه مأساة فقد مجموعة من أهله (بني لبنى) فلا تهده المصيبة وإنما يستذكرهم بروح الفارس الذي يرى في قتلهم تخليداً للقيم التي كانوا يمارسونها كرماً ونجدةً وشجاعة ومن هنا يكون من حقه ان يستل من الصبر ما يعينه على التأسي عن رجال مضوا فخلفوا ما يخلدهم في ذاكرة الناس فيقول :

---

[1] ينظر : رثاء الأبناء في الشعر العربي إلى نهاية القرن الخامس الهجري /119.
[2] ينظر : التعازي والمراثي /4.
[3] ديوانه 326-327 . العجول : الثكلى .

فقــدتُ بنـــي لُبنْـــى فلمـــا فقــدتُهْم صــبرتُ ولــم اقطــعْ علــيهم أبــاجلي
حســـانُ الوجـــوه طيِّـــبٌ حجـــزاتُهْم كـــريم نثـــاهم غيـــر لُـــفٍّ معـــازلِ
رمـــاحٌ مـــن الخطِّـــيِّ زُرقٌ نِصَـــالُها حِـــدادٌ أعاليهـــا شِـــدادُ الاســـافِلِ[1]

ويبلـغ الصـبر عنـد أبـي خـراش الهـذلي مبلـغ تنظيـر المصـيبة وتحويلهـا إلـى حكمة أخلاقية تستدر من الاصمعي قوله ان ما قاله أبو خراش بعد موت عروة (احسن ما قيل في لصبر)[2]. وهو قوله :

تقـــول أَراه بعـــد عُـــروةَ لاهيـــاً وذلـــك رُزْءٌ لـــو عَلمـــتِ جليـــلُ
فــلا تحســبي أنــي تناســيْتُ عهــده ولكـــنّ صـــبري يـــا أُمَـــيْمَ جميـــلُ
الـــم تعلمـــي ان قـــد تفـــرقَ قبلنـــا خلـــيلاَ صـــفاءٍ مالـــكٌ وعقيـــلُ[3]

أما مقطوعة دريد الرائية فقد رثى فيها اخوته الذين فدهم جميعاً ، ومن خلال حوار العاذلة بين مصابه بفقد أخواته وتجلده لفقدهم الواحد اثر الآخر ، لم يعد يدري علـى مـن يبكـي مـنهم فعـوّد نفسـه علـى الصـبر والتجلـد لتعاقـب الـدهر عليـه ونجـده يستهل ذكرهم بعبد الله لان فقده كان اعظم لدى الشاعر ولدى القبيلة :

تقـــول الا تبكـــي أخـــاك وقـــد أرى مكـان البُكـا لكـن بنيـتُ علـى الصّـبْرِ
فقلـــت اعبـــد الله ابكـــي ام الـــذي لـــه الجـدثُ الأعلـى قتيـل أبـي بكـر
وعبـــد يغـــوث تَحِجـــلُ الطيـــرُ حولـــه وعز المصابُ جثو قَبْرٍ على قبْرِ[4]

ويقول فيها :

---

[1] شرح أشعار الهذليين 3/1195-1196.
[2] ديوانه المعاني 1/131.
[3] شرح أشعار الهذليين 3/1189-1190 ؛ وينظر : ديوان عمرو بن معد يكرب /181.
[4] ديوانه /63.

أبـــى القتـــل إلا ال صِـــمّة انّهُـــمْ أبوا غيره والقدْرُ يجري إلى القدر[1]

فمحور المعاناة النفسية في النص تكمن في إحساس الشاعر بحالة الحزن العميق التي تملكت مشاعره بعد فقده لأخواته ، إلا ان ثمة شعوراً دفينا يمنعه من الإدمان على حالة الأسى والبكاء . ونشهد في هذه المقطوعة الشجو الوجداني الذي نجده في داليته ، وذلك الإحساس العميق بقدر الموت يختطف أشقاء الشاعر الواحد اثر الآخر ، فهم ينفقون أعمارهم موتورين طالبين للثأر [2].

ولعل مرجع ذلك إلى العرف السائد في ان يكون الرجل – لاسيما الفارس جلداً صبوراً قليل الجزع . فالملاحظ ان الرجال اكثر صبراً وجلداً من النساء في مواقف مواجهة المصائب فهم قد يتظاهرون بالصبر ويدعون اليه ، هذا يعود إلى شخصيتهم القوية في تحكيم العقل اكثر من العاطفة ، ولاشك ان المرأة اشد من الرجل حزناً وبكاءً وارق عاطفة واكثر جزعاً . الا أننا نجد سيدة الرثاء العربي –الخنساء – وهي تُصبّر نفسها ومن حولها عندما فقدت أخاها وفي اكثر من قصيدة مخالفة بذلك ما هو معروف من جزع النساء اللواتي كن في الجاهلية يحلقن شعورهن ويضربن صدورهن عند فقد الأحبة ، كما في قافيتها التي تقول فيها :

هريقـــي مـــن دموعِـــك واســـتفيقي وصـــبراً ان أطقْـــتِ ولـــن تطيقـــي
بعاقبـــةٍ فـــإنّ الصّـــبرَ خيـــرٌ مـــن النّعلـــين والـــرّأسِ الحليـــق[3]

فضلاً عن داليتها التي تعلن فيها التسليم لا مر الله اذ لا راد لقضائه :

وقـــائلين تعـــزّي عـــن تـــذكّرِهِ فالصّـــبرَ لـــيس لأمـــر اللهِ مـــردودُ[4]

---

[1] م.ن /64.

[2] موسوعة الشعر العربي (ايليا حاوي ومطاوع صفدي) /576.

[3] ديوانه / 62-63.

[4] م.ن/256، العزاء :الصبر.

وعلى الرغم من المصائب الكبيرة والأحزان المرّة ، فان الرثاة العرب يتفقون في ناحية مهمة وهي ادعاء الصبر والجلادة أما الآخرين في بعض الأحيان حتى لا يوحي حزنهم بالضعف ، ثم يؤدي إلى شماتة الأعداء وهذا ما لا يريدونه كما أحس الراثي متمم فيتماسك وهو غارق في يأسه ولوعته بضعف موقفه وانخذاله بعد موت أخيه فيتماسك لئلا يشمت به الأعداء او يتهم بالضعف كالنساء، فيقول :

وليست إذا ما احدث الدهرُ نكبة ورزءاً بزوار القوائبِ اخضعا[1]

وبهذا اخرس الألسنة الشامتة وابتلع أوجاعه في صمت الرجل الكبير رغم هول المصاب ومرارته وكثرة الطعنات وقسوتها فتحمل وتجلد صامداً بالرغم من انه فقد اعز الناس واجمعهم لخلال الخير .

وتشير طبيعة التناول الفني والمعالجة الموضوعية لهذه النماذج إلى كيفية توجيه التفاصيل للتعبير عن الانفعال النفسي ، لذلك نجد الشاعر يعتمد على دقائق الواقع معتمداً في ذلك على قدرته الفنية في استثمار الحدث ، ويقول أبو عداس النميري مفسراً ما جُبِلَ عليه من تجلد وصبر :

أعدّاس هل يأتيك عني أنه تغير خلاّن فطال شحوبُ
أعدّاس ما أدراك ان ربّ هالكٍ تقطّعُ من وجد عليه قلوبُ
تخطيته من ان أرى باكيا له فيشمت عاد او يساء حبيبُ[2]

وهذا الإصرار على الصبر والتجلد كما يبدو وهو أسلوب الرثاة العرب في تعليل صمودهم أمام المصائب [3]وان كل هذه الشواهد تؤكد صبر الراثي الفاقد على بعُد فقيده وهي مع غيرها كثيرة في شعر المراثي [4]،وبصور شتى ....

---

[1] مالك ومتمم /115.

[2] المؤتلف والمختلف /162.

[3] كما فعل كعب الغنوي في رثائه لأخيه (الاصمعيات) /93.

[4] ينظر : شرح ديوان الحماسة للمرزوقي 100/1 لبشامة بن جزء النهشلي ، ديوان الهذليين 114/1.لأبي ذؤيب الهذلي في رثاء نشيبة .

ونجد في بعض القصائد وبوضوح عنصر التأسي والتصبر ، فكثيراً ما اظهر الشاعر حزنه المضطرم ، ثم لا يلبث ان يلجأ إلى التأسي ، وإظهار التجلد على فقده فيتمالك حيناً ، ثم لا يلبث ان يتهالك ، ويظهر هذا التنوع في ألوان العاطفة في رائية أعشى بأهله الذي مزج الجزع والصبر حينما فقد أخاه ، قائلاً :

فــان جزعنــا فقــد هــدت مصــيبتُنْا وإن صــبرنا فانــا معشــرٌ صــبرُ[1]

فالصبر شيمة يفخر بها الشاعر الجاهلي ، والجزع حالة طبيعية عندما يتعرض الشاعر للمصيبة وهو معذور في الأحوال كلها ، فهذا الغطمش الضبي قد جمع بينهما في رثائه لامرأته ،قائلاً :

جميــل وحــق الله فــي مثلــك البكــا واجمــلُ لــي منــه التجلــد والصّــبر
فــان صــبرت نفســي فــذلك شــيمتي وان جزعت يومــاً فانــت لهــا عــذرُ[2]

على ان الراثي لا يكتفي بتصوير صبره في أشعاره حسب ، بل يجعلها صفة يشير أليها في مدح المرثي ، او بعبارة أخرى لم يكتفِ الشعراء " بتصوير شعورهم الحزين بل يضيفون أليه اشادة بالميت ومناقبه [3]،وهذا امر مستحسن في المراثي كما يقول المبرد : " فاحسن الشعر ما خلط مدحاً بتفجيع " [4]. على ان في مقدمة الفضائل التي تغنى بها الشاعر الراثي ، البطولة ، والشجاعة والأقدام ونرجح ان صدق الشاعر وعفويته ، أديّا به إلى التركيز على هذا اللون من الفضائل ، وذلك لان اكثر النصوص التي تغنت بهذا الطراز ، قالها شعراء فقدوا أحباءهم من الفرسان

---

[1] مختارات ابن الشجري /8.

[2] الحماسة البصرية 250/1، ولم اقف على ترجمة الشاعر سوى ان التبريزي في شرح لحماسة (62/3) ذكر انه الغطمش من بني شعره بن كعب بن ثعلبة بن سعد بن ضبة .

[3] الرثاء في الشعر الجاهلي /54.

[4] التعازي والمراثي /27.

، ومن هنا جاء هذا الاتجاه الذي سلكه الشعراء – يتواءم اشد المواءمة ، مع ظروف وفاة الفقيد . فالشجاعة والأقدام والنخوة والصبر على النزال ، تلائم من يموت في ساحة المعارك ، وتضفي إحساساً من نوع خاص عندما يلهج الشاعر الراثي بالإشادة بالفقيد . لذا نجد الشعراء قد تفننوا في رسم الصور المثيرة للمشاعر ، فنجدهم يصفون المرثي – لاسيما إذا كان فارساً بالشجاعة والجلد عند التقاء الجمعين ؛ والخنساء تفخر بتجلد أخيها في المعارك واصفةً اياه بقولها :

وإنَّ صـــخراً لتـــأتمُّ الهـــداةُ بـــهُ كانّـــهُ علـــمٌ فـــي رأســـه نـــارٌ
جلـــدٌ جميـــلُ المُحيّـــا كامـــلُ ورعٌ وللحـــروبِ غـــداة الـــروعِ مســـعارٌ
حمّـــال الويّـــةٍ هبّـــاط اوديـــةٍ شّـــهّادُ انديـــةٍ للجـــيشِ جـــرّار[1]

ودريد بن الصمة لم يأت بجديد في منح أخيه هذه الصفات العامة التي يشاركه الآخرون فيها ، فالعزم والشدة والصبر من الصفات المحمودة التي يجمل بالرجال المحاربين ان يتسموا بها لأنها تعد من أسباب النصر وقد رثى دريد أخاه بهذه الصفات ؛ فقال :

كمـــيشُ الإزار خـــارجٌ نصـــفُ ســـاقه صـــبورٌ علـــى العـــزاءِ طـــلاعُ انجـــدِ
قليـــلٌ تشـــكيه المصـــيباتِ حـــافظٌ من اليومِ أعقابُ الأحاديثِ في غدِ[2]

فلا عجب ان يبدي يونس بن حبيب إعجابه بالبيت الأول حتى يقول " انه افضل بيت قالته العرب في الصبر على النوائب "[3]. وان مثل هذه القصائد تقتصر على عاطفتي الإعجاب والحزن في حين تختفي عواطف الغضب والثأر فيعبر الراثي

---

[1] ديوانها /386-387.
[2] ديوانه /49-50.
[3] الأغاني 10/10.

عن أحزانه الهادئة ويفيض في ذكر مناقب المرثي وصفاته وما يتمتع به من كرم أخلاق ومروءة وصبر وقناعة وعفة فهو جامع لكل صفات الخير وهذا ما نقرأه في اكثر قصائد الرثاء الجاهلي ، وقد صّور ذلك متمم بن نويرة في لاميته عند رثائه لأخيه مالك ؛ قائلاً :

كـريمُ النثـا حلـوُ الشـمائلِ ماجـدٌ صبورٌ على العزاء مشتركُ الرحلِ[1]

وربما يعود هذا التركيز في الصفات الى رغبة الراثي في ان يرى مكانة مرثيه وأهميته ، فضلاً عن تجسيده لتلك الصورة المثلى التي احتلت المكانة العليا في وعي الشاعر .

وقد وظف بعض الشعراء لفظة (الحلم) للدلالة على صبر المرثي ،وفي إحدى مرثيات المهلهل لأخيه كليب نجده يعدد مناقبه وصفاته ذاكراً حلمه وعفوه مع قدرته على العقاب والانتقام :

وإنّـك كنُـت تحلـمُ عـن رجـالٍ وتعفـوُ عـنهم ولـك اقتِـدارُ
وتمنـعُ أنْ يمسّـهُمُ لسـانٌ مَخَافَـه مَـنْ يجُيُـر ولا يجـارُ[2]

فالصبر و الأناة إحدى صفات الحليم العاقل والحلم هو كتمان الغيظ والصبر على الجاهل عند الغضب . ومن خلال تأملنا لدواوين الشعراء الجاهليين وجدنا في التأسي والعزاء خير وسيلة للوصول الى الصبر والتجلد الذي استل الشاعر منه ما يغنيه عن التأسي عن رجال مضوا فخلفوا ما يخلدهم في ذاكرة الناس . فضلاً عن الوصول إلى حقيقة استسلام الرجال لرحيل الأحبة وصبرهم الذي كان اكثر من صبر

---

[1] مالك ومتمم /132(الرحل رسل البعير) ، (النثا : مثل الثناء الا انه في الخير والشر معاً).

[2] المهلهل حياته وشعره /241. وينظر: رثاء كعب بن سعد الغنوي لأخيه (الاصمعيات /97).

النساء . وهذا عائد الى شخصيتهم التي بنيت على الجلد ، وكونهم يحكِّمون العقل اكثر من العاطفة . على ان هناك أبياتاً يترجح الشاعر فيها وهو في حيرة من أمره أيصبر ام يجزع لهذا الفراق المرّ ، فالصبر شيمة يفخر الشاعر بها والجزع حالة طبيعة ، على ان الشاعر لم يكتف بتصوير صبره حسب ، بل صور صبر المرثي وحلمه ، ولا سيما إذا كان فارساً .

والذي يطالعنا ان الشاعر يرى نفسه فيمن يموت فلا يكون أمامه سوى التأسي و التصبر ليهون على نفسه ما لم يستطع ان يتغلب عليه في يوم من الأيام وكيف ان الصبر عبر عن فترة من السكينة في نفس الشاعر ، ورسم صورتها المثلى .....

3. **الشيخوخة والهرم:**

لعلنا لا نبالغ إذا قلنا بأننا نجد في الشعر الجاهلي أسمى العواطف الإنسانية من خلال تصوير ما يخالج ذات الشاعر من مشاعر رضا او خوف يعتريه او قلق مستديم على مصيره المجهول بعد ان يصبح شيخاً وهرماً .

فالشيخوخة والهرم تجربة إنسانية يعبر الشاعر من خلال تناولها عن صميم المعاناة في مرحلة من مراحل العمر عندما يتقدم السن به ففيها يلتفت إلى نفسه ويعبر عن ذاته والهواجس التي تقلقه ولكنه يتحول بالمعاناة الى نوع من التجلد فهو يستثمر واقع شيبه وهرمه ليعبر عن قوته وصلابته وعدم اكتراثه لهذه الشيخوخة ولهذا الهرم . "فيتسع صدره ويصمد واقفه لطوارئ الحياة مهما كلفه الأمر من تبعات" [1] وقافية الأعشى جاءت تحدياً لشيخوخته جاعلة من الشجاعة والقوة سلاحاً لمواجهة الشيخوخة ، اذ يقول :

أرقتُ وما هذا السهادُ المؤرّقُ وما بي من سُقمٍ وما بي مَعْشَقُ
ولكن أراني لا أزال بحادثٍ اغادي بما لم يُمْسِ عندي واطرقُ
فان يمس عندي الشيب والهم والعشا فقد بُنَّ مني والسِّلام تفلّقُ
بأشجع أخاذٍ على الدهر حُكمهُ فمن أي ما تجني الحوادثُ افرقُ[2]

وبالرغم مما أصاب الشاعر من الهم وكلال البصر فلم يتركه الزمن إلا رجلاً شجاعاً صابراً ، فقد تعلم من النكبات و أفاد منها ، حتى عاد لا يخيفه تجدد الأحداث..ولم يكترث الشعراء بشيبهم اذ انه جاء نتيجة الحروب والوقائع التي يفخرون بمشاركتهم فيها ، وعينية عروة بن الورد جاءت صورة لهذا الفخر ، إذ يقول :

فما شاب رأسي من سنين تتابعت طوال ولكن شيبته الوقائع [1]

---

[1] الشيب والشباب في الأدب العربي /68 .

[2] ديوانه / 267 ، (السلام) : الحجارة الصلبة ، (الاشجع) : الشجاع ، (الاخاذ) : الذي ياخذ من غيره أي انه ورث الشجاعة .

وقد عبر الشعراء عن صبرهم على الشيب والشيخوخة من خلال مواجهتهم لتمرد المرأة عليهم او انصرافها عنهم ، فاظهروا أنفسهم أمام محبوباتهم بمظهر الصلابة وقوة الإرادة والعزيمة وكذبوا مزاعمهن الباطلة ، فامرؤ القيس يقول :

ألا زعمت بسباسةُ اليوم أنني كبرت وإلا يُحْسن اللهو أمثالي
كذبت لقد أصبي على المرء عرسه وامنع عرسي ان يزُنّ بها الخالي
ويارب يوم قد لهوت وليلةٍ بآنسة كأنها خط تِمثالِ[2]

واظهر المرار بن منقذ صبره على شيخوخته عندما أنكرته حبيبته ، فاظهر لها عدم اكتراثه بزوال شبابه ، لأنه ما زال ما جداً كريماتً وذلك ما يسقط اثر الشيخوخة التي جزعت منها :

عجباً خولة اذ تنكرني ام رأت خولة شيخاً قد كبر
وكساه الدهر شيباً ناصعاً وتحنى الظهر منه فاطر
ان تري شيبا فاني ماجد ذو بلاء حسن غير غمر
ما انا اليوم على شيء مضى يا ابنة الأقوام ولى بحسر[3]

وواجهة الشاعر الجاهلي نفر بن قيس زوجته – حين أنكرت عليه كبره بأنها كبرت مثله فالصبر أولى بها و به ، قائلاً :

ألا قالت بهيسة ما لنفر أراه غيرت منه الدهور
وأنت كذلك قد غيرت بعدي وكنت كأنك الشعرى العبور[4]

---

[1] ديوانه /100 .

[2] ديوانه /28–29.(أصبي) : أي اذهب بفؤادها .

[3] المفضليات /27.

[4] الحماسة 64/2. وهو نفر بن قيس بن ثعلبة .....بن عمرو بن الغوث بن طيء ، وهو الجد الثاني للطرماح.

وغالباً ما نجد حكمة الشاعر وصبره وثباته عندما ينعت بالشيخوخة ، فيغلظ قلبه ويتسع صدره ويصمد واقعه لطوارئ الحياة مهما كلفه الأمر من تبعات وفي بائية جروة بن يزيد يصور عتاب زوجته له وتوبيخها بسبب آثار طول العمر فيه ، محاولاً من خلال حواره معها ان يعلل كبره بان هذه الأيام هي موعظة وتجارب بالنسبة له ، قائلاً:

وقالتْ قد كَبِرتَ ، وقلْتُ حقاً ... كِبِرْتُ ، فكفكفي ودعي عتابي
عتابُك كُلَّ يومٍ لي عذابٌ ... ومثلي لا يقرُّ على العذابِ
فان لم تَصْبري وكرهْتِ قربي ... فدوُنَكِ ما أردْتِ من اجتنابي
يَروْنَ الموت افضل من حياةٍ ... تُصَيّرها الدّهور إلى تباب
وفي الأيامِ لي عِظةٍ وناهٍ ... وما أرضى مُعاتبة الكعابِ[1]

ويرسم الأعشى لنا صورة رائعة يستسلم فيها للشيخوخة ، على الرغم من أننا نكاد نلمح اثر تقدم السنين بالشاعر في هذا الاستسلام الهادئ الذي يشيع في داليته التي يقول فيها :

ألم تغتمض عيناك ليلة ارمدا ... وعادك ما عاد السليمَ المسهدا
وما ذاك عن عشقٍ النساء وإنما ... تناسيتَ قبل اليوم خَلّةَ مهددَا
ولكن أرى الدهر الذي هو خاتر ... إذا أصلحتْ كفاي عاد فأفسدا
شبابٌ وشيب وافتقارٌ وثروةٌ ... فللّهِ هذا الدهرُ كيف تردّدا
ومازلت أبغي المالَ مذأنا يافعٌ ... وليداً وكهلاً حين شبتُ وأمردَا
وأبتذلُ العيس المراقيلَ تغتلي ... مسافة ما بين النجير فصَرْخدا
فان تسألي عني فيارُبَّ سائلٍ ... حفيٍّ عن الأعشى به حيث أصعدا[2]

---

[1] كتاب المعمرين /60.

[2] ديوانه /185(الأمرد الذي لم ينبت شعر لحيته) (المراقيل والاقال ضرب من عدو الإبل) (تغتلي– تسرع) حفي بالرجل : تلطف به وبالغ في إكرامه.

ووظف الشعراء لفظة (زعم) للدلالة على إنكار ما اتهموا به من شيخوخة وعجز ، وخاصة إذا كان هذا الزعم صادراً من قبيلة كاملة وليس شخصاً معيناً كما اتهم النابغة الجعدي بذلك ، فأثارت مشاعره ، فتصدى لهم بأنه باق كالسيف اليماني الذي مهما طال العمر به فانه قويٌ لا ينثلم:

فمن يكُ سائلاً عنّي فانّي ... من الفتيان في عامِ الخنانِ
فقد أبقتْ صروف الدّهر منّي ... كما أبقت من السيف اليماني
تفلّل وهو مأثور جراز ... إذا جمعت بقائمهِ اليدانِ
الا زعمت بنو كعب بأني ... -الا كذبوا- كبيرُ السّن فاني[1]

وربط الشعراء بين الشيخوخة والدهر حتى قيل " ان نوائب الدّهر لا تدفع الا بعزائم الصبر " [2] و" لادواء لداء الدهر إلا بالصبر" [3].

لقد تحدى الشاعر الجاهلي الشيخوخة والهرم وذلك من خلال إبراز قوته وصلابته في الحرب التي خاضها مبرراً شيخوخته بأنها نتيجة مشاركته في الحروب وما هذه الشجاعة والبطولة إلا تحدٍّ للشيخوخة أمام محبوبته التي ابتعدت عنه ، غير أنّ نفراً أخر من الشعراء جعل كرمه وسخاءه تعويضاً عن شبابه الذي فقده ، وان الحكمة التي وصل إليها والنصيحة التي يُسديها ما هي إلا مخاض التجارب التي مرّ بها على مرّ السنين العاتية .

ويلاحظ ان صبرَ الشاعر على الشيخوخة والهرم قليل جداً[4]، وهذا عائد إلى جزع الشاعر المعمر من الشيخوخة والهرم فقلما نجد شاعراً اظهر صبره على الشيخوخة أمام الناس في حين نجد اكثر الشعراء قد تمنوا الموت لإنهاء هذهِ الحياة القاسية.

---

[1] شعره/160، الخنان :داء يصيب الإبل في مناخيرها وتموت منه.
[2] المستطرف من كل فن مستظرف 63/2.
[3] م.ن 63/2.
[4] ينظر : القائمة (1).

04. عقدة النقص:

وبرزت عقدة اللون والشكل عند شعراء ما قبل الإسلام وبشكل لافت للنظر مما أدى إلى الغربة النفسية والانسحاب إلى الذات المفردة التي حملت الشاعر على التغني بعذابه ، وصوغ لحن الألم ليحكي من خلاله الأحزان والمعاناة[1].

فقد ظل الشاعر الجاهلي بنفسه يحاول ان يحقق ذاته المميزة من خلال التحدي والمواجهة للإفلات من الواقع المؤلم والمسيطر عليه ، فاظهر الشاعر ما عنده من قوة وقدرة وتحمل وصبر محاولاً مواجهة عقدة النقص والحرمان من خلال معالجة سواد اللون ودمامة الشكل وضآلة الجسم .....الخ.

ويعدُّ عنترة أحد الشعراء الذين شكل السواد عندهم عقدة نفسية وقد سجل معاناته في عدد من القصائد محاولاً التغلب على تلك العقدة متجهاً إلى غمار الحرب للدفاع عن القبيلة متمسكاً بـ(نحن)... مبتعداً عن (الانا) ، محققاً التعادل بين " الانتقام من المجتمع "[2]، وبين رفض القبيلة له للونه الأسود وذلك " لإيمان القبيلة بجنسها "[3]، لقد كانت عقدة اللون سبباً في انعدام التوافق الاجتماعي [4] ، وكثيراً ما كانت تكسر قلب الشاعر وتدمغه [5]، على أننا واجدون لعنترة شعراً يجعل فيه فعاله الكريمة ،غطاءً على لونه وتعويضاً عنه ، جاعلاً من الحرب سلاحاً للصبر وشفاءً للنفس ولحاجة قومه إليه ولشجاعته وهو يقول في ذلك :

ولقد شفى نفسي وأبرأ سُقْمها قيل الفوارسِ وَيْكَ عَنْتَرأقدمِ[6]

---

[1] ينظر : الغربة والحنين في الشعر العربي قبل الإسلام /66.

[2] الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي /250.

[3] الشعراء الصعاليك /338.

[4] ينظر : م.ن /229.

[5] ينظر : الشعراء السود /41.

[6] ديوانه /219.

ومثلما تحدى عنترة لونه الأسود تحدى من يعيره بنسبة ، مغطياً على ما شعر به من نقص في اصالة نسبه ، فهو وان كان ابن أمة سوداء فان له فعالاً عظيمة تشرفه وتعوض ما وسم به ،وعليه لم يجد إلا الفروسية طريقاً يسلكه تصبيراً عن سواد لونه واعتلال نسبه فقدم نموذجاً لذلك بقوله :

انّي امرؤٌ من خَيْر عبسٍ منْصباً شَطْري،أحمْي سائري بالمُنْصَلِ
وإذا الكتيبةُ أحَجَمتْ وتلاحظتْ ألْفِيتُ خيراً من مُعِمّ مُخْوِلِ[1]

وبالرغم من ان عنترة لم يعبر عن (صبره) على سواد لونه فان تعبيره عن صبره في سوح القتال يبدو لنا نوعاً من الصبر على العقدة التي دفعته الى تلك السوح وجعلته يبلي البلاء الحسن فيها.

على ان مكامن الضعف الإنساني في ظل الظروف الصحراوي ظلت تشكل تحدياً مرهقاً حاول الشعراء تجاوزه من خلال منافذ لا تنقصها براعة الابتكار[2]، ومن خلال إظهار القدرة على التجلد والصبر لمواجهة هذا النقص والعقدة بطريقة يظهر فيها الشاعر قدرته على معالجة الأمور ؛ ومن ذلك معالجة العباس بن مرداس ضآلة جسمه ، بقوله :

ترى الرجلَ النحيفَ فتزدريه وفي أثوابه أسدّ مزيرُ
ويعُجبك الطريرُ فتبتليه فيخُلف ظنَّك الرجلُ الطّريرُ
فما عِظَمُ الرجالِ لهم بفخْرٍ ولكنْ فخرهم كرَمُ وخيرُ[3]

---

[1] ديوانه /248،250، (معمم ومخول) :ذو أعمام واخوال معروفين .(تلاحظت): نظر بعضهم الى بعض ايهم يتقدم.

[2] ينظر : دراسات نقدية في الأدب العربي/176.

[3] ديوانه /58-59 ، (الطرير) : الشباب الناعم الممتلئ، (خير):شرف.

فالصبر مثل مساحة مهمة من المعالجة الموضوعية ، وتجسيد الفكرة حيث كان مجيئه مستوعباً أبعاد المغزى المطلوب منه ، فأدى دوره في النص ، معبراً عن هدفه ، ومستثمراً جميع أبعاده في إظهار الصورة المبتغاة وهذا الاتجاه قد حرص عليه كل شاعر عربي لإدراكهم ما للصبر من أهمية لا يمكن التغاضي عن أثرها وبهذا المنطلق عالج السمؤال بن عادياء قلة عدد أبناء قومهِ بقوله:

تعيرنـــا أنـــا قليـــلٌ عديـــدنُا فقلـــتُ لهـــا ان الكـــرامَ قليـــلُ
ومـــا ضـــرَّنا أنـــا قليـــلٌ وجارنـــا عزيـــزٌ، وجـــار الاكثـــرينَ ذليـــلُ[1]

ويحاول الشاعر عمرو بن معد يكرب تصبير نفسه بعد فراره من ساحة الحرب من خلال التذكير بأن له مواقفَ شجاعة سابقة مسجلة ،وعلى الرغم من ان الشعراء الفرسان لا يسجلون الهزائم على أنفسهم فان الشاعر يقول :

أجاعلـــــةٌ أمُّ الثـــــويرِ خزايـــــةً علـــيَّ فـــراري أنْ لقيـــتُ بنـــي عـــبس
- - - - - - - -
ولـيس يعـابُ المـرءِ مـن جـبن يومـهِ إذا عُرِفَـتْ منـه الشـجاعة بـأمسِ[2]

---

[1] ديوانه/90.

[2] ديوانه /119.

ان ما رويناه من أبيات تقدم لنا صورة من صور محاولات الصبر على حالات الإخفاق التي أراد الشاعر ان يعبر من خلالها عن معاناته او محاولة لمعالجة الإحساس بالنقص من خلال التسامي او التعويض بالتركيز على جلاء الوجه المشرق لمشاركته في الحروب لإبراز ما لديه من شجاعة وفروسية تعوض عن نقصه ، فضلاً عن فخره بنفسه وبأخلاقه العظيمة ، التي لا يمكن ان تكون صفة لجميع الناس . أما ضآلة الجسم فقد عالجها الشاعر من خلال المقارنة بين جسمه وجسم غيره ليفوز هو في النهاية ، وبالمنطق نفسه عالج الشاعر قلّة عدد قومه فمنحهم من السمات المثلى ما يعوض عن عددهم الضئيل بل يحيل قلة العدد مفخرة بطريق غير مباشرة .....

ثانياً .المثير الاجتماعي :

كانت البنية الاجتماعية التي وجد الفرد الجاهلي نفسه منتمياً إليها دائراً في فلكها بنية ذات خصائص متميزة فهي بنية قبلية تقوم على رابطة الدم بين الأسر والأفراد ثم بين القبائل التي كان جدب البيئة الصحراوية وقسوة مناخها وشحة موارد العيش فيها عوامل تدفع إلى التنافس الذي قد يتطور إلى صراع طالما تمثل في حروب سريعة حاسمة او حروب طويلة يغدو الباعث على تكرار معاركها الانتقام وأدراك الثأر بعد نسيان السبب الذي بعث على نشوب أولى معاركها ولم يكن أمام الفرد الجاهلي إلا أن ينجرف في تيار واقعه القبلي فيخوض الحرب امتثالاً لإرادة قبيلته ويحجم عنها انتثالاً لأرادتها أيضاً وهو يمارس الأمرين بدافع انتمائه الذي جعل واقع الحربٍ واقع حياة لابد له من مواجهته متدرعاً بقيم الفروسية التي غدت عرفاً أخلاقياً موروثاً ومن هنا تكررت في القصائد الجاهلية صور الصبر في سوح المواجهة والتعبير عن الاقتدار المتجاوز لمشاعر الخوف والتردد والأحجام.

وكان للعلاقات الأسرية والقبلية آثارها أيضاً في تشكيل شخصية الفرد الجاهلي لما كانت تفرزه من مداخلات ومشكلات ومعضلات في بعض الأحيان فكان للشعر ان يعبر عن مواقف متباينة منها التعبير عن حالة الصبر والمطاولة في مواقف مواجهة تلك المشكلات ، وكان للشعراء ان يرسموا صوراً شعرية متباينة ايضاً في منطلقاتها ومضامينها وسنتناول في هذا المبحث صور الصبر على هذه المثيرات التي أفرزتها البيئة الاجتماعية وانعكست آثارها في الشعر المعبر عن إرادة الصبر في مواجهتها.

1. الحـــرب :

كانت حياة العربي ، في عصر ما قبل الإسلام صراعاً دائماً بينه وبين بيئته الصحراوية القاسية ، فكل شيء فيها يوحي بان البقاء للأقوى[1]. ومن هنا كانت الحرب عندهم تهيج لأوهى سبب ، وتُشن لأدنى حدث ،وأحيانًا تظل ملتهبة بين القبائل أعواماً ، ولا تهدأ نيرانها [2]. والحرب ظاهرة اجتماعية صَحبت الإنسان منذ فجر التاريخ ، وان تباينت الصور التي جاءت فيها ، فالحياة البدوية ، بطبيعتها الصحراوية وظروفها الحيوية ، كانت منطلقاً واسعاً، وميداناً فسيحاً لقيام الحرب وهي بالوقت نفسه وهبت العربي حب الانطلاق ، فعاشت الحرية في دمه فقدسها ، وهو يأبى العبودية ، ويتمرد على الهوان و لا يخضع للمذلة ويفضل الموت تحت صليل السيوف ، من ان يعيش عبداً ذليلاً في ظل نعيم وافر [3]. فكان فخره يدور حول الثبات والصبر في المعركة ، وعدم الفرار ، وتفريج الكروب في الشدائد بالسلاح ، وتجلده على ظهر الخيل ، وعدم انحرافه عن الطعن ، فهو يبقى في ميدان الحرب صابراً إلى ان يفوز بالنصر [4]. ورائية الحصين بن حمام المري ، جاءت تصويراً لصبر الشاعر في الحرب وتحمل ويلاتها لان الصبر سجية الأبطال :

صبرنا وكان الصبر سجيةً ... بأسيافنا يقطعن كفّا ومعصما
يفلِّقن هاما من رجالٍ اعزّةٍ ... علينا وهم كانوا أعق وأظلما
نطاردهم تستنقذ الجرد كالقنا ... ويستنقذون السَّمهريَّ المقوما
عشيّة لا تغني الرماح مكانها ... ولا النبلُ إلا المشرفيّ المُصَمِّمَا
لدنْ غدوةً حتى أتى الليلُ ما نرى ... من الخيل إلا خارجيّاً مُسَوّما[5]

---

[1] ينظر : الفروسية في الشعر الجاهلي /46.
[2] ينظر : الشعر الجاهلي /92. وينظر ؛ فن الفخر وتطوره في الأدب العرب /6.
[3] ينظر : الفروسية في الشعر الجاهلي / 75.
[4] ينظر : شعر الحرب في العصر الجاهلي /209.
[5] ديوانه /112.

والحديث عن الصبر في الحرب يرتبط بالفخر الذاتي للشاعر نفسه ، ولم يقصر الشاعر فخره على الكرم ، كما هو شائع فحسب وإنما فخره بشجاعته وأقدامه وتجلده على ويلات الحرب ، فعروة بن الورد لا يبالي بمن يلاقيه من الأبطال المدججين بالسلاح لأنه قد اعدّ لهم سيفاً مجرياً ، قائلاً في ذلك :

إذا قيل يا ابن الوردِ أقدم إلى الوغى! اجبتُ،فلا قاني كَمَيّ مُقارعُ
فلا أنا ممّا جرّتِ الحربُ مشتكٍ ولا أنا مما احدث الدهرُ جازعُ[1]

ونجد في هذا المثير بروزاً لمعاني الفروسية التي عرفت في عصر ما قبل الإسلام ممتزجة مع معانٍ أخرى ، كانت وليدة لحالة نفسية عنيفة أثارتها تجربة آنية ، فاتخذها الشاعر متنفساً ينطلق منه ، معبراً عن ثورة مشاعره الذاتية ، محدداً إطار وجود تلك الذات الإنسانية المتميزة ، فهذا كليب يعبر في نونيته عن صبره في وقعة خزاز بقوله:

لقد عرفتْ قحطانُ صبري ونجدتي غداةَ خزازٍ والحتوفُ دوانِ[2]

نجد أن المعاني قد جاءت متسمة ببساطتها وصدقها ، متخذة الوصف عماداً لها ، ومعبرة عن الحدة النفسية التي جاءت ملائمة للواقع المعبر عن تلك العاطفة. وقد جعل المهلهل بن ربيعة هذهِ الصفة دائمة له ولأخيه لتدل على تمكنه وشجاعته ، بقوله :

وصبرنا تحت البوارقِ حتى ركدتْ فيهم السيوفُ طويلاً[3]

لقد كان من القيم التي آمن بها العربي الصبر في القتال ، وتلبية النداء التي تعد من أهم صفات الفارس العربي فالأبيات تنم عن روح الفروسية في ذلك المجتمع

---

[1] ديوانه /97-98.

[2] شعراء النصرانية /156. وقد وردت في المصدر (الحقوق) واظنها الحتوف.

[3] المهلهل حياته وشعره/324.

الذي يعدُّ الحرب مجالاً لإظهار الشجاعة وامتحاناً للبأس والرجولة ومن هنا كان للشاعر قيس بن الخطيم أن يصور نفسه مواجهاً للحرب وقادراً عليها ، بقوله:

فاذْ لم يكن عن غاية الموتِ مدفعٌ فاهلاً بها اذ لم تزلْ في المراحبِ[1]

وقد استمر الفخر يتردد على لسان الشعراء ولاسيما عنترة بن شداد ، ليجسد مواقف فردية مبنية على تقاليد اجتماعية ، اكتسبت في نظر الأفراد وبصورة تلقائية أهمية كبيرة مما عمق إحساسه بالعزم والقوة وحقق في الوقت نفسه كل عناصر الأقدام والإقبال في المواجهة ، راسماً صورتها ؛ بقوله :

ياعبل لو أبصرتني لرأيتني في الحرب أقدم كالهزبر الضيغم [2]

ونستطيع أن نقول أن الصبر لدى الشاعر كان يتخذ طابعاً ذاتياً في معظمه محاولاً من خلاله تحديد شخصيته المثلى عبر نظرة واعية لملامح الإنسان العربي مستهدياً بكل المقومات التي أتيحت له ،لنشر هذه السمة في المجتمع العربي ، طامحاً إلى التغلب على كل العراقيل التي وضعت أمامه لسير حياته بصورة طبيعية . فكانت المرأة باعثاً من بواعث استبسال الشاعر وتحليه بصفة الشهامة والكرم والأباء والصبر وحماية الجار .....الخ . وذلك ما نلمحه في دالية عمرو ابن معدِّ يكرب التي يقول فيها:

لما رأيت نساءنا يفحصن بالمعزاء شدّا
وبدت لميسُ كأنها بدرُ السماء إذا تبدى

---

[1] ديوانه / 37،(الموت) : هنا الحرب.
[2] ديوانه / هامش 220.

وبـــــدت محاســـــنها التـــــي تخفـــى وكـــان الامـــرُ جـــدا
نازلـــــت كبشـــــهم ولـــــم أرَ مـــن تـــرال الكـــبش بـــدا[1]

فالمرأة تعد دافعاً قوياً أدى الى افتخار الشاعر بصبره على نيران الحرب ، فعامر بن الطفيل يطلب من زوجته ان تسأل عنه يوم لقي (صداء) وخاض هول المعركة التي ضج منها الأبطال بل ان جواده (دعلجاً) اشتكى بحمحمته من هول الرماح وظل هو صابراً يكرُّ على الخصم بروح الفارس ، إذ يقول :

طّلقْـتِ إنْ لـم تسـألي أيّ فـارسٍ حليلَيـكِ إذ لاقـى صُـداء وخثعمـا
أكـــرُّ علـــيهم دعلجـــاً ولبانـــهُ إذا مـا اشتكى وقـع الرّمـاحِ تحمحمـا[2]

والبطولة تقتضي الشهرة . والشهرة لا تأتي لعبد مغمور كعنترة إلا مع الصبر والأناة وخوض نار الحرب لا حبّاً بالغنيمة وإنما لاثبات وجود الذات الحرة الممارسة لقيم الفروسية الحقة :

يُخبْـرَك مـن شِـهَد الوقـائع أننـي أغْشَـى الـوغى وأعـفُّ عِنْـدَ المَغْنَم [3]

وقد صور الشعر الجاهلي ملامة الزوجات على مخاطرة أزواجهن ، و إلقاء أنفسهم في مواطن الأخطار فما كان من الشاعر إلا أن يظهر شجاعته وصبره على اقتحام هذه المخاطر متجلداً على صعابها ، فيرد كعب بن سعد الغنوي على عاذلته ، قائلاً:

ألـــم تعلمـــي إلا يراخـــي منيتـــي قعـــودي ولا يـــدني الوفـــاة رحيلـــي

---

[1] ديوانـه / 68-69،(يفحصـن) : يـؤثرن ، (المعـزاء) : الأرض الصـلبة ، (الكـبش) : الرئيس.

[2] ديوانه /255.

[3] ديوانه /209.

مـع القـدر الموقـوف حتـى يصـيبني حمـامي لـو ان الـنفس غيـر عجـول
فانـــك والمـــوت الـــذي ترهبينـــه علـــيّ ومـــا عذالـــة بعقـــول
كـداعي هـديل لـو يجـاب إذا دعـا ولا هـو يسـلو عـن دعـاء هـديل [1]

ويؤكد عنترة عدم اكتراثه بالحرب واستمراره في تصوير صبره وتجلده أمام الأعداء وذلك من خلال حواره مع عاذلته ، فيقرر لها انه انْ لم يكن تفادي الموت ممكناً فانّ الخوف منه عبث لا طائل من ورائه:

بكـــرت تخـــوفني الحتـــوف كـــأنني أصبحت عن غرض الحقوق بمعزل
فأجبتهـــا ان المنيـــة منهـــل لابـــد أن أســـقى بكـــأس المنهـــل
فـاقني حيـاءك ، لا أبالـك واعملـي! انـــي امـــرؤ ســـأموت إن لـــم اقتـــل
إن المنيـــة لـــو تمثـــل مُثلـــت مثلـــي إذا نزلـــوا بضـــنك المنـــزلِ[2]

فالمرأة في حالة قلق مستمر على مصير الشاعر وركوبه أهوال الحرب فضلاً عن خوفها من فقدانه الى الأبد ، فأصبحت اكثر النساء يتوجسن من مصيرهن معهم ولاسيما الشعراء الصعاليك ، فما كان من هؤلاء الشعراء الا ان يستغلوا هذه الظاهرة في التركيز على قدرتهم وشجاعتهم على الإقدام في الحرب ، يقول تأبط شراً:

وقـــالوا لهـــا لا تنكحيـــه فإنـــهُ لأولِ نَصْـــلٍ أنْ تلاقـــي مَجْمَعَـــا
فَلَـــمْ تـــرَ مـــنْ رأيٍ فَتِـــيلاً وحـــاذرتْ تأيُّمهـــا مـــن لابـــس اللّيـــلِ أرْوُعـــا[3]

فكانت وقفة يتعمدها الشاعر لتلخيص تجربته او لطرح موقف فكري منها ، فتبقى تفاصيل الطرح والمعالجة فيها معتمدة على ماهية التجربة ، ولنا ان نلاحظ

---

[1] الاصمعيات 60/1.
[2] ديوانه /251-252.
[3] ديوانه /112-113.

ذلك في هذا النص الذي قاله الشاعر نتيجة لظرف آني احدث في نفسه صدعاً عميقاً جعله يبتدئ النص في تناوله مباشرة . في حين يجعل عنترة من نفسه مثالاً وقدوة لإقرانه في الصبر الذي جعله سمة بارزة في شعره وصفة خاصة في حياته جاعلاً من نفسه رئيساً وهم حوله كالجنود ، منه يتعلمون وهم موضع ثقته واعتزازه:

وفـــوارسٍ لـــي قـــدَ عِلمْـــتهُمُ صـــبرُ علـــى التكـــرار وآلكَلْـــمِ
يمشـــون والمـــاذيُّ فـــوقهم يتوقّـــدون توقّـــدَ الفحْـــمِ
كـــم مـــن فتـــى فـــيهم أخـــي ثقـــةٍ حُـــرَّ أغـــرَّ كُغـــرَّةِ الـــرِّيْم
ليســـوا كـــأقومٍ عَلِمْـــتهُمُ سُـــودِ الوجـــوهِ كَمْعِـــدنِ آلبـــرْمِ[1]

لقد كان عرب ما قبل الإسلام يتغنون كثيراً بالصبر والأقدام في الحرب [2]، وكانوا يقولون " ان الشجاعة وقاية ، والجبن مقتلة ، وان من يقتل مدبراً اكثر ممن يقتل مقبلاً "[3] ، ومن المسلّم به ان الحرب من العوامل المثيرة للعواطف ، فهي تحرك الوجدان بمظاهرها وتلهب المشاعر بأحداثها ، وتذيب النفوس بآثارها ونتائجها ومن هذا المنطق عبر عنترة عن صبره وأقدامه في الحرب :

ولقد حفظِتُ وصاة عمّي بالضّحى إذْ تَقْلصُ آلشّفتان عن وضح الفَمِ
فـي حَوْمـةِ المـوت التـي لا تشـكي غمراتهـا الابطـالُ غَيْـرَ تَغَمْغُـمِ
اذْ يتّقـون بـي الاسـنّة لـم أَخِـمْ عنْهـا ولـوأنّي تضـايقَ مُقَـدْميَ[4]

وهو يكاد يستثير عاذلته حين يواجهها بإصراره على خوض الحرب وصبره الطويل عليها فيقول:

---

[1] ديوانه /275-276.

[2] ينظر : الصبر والاقدام عند العرب /53.

[3] العقد الفريد /100.

[4] ديوانه /215، (لم اخم) :لم اجبن.

أعـاذل كـمْ مـن يَـوْمَ حِـرْبٍ شَـهدْتُه لَـــهُ منظــرٌ بــادي النّواجــذِ كــالِحُ
فلــم ارَ حّيــاً صــابروا مثــل صَــبْرِنا ولا كــافحوا مثــل الــذين نكــافِحُ[1]

فالصبر عتاد العربي ووسيلته لتجاوز صعوبة العيش وضنك الأيام وسلاحه القوي المؤثر هو الذي يضيف الى شجاعته اقتداراً وقوة في ميدان الحرب ، وان طبيعة الحياة الصحراوية التي عاشها العربي جعلت الصبر من المستلزمات التي لا يستغني عنها لاسيما ان نيران الحرب كانت تشتعل بين القبائل العربية بسبب التنازع على المراعي والحصول على لقمة العيش في صحرائهم الشحيحة ، او قد يخوضونها حماية لجارٍ او إجابة ملهوف يبغي المساعدة [2]فمن الشعراء من يتخذ الصبر درعاً عندما تشتد الرماح عليه في المعركة ، وقد جسد ذلك بشر بن أبى خازم ، بقوله:

صــبوراً عنــد مختلــف العــوالي إذا مــا الحــرب أبــرزت الكعابــا[3]

ويُذكّر مالك بن نويرة الأعداء بشجاعته وصولاته وتجلده في الحروب فهو النار التي تتلظى في الروابي فيخشى الأعداء الاقتراب منها ويتجنبون لهيبها فيقول:

الــم أك نــارَ رابيــةٍ تلظّــى فتتقيــا إذاي وترهبــاني[4]

وهذا المهلهل بن ربيعة يفتخر بشجاعته وهو يقتحم نار الحرب الملتهبة فلا يتوانى عن الأقدام والاقتحام ، متحكماً بنيرانها فان شاء اشعلها وان شاء أخمدها وهذا ما افصح عنه بقوله :

يــاربّ يــوم تكــونُ النــار فــي وهــجٍ فيــه جعلــت علــى نفســي مكاويهــا
مســتقدماً غصصــاً للحــرب مقتحمــاً نــاراً أهيّجهــا حينــاً واطفيهــا[1]

---

[1] م.ن/299.

[2] ينظر : الصبر في شعر الفرسان في العصر السابق للاسلام/1.

[3] ديوانه /28. الكعب : العظم الناشز.

[4] شعره /81.

ومنها نجد انّ الفخر والحماسة كانا من أهم الأغراض التي طرقها الشعراء في قصائدهم للتعبير عن صبرهم ، فقد أججّتْ حماستهم الحروب، و أمدتهم بوقود للتغني ببطولاتهم واقتحامهم النيران دفاعاً عن حمى القبيلة [2]فالصبر هو سلاح الشاعر في الحرب ، كما عبر عنه عنترة :

لا تَعْجَلـــي أشـــدد حـــزام الابْجَـــرِ انـــي إذا المْـوتُ دنـا لـمْ أَضْـجَرِ[3]

وبعد ان صور الشاعر صبره وتجلده في الحرب اتجه ليصور لنا صبر الآخرين . فهو الصوت الذي يجهر بمآثر قبيلته لتطغى سمعتها على سمعة غيرها من القبائل ، فقد كان عليه ان يشيد برجالها وتميزهم بالصبر على الحرب والتجلد عند اقتحامها ، وعبر عن ذلك كعب بن زهير مفتخراً بقومه مشبهاً إياهم بالليوث ، وذلك في قوله :

انـــي آمـرؤ أقنـــي الحيـــاء وشـيمتي كـــرمُ الطبيعـــةِ والتجنّـــبِ للخْنَـــا
مـــن معشـــرٍ فـــيهم قـــرومٌ ســـادة وليـوث غـابٍ حـين تضـطرمُ الـوغى[4]

وطبيعي ان يفخر الشاعر الجاهلي بقومه فهو يرى فيهم الشجاعة والقوة والتجلد . وكانت قيمة الصبر تستخدم الى جانب البطولة والشجاعة في تصوير شخصيات ممدوحي الشعراء فهم يحاولون ان يصفوا ممدوحيهم بالصلابة والصبر والتجلد في الحرب ، كما فعل دريد بن الصمّة مع ممدوحه عبد الله بن جدعان ، بقوله:

وجلـــدٌ إذا الحـــربُ مـــرت بـــه يعـــين عليهـــا بجـــزلِ الحطـــبِ[1]

---

[1] المهلهل حياته وشعره /365.

[2] ينظر : تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي) /202.

[3] ديوانه /334.

[4] ديوانه /33. (الخنا) : الفساد . (المقرم) : البعير المكرم ومنه قيل للسيد قَرْم ومُقْرَمَ.

ويقترن الصبر في الحرب عند الفارس بالوقار ، والصلابة وعدم الجزع من مواجهة التحديات ، بل هي سمة من سمات الفارس المغوار ، قال الحطيئة:

مطاعين في الهيجاء بيضٌ وجوهم إذا ضجَّ أهلُ الَروْعِ ساروا وهم وقرٌ[2]

ونجد في هذا الباب بروزاً لمعاني الفروسية التي عرفت في عصر ما قبل الإسلام ، ممتزجة مع معانٍ أخرى ، كانت وليدة لحالة نفسية عنيفة أثارتها تجربة آنية ، فاتخذها الشاعر متنفساً ينطلق منه ، معبراً عن مشاعره الذاتية ،في إطار تلك الذات لإنسانية ، والمفضل النكري وهو من أصحاب المنصفات يبدي إعجابه بأعدائه ، وينصفهم أنصافاً ظاهراً وهو يشيد بثباتهم في الحرب وصبرهم على مكارهها، قائلاً :

هم صبروا وصبرهم تليد على العزاء اذ بلغ المضيف[3]

على ان قدرة الشاعر وبراعته لم تكتف بذكر صبره وصبر الآخرين على الحرب ، حسب بل امتدت الى وصف الخيل وتجلدها في الوغى ، وقد حظيت الخيل عند العربي بمنزلة رفيعة ، فقد احبها واهتم بتربيتها و اعتنى بها . ولم تكن العرب في عصر ما قبل الإسلام تصون شيئاً من أموالها وتكرمه كما كانت تكرم الخيل وتصونها ، لما لها من نفع كثير فقد كانوا يدافعون بها عن ذمارهم ويطلبون بها ثاراتهم [4] ، لذا كان من الطبيعي ان يتغنى العربي بامتلاكه الفرس الذي يعده مظهراً من مظاهر الشجاعة والفتوة والقدرة على التحمل ، لأنه من الأسلحة الذاتية التي

---

[1] ديوانه /33.

[2] ديوانه /102(الضجة) : الجلبة والجزع . (الوقار) : الحلم والرزانة .

[3] الاصمعيات /232.

[4] ينظر : شعر الطبيعة في الأدب العربي /108.

اعتمد عليها في حياته ، مبرزاً من خلالها أهم صفة افتخر بها الشاعر لما تظهره من شجاعة وصبر على الشدائد ، ودفع الملمات وتحمل الأعباء ، وغيرها من المعاني التي يمكن ان يؤديها الشاعر ، ويحرص على الالتزام بها ، ويجد في أدائها ضرباً من المروءة ولوناً من الفروسية ، وجاء في بائية علقمة الفحل وصف لفرسهِ ولقدرته على تحمل التعب والجهد ، وقوله:

أخاثقــةٍ لا يلعــنُ الحــيُّ شخصــهُ صـبوراً علـى العـلاّت غيـر مُسـبّبِ[1]

وقيادة الخيل في شدة وطأة الحرب وقسوتها أمر صعب لا يرتقي إليه الا ذو بأس وجلد ، يقول طرفة بن العبد في ذلك :

نُمسِــكُ الخيــل علــى مكروههــا حــين لا يمُسْــكِها الا الصّــبُرْ[2]

فهي تستجيب لإرادة البطل الفارس في أقدامه وصبره في الحرب ، يقول عنترة في ذلك :

ولقــد كَــرَرْتُ المُهْــرَ يَــدمى نحــرهُ حتــى اتْقَتْنــي الخيــلُ يــابنيْ حِــذْيَمِ[3]

وقد يدعو الفارس فرسه الى الصبر والتأسي إذا شعر بوقع الرماح عليه ، لينالا شرف النصر معاً ، كقول عامر بن الطفيل :

اذ أزوْرَّ مــن وقْــعِ الرّمــاحِ زجرتْــهُ وقلـتُ لـه : ارجـعْ مقُـبلاً غيـر مُـدبرِ

- - - - - - - -

ألسْــتِ تــرى أرْمــاحُهم فــيّ شــرّعاً وانـتَ حِصَـانٌ ماجِـدُ العـرقِ فأصـبرِ[1]

---

[1] ديوانه /92.

[2] ديوانه /68.

[3] ديوانه /221، وينظر : م.ن/304.

والخيل تخوض الحرب كما خاضها الفارس ، وتخرج منها محجلة القوائم دماً بعد وطئها القتلى ، وهي بعد هذا تأتي بالغنم فمن يعرف أيامها تعقبه الخير ، قال طفيل الغنوي في ذلك :

طـوامح بـالطرف الظـراب إذا ابـدت محُجلّـة الايـدي دمـاً بالمُخضـبِّ
وللخيـل ايـامٌ فمـن يصـطبرُلها ويعـرف لهـا ايامهـا الخيَـر تعُقـبِ[2]

ان هذه الدقة في التعبير تدل على براعة الشاعر في صياغة معانيه بأسلوب رفيع وعبارة موجز تنبع من الذات ، وتستمد من شخصيته المبدعة في عملية الخلق الشعري . وقد اسبغ الشعراء صفة الصبرّ على أنفسهم اولاً وعلى خيلهم ثانياً ، فالصبر ضروري في اقتحام الحرب وانتزاع النصر فيها.

وكان لكثرة الوقائع والحروب في حياة العرب آثاره متشعبة ، فقد انجلت بعض الحروب عن وقوع عدد من الأسرى في أيادي الأعداء فعانوا من القيود والاضطهاد الذي أدى بالشاعر منهم الى الخوف والجزع في كثير من الأحيان لكن هنالك من الشعراء منْ تحمل هذه آلالام وتجلد امامها مدعيّاً الصبر ، مخفياً معاناته متحدياً خصومه ، ومظهراً تجلده . وقد صور هذه المعاناة بصبر وعزم و إرادة قوية الشاعر عبد يغوث بقوله :

فيـا عـاصِ فـكَ القيـد عنّـي فـأنني صـبورٌ علـى مـر الحـوادثِ ناكيـا[3]

وعندما استخفت به إحدى النساء في سجنه ، قال راداً عليها متسلياً ومصبراً نفسه عن أسره بتذكره رضى زوجته عنه:

فياراكبـاً امـا عرضـت فـبلغن نـدامايَ مـن نجـران أن لا تلاقيـا

---

[1] ديوانه /107-108 (اشرعت الرمح) : اي وجهته نحوه وانت حصان اي فرس كريم شريف العرق ما ضرب فيه هجين فاصبر معي ، (ازورّ): عَدَل ومال الى ناحية أخرى.

[2] ديوانه /15-16(طمح: ارتفع)(مُحَجل: مقد)

[3] شعراء النصرانية /79.

اقــول وقــد شــدوا لســاني بنســعةٍ أمعشــر يتــيم اطلقــوا عــن لســاني
فــان تقتلــوني تقتلــوا بــي ســيداً وان تطلقــوني تحربــوني بماليــا
احقــاً عبــاد الله ان لســت ســامعاً نشــيد الرعــاء المعــربين المتاليــا
وتضــحك منــي شــيخة عبشــمية كــأن لــم تــرَ قبلــي أســيراً يمانيــا
وقــد علمــت عرســي ملكيــة أننــي أنــا الليــث معــدواً عليــه وعاديــاً[1]

لقد كانت الحياة البدوية وطبيعتها الصحراوية ميداناً فسيحاً لقيام الحرب و ولعلّ الحرب كانت من اكثر المثيرات الاجتماعية التي واجهها الشاعر بصبر وقوة إرادة وعزيمة . وقد رأينا الشاعر يظهر صبره في الحرب من خلال حواره مع عاذلته التي تلومه على إلقاء نفسه في المهالك ،قاصداً من وراء حواره بيان قوته وشجاعته ...الخ على انّ الشاعر لم يكتف بذكر صبره في الحرب فحسب ، بل صور صبراً الآخرين من القوم فضلاً عن صبر الخيل واستعدادها التي كانت مرآة عاكسة لصبر الشاعر وبصورة غير مباشرة .

ونظراً لكثرة الوقائع والحروب في الحياة الجاهلية التي أسفرت بعضها عن وقوع عدد من الأسرى في أيدي الأعداء ، فان صبر الشاعر في السجن وعلى الأسر كان قليلاً جداً إذا ما قارناه بصبر الشاعر في الحرب لان السجن مذلة للشاعر وأمانة ، فكان يعلن اضطهاده وجزعه منه أكثر من إعلان صبره فيه...فالحرب بعد ذلك تتطلب الصبر والثبات على الموت وأهوال المعارك ولهذا كانت هذه الصفة من مفاخر المحارب الشجاع التي يكثر من ذكرها الشعراء عن المحاربين الشجعان.

2.القبيلة :

وعندما نقف على مثيرٍ آخر من المثيرات الاجتماعية في هذه المرحلة من حياة الأمة نجد ان الإنسان الجاهلي في تعامله قد تأثر كثيراً بالقبيلة ، وقد أملى الانتماء عليه التزامات كثيرة ، والانتماء حاجة جوهرية وبدونها لا يستطيع الفرد تأمين احتياجاته المادية والروحية بالرغم من ميله الى الحرية التي قد يقيدها مبدأ

---

[1] م.ن/79.

الكل من أجل الواحد ، والواحد من اجل الكل ن وقد عبر عمرو بن قميئة عن حقيقة كون الانتماء ضرورة من ضرورات الوجود إذ يقول:

عــل انّ قــومي أســلموني وعرّتــي وقــوم الفتــى أظفــاره ودعائمــه[1]

وعبر المتلمس الضبعي عن الحقيقة نفسها بصيغة أخرى حين قال :

آلا إنّنــي مــنهم وعرضــي عرضــهم كذي الانف يحمي أنفه ان يكشما[2]

وإذا كان الصعاليك قد قابلوا قبائلهم بالوجه السلبي فخرجوا عن هذه القبائل يضربون في الأرض . فان عنترة قد واجه قبيلته بالوجه الإيجابي ذلك أنه قد صبر ببقائه عبداً متحملاً الإهانة التي كانت موجهة إليه ، وسعى في سبيل الوصول الى حريته ، فهو لم يخرج عن القبيلة ، ولم يجعل بطولاته فردية لذاته وإنما جعلها مرتبطة بالذات مرة وبالقبيلة مرة أخرى ، وقد قوي ارتباطه بالقبيلة أكثر فاكثر بعد الاعتراف به وأصبحت مظاهر القبيلة عنده أشد ظهوراً وأعظم بروزاً حتى قال:

وأنــا المجــربُ فــي المــواطن كلهــا مــن آل عــبسٍ منصــبي وفعــالي
مــنهم أبــي حقّــاً ، فَهُــمْ لــي ووالــدٌ والأُمُّ من حامٍ، فَهُمْ أخوْالي
- - - - ـــــ ـــــ ـــــ ـــــ
فغــدى لقــومي عنــد كــل عظيمــةٍ نفســي وراحلتــي وســائرُ مــالي
قــومي لصّــمامُ لمــنْ أرادوا ضَــيْمَهُمْ والقــاهرون لكــلِّ أغْلَــبَ خــالي[3]

وعلى الرغم من أن للانتماء القبلي مزايا كثيرة تؤمن الاستقرار للإنسان العربي ، فقد أضفت عليه هذه الحالة قبول رأي الجماعة والصبر عليه وتحمله وإلغاء الرأي الخاص على الرغم من أدراك الفرد أحياناً خطأ رأي الجماعة وسداد رأيه هو. وتبقى أبيات دريد بن الصّمة في المرثية التي اكثر الباحثون الاستشهاد بها للتدليل على

---

[1] ديوانه /73.

[2] ديوانه /21، (كشم أنفه) : اذا استأصله.

[3] ديوانه /336-337.

العصبية سمةً للمجتمع قبل الإسلام ورديفاً لمعنى الانتماء القبلي آنذاك.فانه يمكن ان يؤخذ دليلاً على العصبية في الانتماء القبلي ولكن إذا تعاملنا معه من خلال دلالته ضمن القصيدة في إطارها العام فأننا " سنجد في هذا البيت تعبيراً صادقاً عن معنى عميق للانتماء ومفهوم صحيح للالتزام بهذا الانتماء وما يتضمنه من مظاهر الولاء للقبيلة ومصلحتها ممثلة بمصلحة الأغلبية وأرادتها "[1]. حيث يقول:

أمـــرتهم أمـــري بمنعـــرجِ اللـــوى فلـم يستبينوا النصـحَ إلا ضـحى الغـدِ
فلمـا عصـوني كنـت مـنهم وقـد أرى غـــوايتهم وأننـــي غيـــر مهتـــدي
وهــل انــا الا مــن غزيــة ان غــوت غويــتُ وانْ ترشــد غزيــة ارشــد[2]

فقد عبر دريد عن مبدئية الانتماء قولاً وفعلاً ، على الرغم من معاناته في عصيانهم لأمره حين قدم لهم النصح في عدم اللبث ومواصلة السير ، وكان من حقه ان يتركهم وينجو بنفسه ، ولكنه انصاع لرغبة الجماعة ، فلم يتصرف تصرفاً فردياً أنانياً على الرغم من أن الموقف يُحسب له ويمنحه فرصة التصرف الذاتي .

ونحن عندما نقف على حقيقة العلاقات الإنسانية نجد ان الإنسان الجاهلي في تعامله ومواقفه قد تأثر كثيراً بالبيئة التي يحيا بها ، لذلك كان الشعراء يركزون على معاني اللوم والشكوى والعتاب ، من خلال إحساس الشاعر بالغربة التي يعيشها بين أبناء قبيلته ، وعندما تتراخى درجة العلاقة بين الشاعر وقومه نجدها تصل إلى العتاب ، قال العباس بن مرداس في ذلك :

أرانـــي كُلمـــا قاربـــتُ قـــومي نـــأوا عنِّـــيْ وقطّعهُـــمْ شـــديدُ
سَــئِمْتُ عتــابهم وصــفحت عــنهم وقلـــتُ لعـــلَّ حِلْمَهُـــمُ يعـــودُ[3]

---

[1] الشعر العربي قبل الإسلام بين الانتماء القبلي والحس القومي /14.

[2] ديوانه /47.

[3] ديوانه /42.

فالشاعر في كثير من الأحيان يلجأ الى إظهار معاناته من قومه الذين يتسامح معهم ولا يبادلهم بمثل عملهم علهم الى رشدهم يفيئون.

وعلى الرغم من جحود القبيلة أحياناً لشاعرها فانه يبقى ضمن دائرة آصرة القرابة رهيناً لها في تصرفاته ومواقفه ، لا يشتط في التعامل معها الا ما ندر قال الحارث بن وعلة :

قومي هم قتلوا أميم أخي فإذا رميتُ يصُيبني سَهْمِيْ
فلئنْ عفوتُ لأ عفونْ جللاً وَلئنْ سطوتُ لأوهِنَنْ عَظِيْ[1]

ففي الأبيات تتجلى براعة الشاعر في تصوير الإنسان الحليم تجاه من سلب من الأحبة على يد الأحبة ، لذلك عزى نفسه في البيت الثاني على الرغم من الحيرة التي أعطت الصورة نوعاً من الإبهام فهو واقع بين العفو والسطوة.

وعنترة الذي استحكمت بينه وبين قومه عقدة النسب واللون لم يبلغ ما بلغه من الصبر والحلم في الدفاع عن نقصه هذا وعقدته الا بدافع قوي من الرغبة في الطموح الى المجد الشعري والحربي على حد سواء وهو القائل :

انْ تكُ حربكُمْ أمسَتْ عواناً فاني لمْ أكُنْ ممنْ جناها
ولكنْ وُلْدُ سَوْدَةَ أرّثوها وشبّوا نارها لمنِ آصطلاها

فإني لستُ خاذلكُمْ ولكن سَأسْعى الآنَ إذْ بَلَغَتْ إناها[2]

ويقول ايضاً:

إنّي امرؤٌ من خَيْرِ عبسٍ مَنْصِباً شطري ، وأَحْمي سائري بالمُنْصَلِ
إنْ يُلحقوا أكْرُرْ ،وإنْ يُسْتَلْحمَوا أشدُدْ ، وإنْ يُلغوْا بضَنْكٍ أنْزِلِ

---

[1] ديوانه الحماسة 64/1.

[2] ديوانه /289-290 ، العون: الحرب ، ارثوها : أوقدوها ، فأني لست خاذلكم : أي لا اترك نصركم (اناها): منتهاها.

حـين النـزولُ يكـون غايـةَ مِثْلِنـا وَيفِـرُّ كـلُّ مُضَـلّلٍ مُسَـتوْهِلِ[1]

وعلى الرغم من جور القوم على الشاعر وظلمهم له ، نراه صابراً ومتجلداً على فعالهم ، مدافعاً وحامياً حماهم ، ويشاطره في ذلك طرفة بن العبد عند ما حرمه قومه من الميراث ، قال في ذلك مشيراً إلى صبره عليهم :

علـى مثلهـا أَمضـي إذا قـال صـاحبي ألا لَيتْنـي أَفْـدِيكَ منْهـا وأفتـدي
وجاشـتْ أليـه الـنّفْسُ خوْفـاً وخالـهُ مُصاباً ولـو امْسـى علـى غيـرِ مَرْصَـدِ
إذا القـومُ قـالوا مـنْ فتـىً خِلْـتُ أننـي عُنيـتُ فلـمْ أكسـلْ ولـم أَتبلّـدِ[2]

فالصبر شيمة يفخر بها كل عربي أصيل عامة وكل شاعر خاصة ، فهذا امرؤ القيس الذي لا يختلف عن اقرانه من خلال صبره على ظلم عشيرته يشبه صبر عشيرته عنه بصبر خزيمة عن جذام ، قائلاً في ذلك:

أَلَـمْ تريـا وريـبُ الـدّهرِ رهـنٌ بتفريـق العشـائر والسّـوامِ
صَـبَرَنا عـن عشـيرتِنا فبـاتوا كمـا صَـبَرتْ خُزيمـةُ عـن جـذامِ[3]

ومما يلفت النظر في ذلك ان معظم الشعراء يخاطبون أنفسهم طالبين منها التحلي بالصبر ، لتخفيف البلوى عليهم ، وكما جاء في رائية طرفة بن العبد عندما طلب من نفسه الصبر لأنه من قوم مشهورين بالصبر واحتمال الشدائد ، قائلاً في ذلك :

وتشـكّي الـنفسُ مـا صـابَ بهـا فاصـبرِي إنّـكِ مـن قَـوْمٍ صُـبُرْ[4]

---

[1] م.ن / 248-249، المنصب : الحسب ، المنصل : السيف ، يستلحموا : يدركوا ويحاط بهم .

[2] م . ن / 26-27.

[3] م.ن / 278 . جذام : قبيلة كانت منازلها بجبال حسمى ، من معد .

[4] ديوانه /62.

وتأخذ أحاديث الصبر على القوم او العشيرة صورة العتاب الرقيق والاستسلام لهم ، وكأنهم يتحرجون من مخاطبة قومهم بما يسيء إليهم والى عشيرتهم وعلى الرغم من انهم يلقون من هؤلاء القوم عنتاً وأذى ، او يمسكون عن وصف قومهم بما يسيء إليهم بالرغم من انهم يشعرون بالظلم الذي يلحق بهم او يلحق الآخرين ، وعبرت ميمية قيس بن زهير عن ذلك بقوله :

أظُــنُّ الحُلــمَ دلّ علــيَّ قــومي وقــد يســتجهلُ الرجــلُ الحلــيمُ[1]

وفي إطار الحكمة والنصيحة نجد اوس بن حجر مخاطباً "يزيد بن عبد الله " طالباً منه ان يكون حليماً صبوراً على قومه عندما خرج عنهم، قائلاً له:

فقوْمُــكَ لا تجهَــلْ علــيهمْ ولا تكــنْ لهــمْ هَرِشــاً تَغْتــابُهُمْ وتقُاتِــلُ
ومــا يــنهَضُ البــازي بغيــر جَنَاحــهِ ولا يحْمِــلُ الماشــينَ إلا الحوامِــلُ
ولا ســابِقٌ الا بســاقٍ سَــلِيمةٍ ولا بــاطِشٌ مــا لــم تُعِنْــهُ الأنَامِــلُ
إذا أنْتَ لم تُعرِض عن الجهلِ والخنا أصَــبْتَ حليمــاً أو أصــابكَ جاهِــلُ[2]

وفي ضوء ما رويناه من نصوص تتضح صورة العلاقة بين الشاعر الجاهلي وقبيلته من حيث دوافع الانتماء ، حيث وجدنا فيها الذات متوافقة ومتلائمة مع القبيلة وذلك بسبب طبيعة البيئة والقيم الاجتماعية التي تسمو دائماً فوق تصورات الأفراد الذين يعانون من مشكلات العلاقة مع الجماعة وهذه مسألة يدركها الإنسان المنتمي كإدراكه لذاته . وان طبيعة الحياة البدوية في العصر الجاهلي القائمة على الغزو والقتال ، كانت تقتضي الارتباط القوي بين الفرد والقبيلة . فالفرد كان عاجزاً بمفرده عن مواجهة الحياة المليئة بالمخاطر والمخاوف وكان في حاجة إلى غيره يشد آزره ويشركه في آمره ، وكان من الطبيعي ان يلتجئ إلى أهله وقبيلته .فنشأ عن ذلك

---

[1] شعره / 33.

[2] ديوانه /99 . (الهرش): المائق الجافي.

علاقة مشتركة تقوم على القرابة والمنفعة وكانت هذه العلاقة صورة الارتباط القبلي الذي جعل الفرد مسؤولاً عن القبيلة ، والقبيلة مسؤولة عن الفرد .

والذي نراه أيضاً ان لوم القبيلة وعتابها او الانفصال عنها لا يعني كره الشاعر لقومه ، وإنما يبدو منطقياً ان التعارض وعدم التوافق لا يفضي دائماً إلى انحلال رابطة الفرد الاجتماعية ، بل قد يكون التعارض عاملاً ودافعاً للفرد في إثبات وجوده في ضمن القبيلة بالتضحية والفداء .

3.العلاقات الأسرية :

ومن المثيرات الاجتماعية التي واجهها شعراء ما قبل الإسلام بالصبر هي العلاقات الأسرية التي يمكن تقسيمها حسب أهميتها على :

أ-**المرأة.**

ب-**الأقارب والأهل.**

أ.المرأة:

تمتعت المرأة بشكل عام بمنزلة كبيرة في العصر الجاهلي عامة ،ولدى الشعراء خاصة بوصفها من أهم عناصر الشرف ، فالدفاع عنها من المروءة التي تستحق الفخر[1]، وكانت تجلٌ أيّما إجلال [2]وكان لها حق اختيار شريك حياتها [3] وحق الإبانة [4]والإجارة [5]، وكانت عيناً لقومها [6] ، مشاركة لهم في الحروب[7].

لقد شغلت المرأة منذ بداية الخليقة على الرجل حياته ، ونالت حيزاً كبيراً من تفكيره ، قال سبحانه وتعالى " ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا أليها وجعل بينكم مودّة ورحمة"[8].

ولابد لنا ونحن نتحدث عن المرأة من ان نحدد الهدف الذي نريده من حديثنا ، لان المفهوم المطلق للمرأة مفهوم عام وشامل ، فالمرأة هي ألام والبنت والأخت والزوجة والحبيبة والشاعرة والمحاربة والسبية ، فقد صور الشعر الجاهلي عواطف

---

[1] ينظر : محاضرات في تاريخ العرب 136/1-137.

[2] ينظر : الفروسية في العصر الجاهلي /59.

[3] ينظر : العقد الفريد 87/6.

[4] ينظر : المحبر /398.

[5] ينظر : م.ن / 433-434.

[6] ينظر : السيرة النبوية 206/3.

[7] ينظر : الكامل 206/1.

[8] سورة الروم/21.

المرأة ونفسيتها ، وتطرق الى الحديث عنها في كل مجال من مجالاته ، فكان النتاج ثروة زاخرة لكل دارس يريد البحث فيه [1] على ان المرأة الحبيبة احتلت الجانب المهم من عاطفة الشاعر واحتلت من الشعر اكثر مما احتلته الأم والزوجة ، فالشاعر قد " وجد في محبوبته المثل الأعلى فكأنما برضاها يرضى الناس جميعاً " [2] فهي قد احتلت موضوع القلب من جسده واهتمامه وشعره.[3]،ونستطيع القول ان المرأة هي الخالقة للقصيدة قبل ان يقولها الشاعر فيها [4]. فيعبر عن حبه وشوقه لها واستسلامه لصدودها وصبره على جفائها وتجلده على رحيلها . وان المتتبع لنتاج الشعر الجاهلي يجد فيه الغزل الذي اتصف بالحرارة الملتهبة ودوران معانيه حول صدق الحبيب في حبه ورغبته الشديدة في محبوبته ، فهو يتحمل جميع العناء في سبيل الحبَّ ، لذلك اقترنت فضيلة الصبر بهذه العاطفة المتأججة ، الصابرة على ألم الفراق وطول الصدود ، فقد كان الصبر خير وسيلة للنجاة من سقم الحبّ . وهو يتطلب قوة احتمال و إرادة لا يملكها كل الناس ، فكان الصبر اقرب الى نفس الشاعر من الجزع ، وكما جاء في لامية خفاف بن ندبة التي تحدث فيها عن صدود الحبيبة وبخلها في النوال والوصل ، فعبر عن صبره على ذلك بقوله :

ان تُعْرضي وتضنِّي بالنوال لنا فواصلنَّ إذا واصَلْتِ أمثالي
اني صبورٌ على ما ناب مُعترفٌ أصرّف الامر من حالٍ الى حالِ[5]

فالغزل التقليدي " الذي كان يقوله أصحابه بحكم الاستجابة الفنية لتقاليد القصيدة العربية اكثر مما يقولونه بحكم الاستجابة النفسية التي كانوا يحسونها او التناغم العاطفي الذي كانوا يجدونه" [6] كان يحتل موضعه في مقدمات القصائد فهو

---

[1] ينظر : الفروسية في الشعر الجاهلي /51.
[2] م.ن/52.
[3] ينظر : الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام /206.
[4] ينظر : رمز المرأة في أدب أيام العرب /80.
[5] شعره /91.
[6] تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام /279.

موضوع استهلالي ومدخل للقصيدة بما ينطوي عليه من العواطف والتجارب والمعاناة ، والتي يتم التعبير عنها بلغة شعرية شفافة[1] ومن ذلك مقدمه غزلية لإحدى قصائد اوس بن حجر يظهر فيها لمن يحب قوته وقدرته على الصبر الذي يتمسك به اذ ما نأى عنه من يحب وان اخذ منه الشوق كل مأخذ ، الا ان عزة نفسه تقوي عزيمته على الصبر وتحمل أذى الفراق ، فيقول :

بكـــرت اميمـــةُ غـــدوةً بـــرهينِ خانتـــكَ ان القـــينَ غيـــرُ أمـــين
لا تَحْزُنُينـــــي بـــــالفراقِ فـــــإنّني لا تســـتهلُّ مـــن الفـــراقِ شـــؤوني[2]

وهنالك من الشعراء من تجلد وصبر نفسه عن الفراق بركوب الناقة ، والرحلة على ظهرها مسلاة له على هجر الحبيب ، كما هو الحال في قول لبيد بن ربيعة :

وكنـــتُ إذا الهمـــومُ تحضّـــرتَنْي وَضَـــنّتْ خُلّـــةٌ بعـــد الوصـــالِ
صَـــرَمْتُ حِبالهـــا وَصَـــدَدْتُ عنهـــا بناصـــيةٍ تَحِـــلُّ عـــن الكـــلالِ[3]

فالشاعر لم يجد غير الحديث والتخاطب والحوار وسيلة يبث فيها آلامه ويعبر بها عن همومه ، حتى لا يدع لليأس في نفسه مكاناً فلم يجد الرفيق او الصاحب في رحلته غير ناقته التي حملت عنه جزءاً من هذه المعاناة. فكانت خير معين له في حياته الواقعية حين يصحو من الذكريات فيركب ناقة جسرة ويعاود رحلته في هذه البادية المقفرة الموحشة التي ليس فيها ما يؤنس وحدته ويطرد عنه الوحشة ، فيأخذ في وصفها والثناء عليها ، ذاكراً صفاتها من الصبر والجرأة والأقدام معجباً بها ، ومتخذاً منها مثالاً وقدوة للصبر ، فيقول امرؤ القيس في ذلك:

---

[1] ينظر : الغرض الشعري /27.

[2] ديوانه /129 . الشؤون : الدموع يريد انه لا يبكي لفراقها فقد اعتاد الفراق ممن كان يواصله .

[3] شرح ديوانه /75.

فـدع ذا وسـلِّ الهـمَّ عنـك بجسـرةٍ ذمـولٍ إذا صـام النهـار وهجـرا[1]

وكذلك عزى الأعشى نفسه بقوله :

فـدعها وسـلِّ الهـمَّ عنـكَ بجسـرةٍ تزيّـدُ فـي فَضْـلِ الزِّمـامِ وتَغْتَلـي[2]

ثم ان منهم من وقف على أطلال الحبيبة واسترجع أيامها الهانئة ، فليست هنالك من ذكريات أجمل وأعزّ على نفسه من ذكريات الحبيبة التي بات الوقوف على أطلالها متنفساً عما يحبس في نفسه من مشاعر الشوق والحنين الملتهبة [3]، وذلك ما فسره بعض الباحثين بأنه التعبير عن الانفعال في الحاضر والاتحاد بالماضي البعيدة [4]، وفسره آخرون بأنه نتاج عوامل مختلفة تذوب كل واحدة في الأخرى وتصهرها وتترابط في عدم الاستقرار ، وإشباع الرغبة والطبيعة القاسية[5].

فكثيراً ما حملت هذه الذكريات الشاعر على البكاء إذ انّ لحظات الفراق للأرض التي عاش فيها ذكريات حبّه وحياته تنثال عليه فلا يملك زمام عواطفه فتنقلب الدموع معبرة عن حرارة العاطفة وعمق المعاناة ، وليس أمامه في كل هذا إلا التجمل وتصبير النفس ، وقد عبر عن هذا قيس بن الحدادية ، بقوله :

بكـى مـن فـراق الحـيِّ قـيس بـن مُنْقـذٍ واذ راءُ عينـي مثلـه الـدّمعُ شـائعُ
بأربعـةٍ تنهـلُ لمـا تقـدمتْ ببينونـةِ السـفلى وهبَّـتْ سـوافِعُ
وأنِّـي لأنهـي الـنفسَ عنهـا تجمُّـلاً وقلبـي أليهـا الـدّهرَ عطشـانُ جـائِعُ[6]

---

[1] ديوانه/63.

[2] ديوانه /405 (الزمام الحبل وفضل الزمام طرفه ، تغتلي تسرع في سيرها)

[3] ينظر : تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام /170.

[4] ينظر : الغربة في الشعر الجاهلي /244.

[5] ينظر : مقالات في الشعر الجاهلي /140-147.

[6] شعره/39.

ومن الشعراء من لا يجزع ولا يحزن للمصاب بل يرى في الجزع سفاهاً أي سفاه ، وان الحياة رهن به وليست تقفر المنازل بفراق الحبيبة ، ولكنها تقفر بعد رحيل الشاعر عنها !! وهذا ما يراه عمرو بن قميئة الذي يقول :

غشـــيتُ منـــازلاً مـــن آل هنـــد قفـــاراً بُـــدلّت بعـــدي عُفيّـــا
تبـــينُ رمادهـــا ومخـــطَّ نـــؤيٍ وأشـــعث مـــاثلاً فيهـــا ثويّـــا
فكـــادت مـــن معارفهـــا دمـــوعي تهـــمُّ الشـــأن ثـــم ذكـــرتُ حيّـــا
وكـــان الجهـــلُ لـــو أبكـــاك رســـمٌ ولســـتُ أحـــبُّ ان أُدعـــى ســـفيّا[1]

ونحن نجد ان المعاني التي مثلت الصبر ، قد جاءت متسمة ببساطتها وصدقها وبعدها عن الافتعال ، متخذة الوصف مادة لها ، معبرة عن الحدة النفسية التي جاءت رداً على معطيات الواقع محددة المسار الملائم لاستيعاب تلك العاطفة.

---

[1] ديوانه/62.

ب.الأقارب والأهل :

ومن العلاقات الأسرية ما كان ذا شأن في حياة الشاعر كالعلاقة مع الأقارب التي كثيراً ما كانت تثير المشكلات للشاعر فيكون صابراً عليها متجلداً في حلمه على أقاربه ، متواضعاً في علاقاته معهم ، متحملاً إذا هم ، ونحن حين نتحدث عن صبر الشاعر على أقاربه تطالعنا نصوص تتناول ظلم الأقارب للشاعر وانتهاك حقوقه ، وقد صور اوس بن حجر حلمه على ابن عمّه – الذي كان ظالماً– فهو لا يشتمه ، بل يصفح عنه حتى وان استشاره هذا المعتدي وجده قريباً محباً له عطوفاً موالياً له :

إلا أعتبُ ابن العمِّ ان كان ظالماً وأغفر عنه الجهل ان كان أجْهَلا
وانْ قال لي ماذا ترى يتشيرني يجدني ابن عمَّ مخلطَ الأمرِ مزيلا[1]

فظلم أبناء العمَّ منفذ لتعريض الذات الى معاناة الهدم من الداخل ، ولهذا كانت الاستجابة ضرباً من محاولة بناء الذات من الخارج [2]وصور ذو الإصبع العدواني تحمله على ابن عمّه تصويراً رائعاً مثل فيه تناقض خلقيهما وصبره على حقد ابن عمّه وعدوانه بقوله :

ولي آبنُ عمَّ على ما كان من خُلُقٍ مُخْتلفانِ فأقليه ويُقْليني
- - - - ـــــ ـــــ ـــــ ـــــ
فانْ تُردْ عرضَ الدّنيا بِمَنْقصتي فانّ ذلكَ مما ليس يشُجيني
ولا ترى فيّ غير الصبّر مَنقصةً وما سواهُ فإنَّ الله يكفيني[3]

---

[1] ديوانه /82. (مخلط الأمر مزيلا): أي أخالط بأمري في موضع المخالطة وأزيل موضع المزايلة أي أخلط وأميز ما ينبغي "

[2] ينظر : دراسات نقدية في الأدب العربي /391.

[3] ديوانه / 89–90 ، (اقليه) : أبغضه . عرض الدنيا : ما كان من مال قل او كثر .

فالشاعر من خلال تسامحه مع أولاد عمّه يريد ان يفخر بنفسه وبحلمه من خلال جعل الصبر سمة بارزة من سمات وجوده ، فطرفة بن العبد يواجه ظلم أقاربه له في إنكار حقه من الميراث:

فما لي أراني وابن عمي مالكاً ... متى أدنْ منه ينأُ عني ويبعد
يلومُ وما ادري علامَ يلومني ... كما لامني في الحيِّ قرطُ بن معبد
على غير ذنب قلته غير أنني ... نشدتُ فلم أغفل حمولةَ معبد
وقربت بالقربى وجدِّك أنني ... متى يكُ أمر للنكيئة أشهد
- - - - ... ـــــ ـــــ ـــــ ـــــ
وان يقذفوا بالقذع عرضك أسقهمْ ... بكأس حياضِ الموتِ قبل التهدّدِ[1]

و إعلان الشاعر صبره على ابن عمه هو إعلان إصراره على الالتزام بهويته الاجتماعية في آن معاً ، فطرفة بن العبد قد أعلن تمسكه بهويته الاجتماعية فقد وجد من خلال سلب ابن عمّه حقه من الميراث وطرده معادلاً لسلبه هويته الاجتماعية ، ولكن الشاعر لم يقابل هذا الامتهان إلا بالصبر إذ يقول:

ويغمرهُ حلمي ولو شئتُ ناله ... عواقِبُ تبري اللحْمَ من كَلَمِ مضّ
- - - - ... ـــــ ـــــ ـــــ ـــــ
وأنّي لذو حِلْمٍ على أنّ سَوْرتي ... إذا هزّني قومَ حَمَيْتُ بِها عِرْضي[2]

وقد صور لنا عنترة بطولته تصويراً رائعاً وجميلاً في شعره فرسم لنا صورة الفارس الكامل بكل ما في الفارس من صفات وربط هذه الصورة بشخصه ففي الوقت الذي كان أبوه يضربه لأن امرأة أبيه حرضته عليه كان عنترة يحتمل الضرب بصبر وقوة مذكراً أهله ببطولته التي لا تليق بعبد ، قائلاً :

---

[1] ديوانه /39.

[2] م.ن/169 . (اللحمة : القرابة) ، (كلم:الجراحة) ، (سورة : الغضب).

المـــالُ مـــالكمُ والعبـــدُ عبـــدكم فهـلْ عـذابُك عنـي اليـومَ مصـروفُ
تنســى بلائــي إذا مــا غــارةٌ لقحــتْ تخــرجُ منهــا آلطّــوالاتُ السّــراعيفُ
يخــرجْنَ منهــا وقــد بُلَّــت رحائلُهــا بالمــاءِ يركُضُــها المــرْدُ آلغطــاريفُ
قد أطعُن الطعنة الّنجلاء عن عُرُض تصــفرُّ كــفُّ أخيهــا وهــو مَنْــزوفُ
لاشــكَّ للمــرء أنّ الــدّهرَ ذو خلــفٍ فيــه تفــرق ذو إلــفٍ ومــألوفُ[1]

ويتضح مما تأملنا من نصوص ان العلاقات الأسرية كانت مثيراً اجتماعياً كغيرها من المثيرات المؤثرة في الشاعر ، التي عبر من خلالها عن مدى صبره وتجلده في التعامل مع محيطه الاجتماعي ، فاكثر هذه العلاقات التي خاضها الشاعر والتي أعلن الصبر فيها كانت تخص المرأة حبيبة اكثر من غيرها وهذا دليل على ان المرأة كانت تشتغل تفكيره اكثر من غيرها ، بل اكثر من أهله الذين كان يختلف معهم لأسباب شتى فلا يكون منه الا ان يصبر حفاظاً على هويته الاجتماعية ، معبراً عن النموذج الفني لعملية الخلق الشعري مستمداً مقوماتها من التجربة الآنية . حيث أدت تلك التجارب دوراً بارزاً في ردود الفعل الإنساني للشاعر التي حددت عمق التأثير ، وما كانت هذه التجارب لا نتيجة طبيعة لنوع البيئة التي يعيش فيها فضلاً عن التراث الفكري الذي يمتلكه..

---

[1] ديوانه /270-271. لقحت : اشتدت وعظمت ، الطوالات : جمع طوالة من الخيل السراعيف جمع سرعوفه وهي الجرادة ، الغطاريف : الاسخياء.

ثالثاً.المثير البيئي:

ومن المثيرات الأخرى التي واجهها الشاعر بصبر وقوة وإرادة وعزم هي المثير البيئي–الطبيعي–وللبيئة الطبيعية مظاهر متعددة تشمل الموقع المكاني والمناخ ، والتربة والنبات والمياه والحيوان ، فالحدود التي تحدّ المكان مجال للاختيار الإنساني لإيجاد نمط الحياة المختلفة من مكان إلى الأخر ومن عصر إلى أخر .وقد وضعت البيئة أمام الشاعر تحديات استثارت عزيمته على مواجهتها وصبره عليها ، واهم تلك التحديات :

1–**شظف العيش.**

2–**الجبال والمراقب والربام.**

3– **قسوة الصحراء.**

1. شظف العيش:

ان البيئة المقفرة لا تفسح مكاناً واضحاً للغنى [1]، وقد فرضت طبيعة الجزيرة على العرب حالة من التنقل ، وعدم الاستقرار ، وكان التناقض البيئي في مناطق شبه الجزيرة العربية ذا اثر كبير في أيجاد التناقض في المستويات الاقتصادية . لقد خلفت معاناة الحياة في بيئة الصحراء القاسية ، عند الإنسان العربي قوة الطبع وصلابة الجسم بما يؤهله لتحمل نتائج البيئة المقفرة من الجوع والعوز والحاجة لاسيما في شعر الصعاليك . فها هو الشنفرى يصف في لاميته المشهورة تحمله لأشد الجوع اذ يطوي عليه أمعاءه كما يطوي الفاتل خيوطه ليحكم الفتل :

وأطوي على الخُمْصِ الحَوايَا كما أنطوتْ خيوطةُ ماريٍّ تُغَارُ وتفْتَلُ[2]

وللفقر والحاجة وطأة ثقيلة مرعبة يمتد آثرها فيشمل حياة الإنسان كلها فالشنفرى يطاول الجوع صبراً ، ويقتل سورته حتى لو اضطره الأمر الى ان يستف التراب كل ذلك من أجل الحفاظ على كرامته :

أديْمُ مطالَ الجوعِ حتى أُميتَهُ وأضربُ عنه الذّكرَ صَفحْاً فأذَهلُ
وأستفُّ تـرْبَ الارض كي لا يرى لـه عليّ من الطَّولِ امرؤُ متطوِّلُ
ولولا اجتنباب الذأم لم يُلْفَ مشرب يُعاشُ بـه الاّ لديَّ ومأكَلُ
ولكن نفساً مُرّة لا تقتيُم بي على الذّأمِ الا ريثما أتحولُ[3]

---

[1] ينظر : شعر الهذليين في العصر الجاهلي والإسلامي /103.

[2] شعره/74،(الخمصُ) : خلاء البطن من الطعام جوعاً ، (الماري) : الحائك،(تغار) : تفتل خيوطه (الحوايا) : الأمعاء.

[3] شعره /73. (الذأم : الاحتقار) ، ولكن نفساً أبية مرّة بالمقام على ماأُذَمُّ عليه ولا نقيم عليه ريثما تتحول عنه.

وابو خراش الهذلي يرسم لنا صورة رائعة لصبره في مواجهة الجوع بإرادة قوية ، فهو يطيل مصارعته حتى يملَّ الجوع ويعجز عن مواجهته لما رآه عنده من صبر ، اذ انه يكتفي بالماء القراح فتهدأ نفسه عن طلب الطعام ؛ قائلاً في ذلك :

وانـــيّ لاثـــوْي الجـــوعَ حتـــى يمَلَّنـــي فيـــذهبَ لـــم يَـــدْنسَ ثيـــابي ولا جِرْمـــي

وأغتَبـــق المـــاءَ القـــراحَ فـــانتهي إذا الـــزادُ أمســـى للمـــزلَّج ذا طعْـــمِ[1]

وهو لا يخشى الفقر ويدعوا أهله الى الصبر و الإمساك عن الطعام ان لم يجدوا ما يأكلونه ، ويعبر عن ذلك بقوله :

فـــان غـــداً لا نجـــد بعـــضَ زادنـــا نُفِـــيءْ لـــكِ زاداً أو نُعـــدِّكِ بـــالازمِ[2]

ان وقوف الشاعر أمام مصاعب الحياة صابراً ومتحدياً الفقر من خلال إشاعة الكرم ، دفعه الى ان ينفق ما بين يديه من مال وطعام إرضاءً لطالبيه منه دونما تأخير . فأبو كبير الهذلي يتحمل مسؤولية أصحابه إذا ما حلَّ بهم الجوع او الحاجة في سنة شحيحة النبت والخير ، فيفتح لهم بيته ويمنحهم الطعام :

يحمـــي الصِّـــحابَ إذا تكـــون عظيمـــةٌ وإذا هـــم نَزلَـــوُا فمـــأوى العُيَّـــلِ[3]

لا يتوانى الصعلوك عروة عن تقديم عونه الى الناس في اصعب الظروف البيئية متحدياً الزمان وعادياته والمكان وقسوته ، صابراً عليها متجلداً ، مستعملاً صوراً للتعبير عن الكرم في سني الجفاف والجدب بأنفاق ما بحوزته من الطعام ، وهو القائل :

هـــلا ســـألت بنـــي عـــيلان كلّهُـــم عِنْـــدَ الســـنين إذا مـــا هبّـــتِ الـــرِّيحُ

---

[1] شرح أشعار الهذليين 3/ 1199(الغبوق الشرب بالعشيّ) ، الجرم : الجسد .

[2] م.ن3/1198.

[3] م.ن 3/1075 . العيلّ : جمع عائل .

قد حان قدحُ عيالِ الحيِّ اذ شبغوا وآخرُ لذوي الجيرانِ ممنوح[1]

فهذه الطبيعة التي امتازت بقلة مواردها ، وشظف العيش فيها طبعت الناس على قسوة الحياة وبساطة العيش ، وقد أكد القرآن الكريم فقر شبه الجزيرة العربية على لسان إبراهيم عليه السلام " ربنا أني أسكنت ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المُحرّم، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون "[2] . لقد فرضت قسوة الصحراء على الإنسان ان يتهيأ لتحمل المشاق وفي نص في الفخر للأعشى تطالعنا صورة قسوة حياة الصحراء في تصويره مواضع خصوم قبيلته الذين نازعوهم على مواطن فأجلوهم عنها بقوة سواعدهم وشدة صبرهم على القتال ؛ إذ يقول:

وإذا آلعشيرةُ أعرضتْ سُلاّفُها جَنفينِ منْ ثغْرٍ بَغْير سِدَادِ
فَلَقدْ نَحُلُّ بهِ ونَرَعى رِعْيَهُ وَلَقَدْ نَليهِ بِقُوّةٍ وعتادِ[3]

ونلاحظ فخر الشاعر بنفسه وقبيلته في أقامتهم بوادي – الرداع– المجدب حين فشل خصومهم في الإقامة فيه أعوزتهم الجرأة والصبّر والثبات للإقامة ، فقال مفتخراً :

فإنّا قَدْ أقمنْا اذْ فَشِلتُمْ وإنّا بالرِّداع لِمَنْ أتانا[4]

---

[1] ديوانه /44. القدح : سهم الميسر .

[2] سورة إبراهيم : الآية /37.

[3] ديوانه /183. (سلاف العسكر: مقدمتهم) (الثغر :الموضع الذي يخاف هجوم العدو منه) (جنفين :مائلين) (وسداد الثغر سده في وجهه العدو والثبات فيه).

[4] ديوانه /325. (أقمنا : ثبتنا) ، (الرداع واد)

ويفتخر الشاعر ذو الخرق الطهويُّ بعشيرته لصبرها في الجدب من خلال حواره مع زوجته ، طالباً منها الصّبر وعدم التبرم حينما حلَّ الجدب وعزّ العيش ويبدو ان استطراد الشاعر في محاورته استوعب عظم معاناته التي رهنت بظرف أني متخذاً إياها نقطة للانطلاق للخوض في جميع أبعاد تجربته ، اذ يقول:

فيئـــي أليـــكِ فإنـــا معشـــرٌ صُـــبُرٌ فـــي الجـدبِ لاخفّـةٌ فينـا ولا نـزقُ[1]

ولقد كثر الحديث عن الصبر على الجوع والفقر في أشعار الصعاليك ، ففي أخبار عروة بن الورد ان ناساً من بني عبس اجدبوا في سنة أصابتهم ، فأهلكت أموالهم ، وأصابهم جوع شديد وبؤس ، فأتوا عروة يستنجدون به ، فخرج ليغزو بهم ويصيب معاشاً[2]، فالشاعر تحدى الجوع من خلال أقدامه على الغزو ، فالموت عنده خير من حياة الجوع والهزال:

أقيمـوا بنّـي لبنـى صـدور ركـابكم فـان منايـا القـوم خيـرٌ مـن الهـزلِ[3]

وان قسوة الصحراء هي التي دفعتهم الى الإغارة على جيرانهم للحفاظ على أنفسهم من الهلاك . على ان الجدب لا يصيب الإنسان وحده فيصبر عليه ويتجلد ، وانما يصيب الحيوانات المرافقة له ايضاً .

ومن خلال ما تأملناه من نصوص جاهلية ، ولأرتباط الشاعر بالحياة الطبيعية والتي استمد منها قوته وصلابته . وجدنا ان صبر الشاعر الجاهلي على الجدب والفقر اكثر بقليل من جزعه من جدب الأرض ، فقد كان الشاعر صابراً او يدّعي الصبر حفاظاً على كرامته وفخراً بنفسه وبقدرة تحمله.....

---

[1] الاصمعيات /124.(خفف الشيء : يجف) ، (نزق : الخفة والطيش).

[2] ينظر : الأغاني 3/81-82.

[3] ديوانه /114.

2.الجبال والمراقب والرياح :

لقد واجه الشعراء تحديات بعض مظاهر الطبيعة القاسية من جبال ومراقب ورياح معبرين عن صبرهم في مواجهتها او متخذين منها مادة للتعبير عن ذلك الصبر ، فضخامة الجبال وعظمتها في نفوسهم دفعهم الى ان يضربوا بها المثل في الصّبر على النوازل ، بقول الحارث بن حلزة:

فلـــو أن مـــا يـــأوي الـــي أصـــاب مـــن ثهـــلان فنـــدا
اوراس رهـــــــــــــوة أو روؤ س شـــمارخٍ لهـــددن هـــدا[1]

ووردت في أشعارهم صور تعارفوا عليها ووصفوها بالجبال مفاخرةً كالحلم والرزانة [2]، فنظرتهم الى الجبال لم تكن نظرة مجردة وانما حاولوا ان يمنحوها الإحساس والشعور بالإنسانية ، مستمدين منها صور العظمة والصّبر والثبات والقوة.

وتحدى الشاعر الجاهلي المراقب صابراً ومتحملاً المشاق والتعب في صعودها ، فهي من الارتفاع بحيث لا يستطيع حتى الرجل المتمرس والخفيف ارتقاءها ، قال الشنفرى مفتخراً بذاته :

ومرقبـــةٍ عنقـــاء يقصـــرُ دونهـــا أخو الضَروة الرّجلُ الحفيُّ المخفّفُ
تُعَبْـتُ الـــى أعلـــى ذرُاهـــا وقـــددنا مـــن الليـــل ملتـــفُّ الحديقـــةِ اســـدفُ
فبـــتُّ علـــى حـــدَّ الـــذراعين مجُـــذباً كمـــا يتطـــوّى الأرقـــم المتعطِّـــفُ
قليـــلُ وجهـــازي غيـــر نعلـــين اســـحقتْ صـــدورهما مخصـــورة لا تخُصّـــفُ
وضُـــنِّينةٍ جُـــردٍ، وأخـــلاق ريْطـــةٍ إذا أنهجـــتْ مـــن جانـــبٍ لا تكفّـــفُ
وابـــيض مـــن مـــاءِ الحديـــد مُهنّـــدٌ مُجِـــدٍّ لأطـــرافِ الســـواعِد مُقْطِـــفُ[1]

---

[1] معجم ما استعجم 347/1،(ثهلان) :جبل باليمن.

[2] ينظر : ديوان بشر بن أبي خازم /57، ديوان لبيد /136،137.

وقال تأبط شراً يفخر بنفسه ، لأنه سبق أصحابه ولم يكسل بفضل قوته وصبره على ارتقاء قمة الجبال التي تشبه سنان الرمح لدقتها وطولها :

وقُلّـــةٍ كَسِـــنَانِ الـــرُّمحِ ،بـــارزةٍ ضَحْيانةٍ ،في شهور الصيف مِحْرَاقِ
بـادرْتُ قُنتّهـا صَـحْبي ، ومـا كسـلُوا حتـــى نميْـتُ اليهـــا بعـد إشـــراقِ
لاشـيء فـي ريـدِها ، الاّ نعامتُهَـا ، منهـــا هـــزيمُ ، ومنهـــا قـــائِمٌ بَـــاقِ
بشـرثة خلـقٍ ، يـوقي البنـانُ بهـا ، شَـددْتُ فيهـا سَـريحاً بعْـدَ إطـراقِ[2]

وتشير طبيعة التناول الفني والمعالجة الموضوعية إلى كيفية توجيه التفاصيل للتعبير عن الانفعال النفسي الذي تولد من الشعور بالأمان والفخر في آن واحد ، لذلك نجد الشاعر يعتمد على واقع الحياة مظهراً صفات القوة والشجاعة والصبر معتمداً على قدرته الفنية في استثماره لعناصر تلك البيئة الفقيرة كالثياب البالية والنعل الخلق الذي لا يقي إلا البنان كما جاء في الأبيات السابقة ،فالشاعر تابع تلك المعاني في صعوده إلى قلة مدببة كسنان الرمح ، محدداً الزمن في ضحى يوم من أيام الصيف المحرقة ولم يكن لديه ما يتقي به هذا الحر سوى ثوب ونعل . دقق في وصف هيئتها معبراً عن شجاعته وصبره ومن معه من الصعاليك ، وقوة الإرادة التي حملتهم على الوصول إلى تلك القمة في ذلك الوقت معتمدين على القوة الذاتي وشدة البأس التي استطاعوا من خلالها الوصول إلى مبتغاهم ونجد الشاعر دائم التركيز

---

[1] شعره /104 (عنقاء : طويلة) (نعبت : أي صعدتُ) (المجذي: الذي ليس بمطمئن) (الأرقم : الحية) ، (خصف النعل: خرزها) ، (الجرد: ما قُشِرَ عن الشيء) ،(نهجه: سلكه)

[2] ديوانه /138-140،قلة : قمة أعلى الجبل . (ضحيانة) : البارزة للشمس (محراق): يحرق ، (القنة) : الجبل المنفرد المستطيل في السماء ، (كسل):العجز(نميت): وصلت . (الريد) : حرف الجبل المشرف على الهواء . (النعمات) خشبات يشد بعضها الى بعض وتستظل بها الطلائع في التلال اذا اشتد الحر . هزيم : متكسر . (الشرثة): النعل ، (السريج) : شريط من الجلد .

على وقت صعوده ، فهو أما نهاراً كما في النص السابق أو ليلاً وهذا ما أكده في نص آخر مبتدئاً بليلة ظلماء تعسف فيها طريقاً متعوجاً لا يمكن السير فيه ، فيقول :

وَشِعْبٍ كشلِّ الثوب ، شكس طريقةُ ... مجامعُ صوحَيْهِ نطاقٌ مخاصرُ
تعسّفْتُه بالليل ، لم يهدني لهُ ... دليلٌ ، ولم يُحْسِنْ لي النعْت خابرُ
لدنْ مطلع الشِّعري ، قليلٍ أنيسُهُ ... كأن الطغا في جانبيهِ معاجِرُ
بهِ من نجاءِ الدّلو بيضٌ أقرّها ... جبارٌ ، لصُمِّ الصَّخر فيه قراقِرُ
ومُرِّرنَ حتى كنّ للماءِ مُنْتَهى ... وغادرهنَّ السّيْلُ فيمَا يُغادِرُ
به نطفٌ زرقٌ ، قليلٌ ترابُهُا ... جلا الماءُ عَنْ أرجائها فهو حائِرُ
بهِ سَمَلاتٌ من ماهٍ قديمةٍ ... مواردُها ما انْ لهُنّ مصادِرُ [1]

ويبدو أن تلك الظروف التي تمحور وصف الشاعر حولها كانت تجسد صيغة من صيغ التحدي البيئي ، طالما عانى الصعلوك من قسوته مؤكداً فخره بالانتصار عليه ، من خلال صبره للوصول إلى القمة ، التي مهما ارتفعت فلن يكون ارتفاعها عائقاً في وجهه.

ولقد لجأ بعض شعراء ما قبل الإسلام الى تصوير والمراقبة مجسدين معنى الهرب والمواجهة في انٍ واحد نتيجة لظروف معينة ألمت بحياتهم جعلتهم يتخذون هذا المكان أساساً يجددون فيه نشاطهم من أجل مواجهة الواقع كقول امرئ القيس:

---

[1] ديوانه /94-96(شعب) : طريق الجبل ، (شل) : خياطه . (شكس) : ضبق ، وعر : (المجاميع): ما اجتمع من الرمل . (الصوحان) : وجها الجبل القائمان ، (نطاق المخاصر) : أي قليلة صغيرة .(تعسف) :وهو السير على غير علم . (تبطنه) : أي دخل في بطنه ، (الصغا) : السحاب الرقيق ، (المعاجر) : جمع معجر ، تلفه المراة عى راسها وهو ايضاً عمامة الرجل . (النجاء) : السحاب الذي هراق ماءه. (بيض) : بقايا الماء . (قراقر) : صوت اصطدام الماء بالصخرة . (مستقرة جلا) : ذهب ، (حائر) : الرجوع .

ومرقبـــةٍ كـــالزجِّ أشـــرقْتُ فوقهـــأُ أقلِّـبُ طرْفـي فـي فضـاءٍ عـريضٍ
فظِلـتُ وظـلّ الجـونُ عِنْـدِي بِلَيْـدَه كـأنيَّ أُعـدَّي علـى جَنـاحٍ مهـيضٍ[1]

فذاك يعني انه يفوق الرجال مهارة وشجاعته وقدرة على التحمل والصبر الطويل ، وبدا ان صعوده هذه المراقب والقمم العالية كان مدعاة للفخر وللمديح وذلك ما ورد في قصيدة تأبط شراً يصف فيها مدى قدرة الشنفرى على ارتقاء هذه القمم العالية التي يعجز عنها غيره في صعودها ، فهو لا يبالي بجسامة الخطر وانما يداهمه صابراً عليه ، فيقول فيه :

ومرْقَبـــةٍ شـــمّاء أقْعيـــتَ فوْقهـــا ليغْـــنمَ غـــازٍ او ليْـــدرِكَ ثـــائِرُ
وأمـــر كســـدِّ المنخـــرْينِ اعَتليْتـــهُ فَنَفسّـــت عنـــه والمنايـــا حواضِـــرُ[2]

قد صور أبو كبير الهذلي أحجام الناس عن صعود هذه المراقب لارتفاعها الشاهق فلا يصل إليها سوى الطيور ، فضلاً عما يحيق بها من المخاطر ، قائلاً في ذلك :

ولقـــد رَبَـــأْتُ إذا الرجـــالُ توكلـــوا حـــمَّ الظَّهيـــرة فـــي اليفـــاع الاطـــولِ
فـــي رأس مُشـــرفةِ القـــذالِ كأنمّـــا أطـــرُ السّـــحابِ بهـــا بيـــاضُ المْجـــدَلِ
وعلـــوتُ مُرتبئـــاً علـــى مَرْهوبـــةٍ حصّـــاه لـــيس رقيبُهـــا فـــي مَثْمِـــلِ
عيطـــاءَ مُعْنقـــةٍ يكـــون أنيســـها وُرْق الحمَـــام جميمُهـــا لـــم يُؤْكـــلِ
وَضَـــعَ النّعامـــاتِ الرَّجـــالُ برْيـــدها مـــن بـــين شَعْشـــاعٍ ، بـــيُنِ مُظلّـــلِ[3]

---

[1] ديوانه /74 . (مرقبة كالزج) أي طويلة صعبة ، (الجون : الفرس الادهم) . وقوله (كأني اعدي) أي اتكىء عليه كما يتكىء ذو الجناح الكسير على جناحه .

[2] ديوانه /82-83.

[3] ديوانه الهذليين 2/96-97(اليفاع : ما ارتفع من الأرض)، (الجميم :ما نهض وانتشر من النبات)

ان شعر المرقبة عبر عن فخر ضمني مما استطاع ان يجسده الشاعر من فعل قائم صور قدرته في الوصول إلى أعلى مرقبة مهما كان ارتفاعها مبالغاً في وصف ارتفاعها ليعطي إحساساً بالأمان الذي طالما افتقده في حياته ولا سيما الشاعر الصعلوك .

ومن مفردات الطبيعية الأخرى – الريح–التي صورها الشعراء الجاهليون بكثرة في أشعارهم لتصوير شدة معاناتهم منها ، لما تتصف به من قسوة عند هبوبها وما ينتج عنها من الكوارث من جوع وخوف ورهبة ، ومن الشعراء من جعل صراعه مع الريح نوعاً من الفخر الذاتي بصبره و تجلده ولاسيما الشعراء الصعاليك فليس لديهم ما يفخرون به إلا صبرهم على المكاره وشدة تحملهم الصعاب ومقدرتهم على شظف العيش ، ولما كانت الريح من العوامل التي لا يستطيع قهرها الشريف او الوضيع ، فقد وجدوا مفخرة عظيمة بقهرها ، قال الشاعر تأبط شراً :

قليـــلُ التشـــكّي للمهـــمِّ يصـــيبُهُ كَثَيـرُ الهـوى شـتىّ النـوّى والمسـالكِ
يظـــلُّ بمومـــاةٍ ويُمْسِـــي بغيرهـــا جَحِيشـاً ويَعَـرْوَرْي ظُهُـورَ المهالِـكِ
وَيَسْـبِقُ وَفْدُ الـرِّيح مـن حيـث يُنَتْحَـي بِمُنْخـــرقٍ مِـــنْ شـــدِّةِ المتـــدارِكِ[1]

ولم يكن تحدي الطبيعة واحداً عند العرب ، بل كان متفاوت التأثير بين العربي الحضري المستقر وبين العربي البدوي المتنقل وراء العشب والماء [2]. ومن خلاله فقد عرف البعض منهم باللين والسهولة ، وعرف آخرون بالشدة والخشونة ،

---

[1] ديوانه /151–152 (المومـاة : المفـازة) ، جحيشـاً : الجحـيش المنفـرد) ، (يعـروي : أي يركب) ، (المنخرق : السريع) ، (الشدّ : الجري) ، (المتدارك : المتتابع).

[2] ينظر : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام 272/4.

وعرف غيرهم بالشجاعة والصبّر والميل الى الغزو [1]وقد جسد ذلك عمرو بن شأس بقوله :

نقــيمُ بــدارِ الحــزم لــيس مُزيلنــا مُقاســاتنا فيهــا الشصــائِصَ والازلأ
لنــا الســورةُ العليــا وأول شــدّةٍ إذا نحــن لاقينــا الفــوارس والــرّجلا
نفينــا سُــليماً عــن تهامــة بالقنــا وبـالجردِ يَمْعَلـنَ السّـخاخَ بنـا معْـلا[2]

---

[1] ينظر : م.ن 285/1.

[2] شعره/46-47.

(سليم) : قبيلة

يمعلن : يسرعن ويعجلن

السخاخَ : الأرض اللينة الحرة .

3.قسوة الصحراء :

والصحراء بيئة قاسية تفتقر إلى مقومات الحياة فالحيوان فيها نادر والنبات لا يتجاوز نوعاً من الصبار والأعشاب الخشنة والشوك والنباتات التي تتحمل الجفاف متناثرة في بطون الأودية وفي المنخفضات وحول الآبار ومجاري السيول ..

ولاشك ان الطبيعة هي الملهم الأول لكل شاعر،يستمد منها أوصافه ويتأثر بها ،ويختلف هذا التأثر من شاعر إلى آخر . والشاعر الجاهلي كغيره من الشعراء تأثر ببيئته الصحراوية ، فرسم ما رأى وصور ما شاهد ، ووصف ما أحس ، فجاء شعره كأنه لوحات منقولة بدقة وبراعة .

لقد تأثرت نفسية الشاعر العربي بقسوة الصحراء وتحديها ، وهو تحد من نوع تتعاقب فيه الأضداد بشكل حاد متطرف ، ومن حصيلة التضاد الطبيعي ذلك امتداد عميق في الحس النفسي ، يماثل الامتداد بين المطر والخصب والاستقرار من جهة وبين الجفاف والجدب والارتحال من جهة أخرى . يتخلله توتر نفسي حيال العالم مثيراً في النفس رغبات حادة عميقة تفضي الى حالة من تجاوز المثل لذاتها دائماً ، في ضمن موقف الترقب الدائم والمجهول .

لقد تضافرت ظروف الصحراء الطبيعية والمعيشية على تكوين بنية البدو تكويناً قوياً وسليماً من أدواء البدن والحواس[1] .فالصحراء بفنائها الرحب الفسيح وشمسها الساطعة ، وهوائها النقي المتجدد وأخطارها المتربصة ، وقد صهرت البدو وكونتهم تكويناً يؤهلهم للصبّر والتجلد لتحمل المشاق التي فرضتها عليهم طبيعة أرضهم ومعاشهم .

وقد عبر الشعراء عن صبرهم ولاسيما الصعاليك ، فالصعلوك لا يخشى الصحراء التي يخشاها اكثر الناس فهو يقطعها واثقاً من نفسه صابراً متجلداً ، قال عروة بن الورد في ذلك:

وغبـــراء مَخشِـــيّ رداهـــا مَخُوفـــةٍ أخوهـــا ، بأســـباب المنايـــا مُغَّـــررُ

---

[1] ينظر : الفتوة عند العرب /29،27،23،22.

قطعتُ بها شكّ الخلاجِ ، ولم أُقلْ لخيّابةٍ ،هبَابةٍ: كيفَ تأمرُ؟[1]

وامتد اثر البيئة ليشمل سلوك الشعراء وموقفهم من الحياة ، بما فيه من زخم يحمل تحدياً طبيعاً ، فالشنفرى لا يخشى شيئاً ، ولا يعرف التراجع إذا اقدم ولا يخاف ظلاماً ، بل يركب المخاطر مقتحماً كل التحديات الطبيعة ، بقوة الإرادة، جاعلاً من الصّبر سلاحاً لمواجهة الأخطار ، اذ يقول :

اذ همَّ لم يَحْذرْ من الليل غُمَّةً تهابُ ولم تصعُبْ عليه المراكبُ
قرى الهَّم اذْ ضافَ الزَّماعَ فاصبحتْ منازلهُ تَعْتَسُّ فيها الثعالبُ[2]

فالصعاليك اعتمدوا الصياغة الشعرية في التعبير عّما اختزن في خيالهم من معانٍ وأفكار ، وسعوا " إلى أداء ما انطبع في نفوسهم وقلوبهم من احساسات ومشاعر إزاء الكون والطبيعة والحياة الإنسانية "[3]وإذا كانت الطبيعة رافداً المواد الشعرية في الكشف عن المقومات الفخرية ، المرتبطة بقيم الشجاعة والبطولة والصبر والثبات عند منازلة الأعداء ، فان جانباً من مواقفهم البطولية متعلق بقهر الطبيعة وعدم الخوف عند ولوج فجاجها الواسعة والمليئة بالمخاطر ، معبر ين عن شجاعتهم المتميزة ومخاطرتهم في ركوب الأهوال ، وان النفس البشرية لها قدرة محددة على تحمل المعاناة والمصاعب التي تواجه الإنسان في حياته ، فإذا زادت المعاناة عن قدرة التحمل ، فلابد من أيجاد وسيلة تخفف هذا الألم ليصبح مساوياً لقدرة التحمل ، وهذا واضح في رحلة الشاعر في الصحراء ...وقد وصف الأعشى صبره على الرحلة فيها ، قائلاً :

---

[1] ديوانه /77. تخالج في صدري منه شيء أي شككت.

[2] شعره /111-112، (في غمة من امره : في حيرة) ، (قرى :أكرم) ،(ضاف: نزل ضيفاً) (الزماع : الأقدام) (تعتس: تطوف ليلاً)

[3] في النقد الأدبي /45.

ولقـــد أجـــذمُ حبلـــي عامـــداً بعَفَـــرْ نـــاةٍ إذا آلالُ مَصَـــحْ
تقطـــعُ الخـــرقَ إذا مـــا هجـــرتْ بِهبـــــابٍ وارانٍ وَمَـــــرَحْ
وتـــولّى الارضَ خُفّـــاً مُجْمـــرَاً فـــإذا مـــا صـــادف المـــرو رضـــحْ
فتـــــراهُ فلقـــــاً فراســـــناً ذا رنـــين صَـــحِلَ الصّـــوْتِ أبَـــحْ[1]

ولقد أدى الاتجاه الوصفي الذي اتخذه الأعشى عماداً للمعالجة الموضوعية في التجربة الانية دوراً بارزاً في إظهار المعاني المنبثقة من شخصية مستوعبة عظيم المعاناة والمشاعر الثائرة المتمخضة عن تجاربه اليومية فقال في تجلده على الرحلة في يوم شديد الحرّ :

ويَـــومٍ مـــن الشَّـــعْرى كـــأنّ ظبـــاءَهُ كواعِـــبُ مَقْصُـــور عليهـــا سُـــتُورَها
عَصَـــبْتُ لـــه رأسِـــي وكلّفْـــتُ قطْعُـــهُ هُنالـــكَ حُرْجُوجـــاً بطيئـــاً فثُورهـــا
تـــدّلتْ عليـــه الشـــمْسُ حتـــى كأنهـــا مـــن الحَّـــر تَرْمـــى بالسّـــكينةِ قُورُهَـــا
ومـــاءٍ صـــرٍ لـــمْ ألـــقَ الا القَطَـــا بـــهِ وَمْشُـــهورةَ الاطـــراقِ ورقـــاً نُحُورَهـــا
كـــأن عَصِـــيَر الضّـــج فـــي ســـديانهِ دفوَنـــاً وأسْـــدماً طـــويلاً دثورهـــا
وليـــلٍ يقـــولُ القـــومُ مِـــنْ ظلماتـــهِ ســـواءُ بصـــيراتُ آلعيـــون وعُوُرَهـــا
كـــأنّ لنـــا مِنـــهُ بيوتـــاً حصـــينةً مُسُـــوحٌ أعالِيهـــا وســـاجٌ كُسُـــوُرَها
تجاوْزتُـــه حتـــى مضـــى مدلهمّـــه وَلاَحَ من الشّمسِ المُضيئةِ نُوُرَها[2]

وان من نعمة الله سبحانه وتعالى عليهم في تلك البيئة ان وهبهم الإبل التي كانت اكبر عون لهم على احتمال هذهِ الحياة الشاقة ، فعليها كانوا يجوبون الصحراء

---

[1] ديوانه /291.(جذم الحبل) :قطعه (عفرناة : شديد قوية) (آلال السراب) ، (مصح ذهب) (الخرق الصحراء) ، هجرت سارت في الهاجرة وهو منتصف النهار) (الهباب الأسرع) ، (ارن البعير :نشط) ،(المرح : النشاط) ،(مجمر: صلب) (المرو: حجارة صلبة بيضاء) ، (رضح الحصى : كسره).

[2] ديوانه /423، (القور) : جمع قارة وهي الصخرة السوداء ، (القطا) : الطائر (الضيح) : اللبن(المنسوح) : الثوب الخشن والمنسوج من الشعر ، (الساج) : الطيلسان الأسود او الأخضر .

، وهي اكثر الحيوانات قدرة على تحمل مشاق الصحراء واكثر صبراً على الجوع والعطش يقول جوستاف لوبون " فأما –الجمل– وهو أفضل حيوان أهلي عند العرب – فلا تقطع البادية بغيره ، وهو لقناعته ، وقوته واحتماله المشاق ، وصبره على العطش أياماً لا يقوم مقامه حيوان في الركوب ، وحمل الأثقال [1] ، وليس في الصحراء ما يدل على الحياة إلا الإبل الصابرة على الحِّر اللافح والمثابرة ، وقال الأعشى في ذلك :

ووديقـــــــة شـــــــهباء رُدِّ يَ أكمْهُـــــــا بســـــــرابهَا
ركـــــدتْ عليهـــــا يَوْمَهـــــا شَـــــمْسُ بحـــــرٌ شـــــهابها
حتـــــى إذا مـــــا أوقـــــدتْ فـــــالجمرُ مثـــــلُ تُرابِهَـــــا
كَلّفْـــــتُ عانِسَـــــةً أمُـــــو نـــــاً فـــــي نشـــــاطِ هبابهَـــــا[2]

وكان لابد للإنسان العربي ، كما يقول محمد النويهي ، ان يستجيب لتحدي البيئة الصحراوية بالاعتماد كلياً على النفس ، وعلى القوة والشجاعة والجلد إلى اقصى الحدود ، أي بتوكيد الذات في مواجهة الطبيعة القاسية [3]. وقد تميز العربي والبدوي لا سيما المزايا ، اذ يذكر ابن خلدون ان تفرد البدو عن المجتمع وتوحشهم في الضواحي ، وبعدهم وانتباذهم عن المدن المسورّة الحصينة ، جعلهم لا يكلون في الدفاع عن أنفسهم إلى سواهم فهم لا يثقون بغيرهم ، ويحملون السلاح دائماً ، ويتوجسون لكل أمر طارئٌ ومفاجئ، قد صار لهم البأس خلقاً والشجاعة سجية

---

[1] حضارة العرب /44.

[2] ديوانه /305 (الوديقة شدة الحر في الهاجرة) (شهباء مجدبة لا نبات فيها) (أكم أي التل) (عانسة ناقة صلبة)

[3] ينظر : الشعر الجاهلي (منهج في دراسته وتقويمه) ، 426/1.

يتسلحون بها ، متى دعاهم داعٍ او استنفرهم صارخ، وفي تفردهم في القفر والبيداء[1] يقول امرؤ القيس :

ألــم أُنُــضِ المطــيّ بكــلّ خــرقٍ أمــقّ الطُــوّلِ لمّــاعِ السّــرابِ[2]

لقد كانت حياة العربي ، في عصر ما قبل الإسلام " صراعاً دائماً بينه وبين البيئة الطبيعية القاسية لأن كل ما فيها يوحي وينطق بان البقاء للإصلاح والأقوى "[3]فكان العربي بالرغم من تناقض صفاته صبوراً قوياً لأن الصحراء تغرس في نفسه الشجاعة والقوة ، " وتربيها على الكبرياء والترفع ، وتعودها على الحرية والانطلاق ، لتكون قادرة على التحكم في هذه البيئة ومسيطرة على عواملها التي لا ترحم "[4]، ولقد صور الشنفرى قوته وقدرة تحمله الصحراء بافتراشه الأرض بجسم تعوّد الخشونة بالرغم من ضعفه وهزاله:

وآلــف وجــه الأرض عنــدَ افتراشِــها بأهــدأ تُنبْيــهِ سناسِــنُ قُحَّــلُ
وأعْــدِلُ مَنْحُوضــاً كــأن فصُوصــهِ كِعــابٌ دحَاهــا لاعــبٌ فهــي مُثّــلُ[5]

وكانت لقوة أرجل الصعاليك وسرعتها خاصة متميزة استوجبتها طبيعة تجربتهم الحياتية القاسية ، اذ يقول الشنفرى :

وخــرقٍ كظهــرِ التِّرســي رَحْــبٍ قطعتُــهُ بعــاملتيْنِ بطنــهُ لــيس يُعمْــلُ

---

[1] ينظر : تاريخ ابن خلدون 105/1.
[2] ديوانه /98 (انض : أهزلها بطول السفر . الخرق : الأرض البعيدة . أمق الطول : الطويل واضافة أمق الى الطول للمبالغة)
[3] الفروسية في الشعر الجاهلي /46.
[4] م.ن/47.
[5] ديوانه /80 ، (تنبيه) : ترفعه ، (الاهدأ) :شديد الثبات ، السناسن : حروف فقار الظهر

فالحقـــتُ اولاه بـــأخراه مُوفيـــاً علـــى قنّـــةٍ أقعـــي مـــراراً وأمثـــلُ[1]

فلـم تكـن الشـجاعة والصـبر مقتصـرة علـى شـظف العـيش بـل هـم سـريعو الاستجابة أيضاً ، ولنا ان نلاحظ كيف ان الشاعر قد ركز على الصفات والمثل التي يحتاج إليها الإنسان بوصفها قوة تحميه في صراعه القاسي مع البيئة والتي تساعد في خوض هذا الصراع .

ويتضح من خلال قراءتنا لدواوين اكثر الشعراء الجاهليين ان كلاً من شظف العيش والجبال والمراقب والرياح وقسوة الصحراء مثيرات طبيعية استطاع الشاعر الجاهلي ان يقهرها مؤكداً تلك القوة وارادة الصبّر اللتين حاول الشاعر ان يجسدهما في تحديه متخذاً لوصف مفتاحاً يعبر من خلاله عن القيم والمشاعر من خلال تأثره بمظاهر البيئة .

ومن خلال دراستنا مثيرات الصبر يمكن ان نخلص إلى القول بان الحياة العربية قبل الإسلام بقسوتها البيئية والاجتماعية لم تكن إلا قوة تصطدم بفتوة الإنسان العربي فتجعله متحدياً ،ولم يكن هذا التحدي سوى مواجهة لطبيعة الواقع الإنساني والاجتماعي والبيئي ، ولم يكن للإنسان العربي سوى التأقلم والصّبر ، الذي ابرز فيه رجولته ، وهكذا استطاع العربي ان يتفوق على ذلك الواقع ويطوعه لقوته ، فلم يبق راضخاً له ، ومن هنا برزت قيم الكرم والمروءة والأقدام والأباء ...الخ ، التي كانت صفات تضرب بها الأمثال في الأمة العربية ، ولم تكن تستثنى أي فئة من المجتمع من هذه الصفات – ولاسيما الصعاليك –فقد عرفوا بكرمهم الدائم على الرغم مما كانوا يعانونه من فقر شديد ، وما ردّ الشاعر على عاذلته ، إلا تعبير جسد فيه صراعه الداخلي بين طموحه إلى الشخصية المثلى وبين تحديات الظرف البيئي الصحراوي ، ليؤكد موقف الاقتدار الفردي متغلباً على الحرمان والفقر معبراً عن أنفته وترفعه إذا ما صادفته تجربة آنية حفزته على الحديث عنه . وان إعادة النظر في هذا الذي خرجنا به يحملنا على الايمان القاطع بان اختلاف الظروف البيئية وتفاوت الأوضاع

---

[1] ديوانه /89، (عاملتين): يريد بهما رجليه ، (الحقت أولاه باخراه) :طعته وجزته عدواً (موفياً) : مشرفا، (القنة) :اعلى الجبل .

الاجتماعية والذاتية وتباين الاستجابات النفسية ظلت عوامل متحكمة في مشاعر الشاعر الذي ظل يستمد مقومات نماذجه من النموذج الشعري الشائع في تعبيره الفني عنها ،محدداً ملامحها من خلال قدرته الذاتية المتدفقة في أعماق الذات مازجاً التجربة اليومية بتجربة الشعر المعبر عنها ، موظفاً الصبر استجابة للمثير الذاتي والاجتماعي والبيئي ، فارضاً على نفسه تحمل المسؤولية ، وكان تجلده منبعثاً من طبيعة ظرفه المواكب لحالته الذاتية على أن المواجهة لم تكن متسمة دائماً بهذا الصمود والتجلد والصبر فالمثيرات ذاتها كانت تكشف عن حالات انهيار وتهافت وجزع تجد طريقها إلى تجارب عدد من الشعراء فتكشف عن مواقف قد يسوغها الشاعر وقد لا يسوغها ولكنها تبقى مواقف إنسانية متوقعة لا يعنينا على تقويم مشروعيتها قدر ما يعيننا تقويم صدقها في التعبير عن الحالة الإنسانية التي بعثت على صياغتها نصاً شعرياً أصيلاً .

الفصل الثاني:

مثيرات الجزع

اولاً . المثير الذاتي : 1-الشيخوخة والهرم .

2-فقد الأحبة .

3-الموت ومعضلات الحياة .

4-عقدة النقص .

ثانياً .المثير الاجتماعي :

1- العلاقات الأسرية .

2-الحرب .

3-القبيلة

ثالثاً .المثير البيئي :

1-الأطلال .

2-شظف العيش .

3-الحيوانات .

لقد تأثرت نفسية الشاعر الجاهلي بوصفه إنساناً واقعياً وشاعراً حساساً بمثيرات متعددة أدت الى خلق ذات إنسانية غير مستقرة ، ذات إيجابية صابرة قوية ، قادرة على المواجهة حيناً ، وذات سلبية ، جازعة وعاجزة عن المواجهة في حين آخر...على ان الذات الجازعة هي موضوع دراستنا في هذا الفصل وسنتناولها من خلال استطلاع المثير وخصوصيته في الشعر في ضوء ما أفرزته الطبيعية من مثيرات متعلقة بعوامل الحياة ومرتبطة بمثيرات متعلقة بالشيخوخة والهرم وفقد الأحبة والموت والحياة فضلاً عن عقد النقص التي كان يعاني منها بعض الشعراء الجاهليين .او قد تكون مرتبطة بمثيرات اجتماعية متمثلة بالأهل والأصحاب والقبيلة ونظرتهم الى الحرب ومخلفاتها . على ان الشاعر الجاهلي لم يقع تحت تأثير هذا فحسب ،بل كانت الأطلال والحيوانات وشظف العيش مثيرات طبيعية لها أثرها في نفسيته وبالتالي في شعره .

على ان هذه الخصوصية ليست تلك التي تستجيب لها الذات بنوع من التصرف ، بل هي الخصوصية التي تتمثلها الذات باستجابة متميزة بأبعادها الإنسانية ، والتي تبلغ ذروتها في جزع الشاعر وعدم قدرته على المواجهة ، ومن هنا ساتابع المثيرات التي أعرب الشعراء عن صبرهم في مواجهتها في الفصل السابق لأتأمل مواقف جزعهم من المثيرات نفسها في هذا الفصل :

أولاً :المثير الذاتي

ثانياً :المثير الاجتماعي

ثالثاً :المثير البيئي

أولاً .المثير الذاتي :

تناولت في الفصل السابق صور صبر الشعراء على المثيرات الذاتية التي واجهوها بيد ان الشعراء لم يكونوا جمعياً يمتلكون القدرة نفسها في المواجهة وربما كان الشاعر نفسه يقف صابراً بأزاء مثير ما في قصيدة ولكنه يبدو جازعاً إزاء المثير نفسه في قصيدة أخرى ، وتلك حقيقة الطبيعية الإنسانية التي تفاوت بين شخص وآخر، او تتفاوت عند الشخص نفسه بين موقف وآخر ، وفي هذا الفصل سأتناول بالدراسة تلك النصوص التي عبر فيها الشعراء عن جزعهم وهم يواجهون المثيرات الذاتية نفسها التي تناولت تعبيرهم عن صبرهم إزاءها آنفاً وهي :

1- الشيخوخة والهرم .
2- فقد الأحبة .
3- الموت ومعضلات الحياة .
4- عقدة النقص .

1.الشيخوخة والهرم :

كان الإحساس بأدبار الشباب وإقبال الشيخوخة وما ينجم عنها من ضعف وسقم وتهافت باعثاً على تفكير المرء بجريان الزمن وتناقص العمر ، لقد ولد هذا الإحساس شعوراً بالحزن على ما فات من أيام اللهو والاندفاع والقوة. وإذا رحنا نستجلي قيمته ومكانته عند شعراء ما قبل الإسلام وطرق التعبير عنه في أشعارهم فإننا سنظفر بالحقيقة التي تقول " ان العرب ما بكت على شيء في أشعارها كبكائها على الشباب وما بلغت كنهه " [1].

ومن هنا نستطيع القول ان فقد الشباب عندهم يمثل فقد الحياة " وان الناس مازالوا يبكون على فقد الشباب في الجاهلية والإسلام ويتأسفون عليه لأنه في الحقيقة العيش"[2].

وما كان يؤلم الجاهلي هو إدراكه ان الشباب الى انتهاء ، فلن يفلت الإنسان من قدر الشيخوخة مهما حاول ذلك وهو يعلم ان شيخوخته ستجلب له شقاءً وتعباً لا طاقة به على احتمالهما في حين ان الفتوة تعني الفروسية والشجاعة وتلبية الرغبات [3] ، فالشباب والفتوة قبالة الحياة والشيخوخة والضعف قبالة الموت [4].

وربما عبر الشعراء عن جزعهم من الشيخوخة من خلال أحاديثهم عن انصراف النساء عنهم او من خلال فقدهم القوة والفروسية ....

وحسبنا ان تكون حالة (البكاء) إحدى قرائن الحزن على الشباب والجزع من المشيب ، وكما يرثي الشاعر احب الناس الى نفسه ، فانه إذا شاخ يرثي شبابه ويبكيه ، ولعل اول شاعر رثى شبابه هو عمرو بن قميئة ، إذا قال :

يالهفّ نفسي على الشباب ولم افقد به اذ فقدتهُ أمَمَا
قد كنتُ في ميعةٍ أسرُّ بها أمنع ضيمي وأهبط العُصُما

---

[1] المستطرف من كل فن مستظرف 6/2.

[2] في ذكر بكاء الناس على الشباب وجزعهم من المشيب /94. وينظر : نهاية الارب /24.

[3] ينظر : الفروسية في الشعر الجاهلي /30-32.

[4] ينظر : مجمع الأمثال 366/2.

لا تغـــبطِ المـــرءَ ان يقـــالَ لـــه أمســـى فـــلانُ لأهلـــهِ حكمـــا
ان ســـره طـــولُ عمـــرهِ فلقـــد أضحى على الوجهِ طول ما سلما[1]

ويبدو ان الشعراء ساروا على اثر عمرو بن قميئة ، فقد وقفوا طويلاً عند الشباب وبكوه بكاءً مراً لانه بذهابه تغنى البشاشة ويزول اللهو ويدنو المرء من الهرم والشيب الذي ينهى عن اللذة وينذر بقرب ختام الرحلة ، فتحسر الشعراء على الشباب وتمنوا رجوعه ، قال سلامة بن جندل:

أودى الشـبابُ حميـداً ذو التعاجيـب أودى وذلـك شـأوٌ غيـر مطلـوب
أودى الشـباب الـذي مجـدٌ عواقبـهُ فيـه نلـذّ ولا لـذاتِ للشـيب
وللشـباب إذا دامـتْ بشاشـته ودّ القلـوب مـن البـيض الرعابيـبِ[2]

فالشباب رمز للحياة ولذتها وليس عند الجاهلي لذّة في المشيب ، فالشاعر يكشف عن خوالجه النفسية من خلال قصائده الرائعة التي بكى فيها بكاءً حاراً ، ويبقى الشباب بحد ذاته يعبر عن معنى الخلود ، ولهذا كان وعي الشاعر الجاهلي لقيمة الشباب مجسداً في قصائد تعبر عن عظيم حزن وتأسيٍ لمفارقته فاللشيب والشيخوخة مشكلة على جانب كبير من الأهمية " لأنها ارتبطت في أذهاننا بمعاني التحقيق والانتهاء وفوات الأوان ، والشيخوخة كما يقول أندريه مورا هي الشعور بانه قد فات الأوان وان اللعبة قد انتهت وان المسرح من الآن فصاعداً قد اصبح ملكاً لجيل اخر "[3]،حيث يجد الإنسان نفسه عاجزاً عن تحقيق أية إمكانات ، ولهذا

---

[1] ديوانه /48. الأمم : الشيء القصد . والأمم الشيء القريب المتناول والأمم العظيم ، والصغير وهو من الأضداد ، وقد أراد ابن قميئة المعنى الأخير وهو الصغير .
العُصُمُ : بقية كل شيء واثره من القطِران والخضاب وغيرهما .

[2] ديوانه /91-93.

[3] مشكلة الحياة /188.

يصبح الوجود الإنساني في هذه المرحلة متسماً بالجمود والثبات ، تحيط به برودة وكآبة ، لأنه يقترن بالخوف من الموت والعجز عن تحقيق الذات . فالحياة والبقاء تعني الفعل ، والفعل مقترن بالشباب لذلك تتجه أنظار الشاعر الجاهلي نحو الماضي ، ليبقى خالداً بشبابه الدائم ، وهو ما نستشفه من خلال قصائد لشعراء ما قبل الإسلام .

ان أول انطباع يمكن ان يخلفه الشاعر لدى المتلقي هو التعبير الواضح عن جدلية الذات مع الواقع الذي يؤطر مجمل المشاعر حيث مثل ذلك الانطباع فرصة اقتنصها الشاعر وتمكن من خلالها ان يعبر عن جزعه من الشيخوخة وعلى الرغم من ذلك نرى في ثناياها تعبيراً واضحاً عن مشاعر الخوف التي تمتلك ذات الإنسان ، يقول بشر بن أبي خازم :

قليلاً والشبابُ سحابُ ريحٍ إذا ولّى فليس له ارتجاع[1]

وتجلى هذا المعنى عند امرىء القيس وهو يعطينا صورة واضحة لما اختلج في نفسه من هواجس وأولها الخوف والقلق من الشيب:

ان يكُ شيبي قد علاني وفاتني شبابي وأضحى باطلُ القول قدْ صحا
وابليتُ أثوابَ الشبابِ وَحُسْنهَ وكُلّ جديد سوف يدركه البلى
فلستُ لمِن يبكي الشباب بلائمِ ولكن اراهُ بيّنَ العُذرِ إنْ بكى[2]

وهنا يتضح صدق التجربة الشعورية التي تمثلت بالرجوع الى الواقع المر من دون ان يسرح الشاعر في أوهام لا طائل منها .

واي تظاهر للشيخوخة بالتماسك وهو تظاهر منكر[3]،فالمفقود ليس شيئاً غير ذي بال ، انه الشباب الذي يبكي احر البكاء ، فاشتداد الأحزان تجعل المرء يحمل

---

[1] ديوانه /112.

[2] ديوانه /330-335.

[3] ينظر : زهو الآداب 1970/4.

شجونه فينسبها إلى الشيب لأنه ضيف غير مرحب به وذلك ما جاء في بائية عدي بن زيد :

نـــزل المشـــيبُ بوفـــده لا مرحبـــا ورای الشـــبابُ مكانُـــه فتجنبّـــا
ضـــيفٌ بغـــيضٌ لا أرى عُصْـــرَةً منـــه هربـــتُ فلـــم اجـــدْلي مهربـــا
ولقـــد يصُـــاحبني الشـــباب فلـــم اكـــن آتـــي بـــه الاّ الفعـــال الا صـــوبا
ولقـــد حِفظْـــتُ مكانـــه ورعيتـــهُ وجَعَلْتُـــهُ منّـــي ألا حـــبَّ الأقربـــا[1]

واستمد الشاعر الجاهلي معانيه في طرح أبعاد الموضوع المتجسدة في انبثاقها من التجربة الموضوعية ، فالأبيات تعبر عن رغبة مكبوتة في داخل الشاعر في العودة الى الشباب ، وذلك ما عبر عنه المزّرد بن ضرار:

فـلا مرحبـاً بالشـيبِ مـن وفـد زائـرٍ متـى يـأتِ لا تحجـب عليـهِ المـداخلُ
وســـقياً لريعـــانِ الشـــبابِ فأنـــهُ أخـو ثقـةٍ فـي الـدّهرِ إذ أنـا جاهـلُ[2]

فالشعراء لم يرحبوا بالشيب الذي هو نذير الموت اللاحق بهم ، وجزعوا منه جزعاً شديداً لتمسكهم بالشباب وما فيه من نضارة وحيوية وقوة .....

ان الشاعر في ظرف قوله لا يعمد الى نظرية مجردة ولكنه في إحساسه يقترب من الواقع فالضعف البدني لدى الشاعر ولد لديه شعوراً بعدم الأمان في قضاء حاجاته ، ووجد نفسه عاجزاً عن ان يعين نفسه فنقل هذا الإحساس بصور تكشف لنا عن عمق المعاناة التي يعيشها ، وقد نقل هذا الإحساس النمر بن تولب اذ قال :

---

[1] ديوانه /113.العصرة : المنجاة والملجأ.

[2] ديوانه /33.

أصــبحتُ لا يحمــل بعضــي بعضــا أشــكو العــروق النابيــات نبضــأ
كمــا تشــكّى الأرحبــيُّ الغرْضَــأ كأنمــا كــان شــبابي {قَرْضَــأ}[1]

فالمعمر يحتاج الى من يعينه ويساعده على القيام والحركة ، فهي تجربة شعورية تعبر عن صميم المعاناة في مرحلة العمر المتقدمة .ففي الكثير من الأبيات نجد واقعاً ملموساً وهو شعور الشاعر بالحسرة من ضعف جوارحه التي أصبحت عاجزة عن القيام بمهامها وذلك هو محور المعاناة في قول ذي الإصبع العدواني :

أصبحتُ شيخاً أرى الشخصين اربعةً والشّخص شخصين لمّا مسني الكبر
ما للكواعب يا دهماءُ قد جعلتْ تزورّ عني وتطوى دوني الحُجَرُ
قد كنتُ فرّاج أبوابٍ مغلقةٍ ذبّ الريادِ إذا ما خوُلس النظر
لا اسمع الصوت حتى استدير لهُ ليلاً وانْ هو ناغاني به العمر
وكنتُ أمشي على الرّجلين معتدلاً فصرتُ أمشي على ما ينبت الشجر[2]

وفضلاً عن جزع الشاعر المعّمر من قلة نفعه وضيق الأهل والأصحاب به يعمد الى ضخ آثار المعاناة النفسية في لحظة الإلهام الفني الذي تنتج عنه دقة في

---

[1] شعره /70 .(ارحب) : حيُّ او موضع تنسب اليه النجائب الارحبية ، ويحتمل ان يكون ارحب فحلاً تنسب اليه النجائب لأنها من نسله .(الغرض) : حزام الرحل . وكلمة (قرضاً) في الديوان (فرضاً) وهي خطأ طباعي والتصحيح من الأغاني 162/19. وينظر :ديوان امرئ القيس /170.

ومــا خفــتُ تبــريح الحيــاة كمــا أرى تضــيقُ ذراعــي ان أقــوم فالبســا

[2] ديوانه /33-34.

رسم الصورة حول الذات التي تعاني من آثار التجربة الموضوعية والنفسية ، يقول عروة في ذلك :

أليس ورائي ان ادبَّ على العصا فيشمت اعدائي ويسأمني أهلي
رهينةُ قعر البيت كلا عشيّةٍ يطيفُ بي الولدان اهدج كالرألِ[1]

ويبدو ان هذا وليد لحادث آني حفز الشاعر على اتخاذ هذا الاتجاه المباشر في تناول المعاني ، فكان وصفه الصريح نتيجة صادقة لما كان يعانيه ، طارحاً فكرة معينة اتسمت بأهميتها في الحياة ، ومن الشعراء من طال العمر به فأطلق شكواه جزعاً ومنهم أوس بن ربيعة الا سلمي الذي يقول :

لقد خُلِّقت حتى ملَّ أهلي ثوائي فيهم ، وسئمت عمري
وحق لمن أتت مائتين عامٍ عليه وأربعٌ من بعد عَشْرِ
يَمَلُّ من الثواء وصبح يومٍ يغاديه ، وليلٍ بَعْدُ يَسْري
فأبلى جدّتي وبقيتُ شلواً وباح بما أجنّ ضميَر صدري[2]

لقد كانت الشيخوخة ومعاناتها تصرف عن الشاعر اقرب الناس أليه وتجعلهم يتذمرون منه ، فظهرت مجموعة من الشعراء الجاهليين ، الذين اتخذوا من الموت طريقاً للخلاص من حياة الذّل والمهانة ، معتمدين في ذلك على الوصف الدقيق المؤثر في الملتقي ، وذلك ما جاء في ميمية كعب بن رادة النخعي التي يقول فيها :

لقد ملنّي الأدنى وأبغض رؤيتي وأنبأني الاّ يحلَّ كلامي
على الراحتين مرّة وعلى العصا أنوء ثلاثاً بعدهنّ قيامي
فياليتني قد سخت في الارض قامة وليت طعامي كان فيه حمامي[1]

---

[1] ديوانه /114.(الرال): فرخ النعام.

[2] المعمرون والوصايا/94. ولم اعثر على حياة الشاعر .

الا ان بعض الشعراء جزعوا من الهرم والشيخوخة لأنها تقود إلى الموت الذي هالهم ان يكون هو وسيلته الوحيدة للخلاص من معاناة الشيخوخة وآلامها وتبقى الشيخوخة جرحاً داخلياً في نفس الشاعر،لأنها خطام المنية ونذير الموت [2]. وقد افرد الشعراء للشيب شعراً ربطوا فيه بينه وبين الموت وقالوا انه رسولها ونذيرها [3].

على ان من ابرز مقطوعات الشكوى من الشيب كانت في شعر دريد بن الصمة ، ففيها تفجع شديد مما آلت أليه حياته وما غدا يواجهه من ضعف وتهافت وفوق ذلك توقعه شبح الموت الذي غدا أقرب أليه من رمية سهم ، فهو يقول :

أصبحتُ أقذف أهداف المنون كما ... يرمى الدريئة أدنى فوقةِ الوتر
في منصف من مدى تسعين من مئةٍ ... كرمية الكاعب العذراء بالحجر
في منزل نازح مِ الحي منتبذٍ ... كمربط العيَر ، لا أُدعى إلى خيرِ
كأنني ضربٌ جُزّت قوادمهُ ... أوجثةٌ من بُغاثٍ في يدي هَصِر[4]ٍ

ولا يخرج الصعاليك عن دائرة هذا الجزع من الهرم الذي يقود إلى الموت فكثيراً ما يسلك الشاعر الصعلوك سبيل الشكوى واللوم للزمان تلويحاً ، فهو يجزع من الشيخوخة وما يمر به في نفسه من يأس وذهول فهو كلما ذكر أيام الشباب ، وعهد الصبا هذه منظر الشيب في رأسه هزة عنيفة يصحو على أثرها فتخور عزيمته ويتبدد أمله في الحياة ، ويكاد أبو كبير الهذلي يسجل تفوقاً يجعل من شعره ظاهرة واضحة في مجال الجزع من الشيب فجميع الصور التي رسمها أبو كبير في شعره تشير إلى

---

[1] المعمرون والوصايا /84. ولم اعثر على حياته.

[2] ينظر : العقد الفريد 318/2.

[3] ينظر :زهر الآداب 799/2.

[4] ديوانه /66. الخرب من الفرس : الشعر المختلف وسط مِرْفقه ، المنصف : الوسط . بغاث : صغار الطير . (هَصِر) : حيوان مفترس.

انه كان يشكو من الزمان الذي روعه وأفزعه وهو من الشعراء الذين عدوا الشيب نذيراً للموت ، إذ يقول :

أزُهيـــر هـــلْ شـــيبةٍ مـــن معـــدل ام لا ســـبيل الـــى الشـــباب الأول
ام لا ســـبيل الـــى الشـــباب وذكـــرهِ أشـــهى الـــيّ مـــن الرّحيـــق السّلَسـلِ
ذهـب الشـباب وفـات منـيّ مـا مضـى ونضـــا زهيـــرُ كريهتـــي وتبطّلـــي
وصـحوتُ عـن ذكـرا الغـواني وانتهـى عُمِـــري وأنكـــرْتُ الغـــداة تقتلّـــي[1]

اما الشعراء الذين كانوا على صلة بالديانات السماوية ، فقد اقترنت الشكوى من الدهر في شعرهم بالأيمان بالبعث وقرنوا الموت بالهرم بقول أمية بن أبي الصلت:

باتـــت همـــومي تســـري طوارقهـــا أكـــف عينـــي والـــدمعُ ســـابِقُها
اقتـــرب الوعـــدُ والقلـــوب إلـــى اللـــ ـــــهو وحُـــبِّ الحيـــاة ســـائقِهُا
مـــا رغبـــةُ الـــنفس فـــي الحيـــاة وإنْ عاشـــت طـــويلاً فـــالموت لا حقِهُـــا
مـــن لـــم يمـــت عبطـــة يمـــت هرمـــاً للمـــوت كـــأس والمـــرء ذائِقُهـــا[2]

فتكاد الشكوى من الدهر تمتزج بالشكوى من الهرم ، وبذلك يوجه اهتمام الملتقي إلى الشعور الذاتي المتمثل بالحياة الخاصة ، والى الشعور الجماعي المتمثل بخوف الإنسانية من الهرم والموت حيث ان الشاعر والملتقي يلتقيان عند الهواجس الإنسانية العامة.

---

[1] شرح أشعار الهذليين 3/1069-1070.(الرحيق : صفوة الخمر) السلسل: الماء العذب والصافي .

[2] امية بن أبي الصلت / 237-241. (اعتبط الشاب : اذا مات شاباً).

وإذا ما انتقلنا إلى صور أخرى من صور الجزع من الشيخوخة فأننا سنجد ان الشاعر الجاهلي قد خلط بين مفارقة الشباب ومفارقة النساء له وعزوفهن عنه بعد حلول المشيب وهذه الصور غالباً ما تظهر عند أولئك الشعراء الذين قضوا أياماً مع محبوباتهم . فكانت تلك الأيام محل ذكرى عزيزة على قلوبهم ، فأصبحت متقطعة عنهم ، ومن أولئك الشعراء علقمة الذي يقول :

إذا شاب رأس المرءِ او قلّ ماله فليس له من ودّهن نصيبُ
يرُدن ثراء المالِ حيث عَلِمْنهُ وشرخ الشباب عندهنّ عجيبُ[1]

فالشاعر عند ما ينزل الشيب بساحته وتعوض النساء عنه يعمد الى الحديث عن عدم الوفاء ، فهو يرى ان الذي يستهوي النساء أولاً الشباب والفتوة ثم المال بعده ، يقول امرؤ القيس :

أراهن لا يحببن من قلّ ماله ولا من رأين الشيب فيه وقوسا[2]

وعلى الرغم من شيخوخة الشاعر وما فيها من شعور بالفناء ، نراه متعلقاً بالمرأة لأنها رمز الحياة والشباب والأمل الا أنها تعرض عنه وتعنفه ، فليس لمثله ان ينشد الحياة وهذا يترك اثراً مؤلماً في نفسه ، يقول عبيد بن الأبرص :

تلك عرسي غضبى تريد زيالي ألبين تريد أم لدلالِ
زعمت أنني كبرتُ وأني قلّ مالي وضنّ عني الموالي
وصحا باطلي وأصبحت شيخاً لا يؤاتي أمثالها أمثالي[3]

---

[1] ديوانه /33.
[2] ديوانه /109.
[3] ديوانه /107.

فقد جزع الشعراء من شيخوختهم ، وبكوا على فوات الشباب بدمع غزير واحسنوا التعليل إذا تنكرت لشيبهم امرأة بعد وصال ولا متهم لائمة على توسلهم بأسباب اللهو فهذا عبيد وقد علاه الشيب يتذكر شبابه قائلاً:

وقد علا لمتّي شيبٌ فودّعني ... منه الغواني وداعَ الصّارمِ القالي
بان الشبابُ فآلا يُلمُّ بنا ... وآحتل بي من مشيب أي محلالِ
والشيب شينٌ لمن أرسى بساحته ... لله درُّ سوادِ اللمّةِ الخالي[1]

ويحس الشاعر بالجزع والقلق إزاء المرأة التي فارقته لما للزمن من تأثير في حياته ومغادرته للشباب . ومثلما كانت المرأة رمزاً متعدد الوجوه ، فانها تمثل تجربة حقيقة في حياة بعض الشعراء وغيابها يشكل لديهم جزعاً يشعرهم بانطفاء جذوة الحياة ولهذا فان الشاعر يسعى جاهداً لان يمنحها سمة الخلود الدائم عبر تمسكه بالشباب ، فهذا الأعشى يتألم لضياع شبابه وانصراف حبيبته عنه بعد ان رأت شيبه ، يقول :

أثوى وقصّر لَيلَةً ليزوّدا ... فمضت وأخلفَ من قتيلة موعدا
وارى الغواني حين شبتُ هجرنني ... أنْ لا أكون لهنْ مثلي أمردا
ان الغواني لا يواصلن امرءاً ... فقد الشباب وقد يصلن الامردا[2]

وعبر عمرو بن شأس الاسدي عن جزعه من المشيب بإطلاق حسراته على الشباب الذي ولى وندم عليه ولعدم إجابة العاذلات له ، بقوله :

فوانـدمي على الشباب واندم ... ندمْتُ وبان اليوم منِّي بغير ذَمْ

---

[1] ديوانه /104.

[2] ديوانه /227.

وإذْ أخــوتي حــولي وإذْ أنــا شــائِخٌ وإذْ لا أُجيبُ العاذلات من الصّمَمْ[1]

ان تجربة الشيخوخة كانت تجربة حقيقية عانى منها الشعراء فهم يصوغون المعاناة من خلال رؤية صادقة ، ولعل من أبهى الصور التي رسمها هؤلاء الطاعنون في السن و أروع اللوحات التي أبدعها فنهم الشعري ، وهم في هذه السن المتقدمة ، ما انطلقت به ألسنتهم من وصف أحوالهم التي تفصح عن حقيقة أعمارهم .

وهكذا يبقى جزع الشاعر بمفارقته الشباب جزعاً حتمياً ن تفسره حالة البكاء التي استنفرت العواطف والمشاعر الإنسانية ، وانفتاح الشاعر على تذكر الماضي بكل ما فيه من قوة ولذّة عيش ونعيم ، فالتقت الذكريات ببكاء الشباب الذي أدبر عن الشاعر وارتحل عنه دون ان يلقى مثيلاً له او بديلاً عنه .

وحين نمضي لا دراك هذا الشعور إدراكاً حسياً في نتاج الشعراء فسنجد ان تعبيرهم عنه يتمخض عن صور فنية رائعة ذات أبعاد نفسية معبرة قوامها كلمات مشحونة بمكنون النفس الإنسانية ومعاناتها وحسراتها ولهفتها وهمومها ، وتحدّ من طبيعة نظرتهم التشاؤمية إلى الشيخوخة والهرم الذي عدوه نذيراً للموت ثم كان الشيب داعياً لانصراف الآخرين عنهم وهجر الحبيبة لهم ..

---

[1] ديوانه /102.

2.فقد الأحبة :

الرثاء من الفنون التي وجد فيها الشعراء مجالاً للتعبير عن خلجات قلب حزين ، تتملكه لوعة صادقة وحسرة موجعة ، والرثاء الصادق تعبير مباشر قلما تشوبه الصنعة او التكلف فهو قريب من النفس [1]، " وسبيل الرثاء ان يكون ظاهر التفجع بينّ الحسرة ، مخلوطاً بالتلهف والأسف والاستعظام "[2] ، " وعلى شدة الجزع بيني الرثاء "[3].

فالرثاء الذي هو بكاء الأعزاء من الموتى والتأسي عليهم والتوجع لمصابهم ، يشكل باباً واسعاً من أبواب الشعر الجاهلي وذلك لكثرة المنازعات الجاهلية ، فالحياة الجاهلية كانت حياة موجعة يسقط فيها القتلى ، فيبكي الأهل والأصحاب قتلاهم ويثيرون ببكائهم دموع قبائلهم ويؤججون أحزانهم ، وكانت النساء يجتمعن في مناحه ، ويصحب ذلك لطم على الوجوه والصدور بالاكف او قطع الجلود ويعرف هذا الضرب من الشعر الذي يقال في هذه المناحات بـ(الندب) وقد برعت النساء في هذا الضرب ، المعبر عن حالة الجزع التي تصيب الإنسان[4] . وهو تعبير عن المأساة التي يصل فيها انفعال الراثي أوجه حتى يتجاوز حده في الألم والحزن .

وإذا ما تطلعنا الى الندب فسنجد ان الشاعر قد برزن أقرانهن من الرجال في اكثر الأحيان لرقة شعور المرأة وعدم احتراسها من البكاء وإسبال الدمع عند تأثرها بمكروه فضلاً عن فقد المرأة الجاهلية معيلها وحاميها الذي يعني فقده بالنسبة أليها ذلاً مقيماً وهي تعيش في مجتمع القبيلة الذي تحكمه السطوة .

وتتوالى حرقات الألم وأناته عبر قصائد الراثيات من شعراء الجاهلية لتعكس صوراً للجزع المعبر عن مآتم نسائية معولة لفقد الأحبة ، فهذه سعدى بنت الشمردل الجهنية ترثي أخاها الذي قتله بنو سليم بن منصور رثاءً يطفح باللوعة والجزع

---

[1] ينظر : الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه /195.

[2] العمدة 147/2.

[3] م.ن 153/1.

[4] ينظر : الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه/195.

للمصاب بتفاصيل دقيقة ، وكانت تلك الدقة والتعمق في التعبير كامنة في وعي الشاعرة ، ما ان وجدت منفذاً حتى أطلقت صرختها الباكية بحرقة :

أمـــن الحـــوادث والمنـــون أروّع وأبيـــتُ ليلـــي كُلّـــه لا اهجـــع
وأبيـــتُ مخليـــةً أُبكِّـــي أسْـــعدا ولمثلِـــه تبكـــي العيـــون وتهمـــعُ
وتبـــيّن العـــين الطليحـــةُ إنّهـــا تبكـــي مـــن الجـــزع الّـــدخيل وتـــدمعُ
ان الحـــوادث والمنـــون كليهمـــا لا يعتبـــانِ ولـــو بكـــى مـــن يجـــزعُ[1]

ولكن يمكننا ان نؤكد ان ألم الشاعر لم يطمس معالم شاعريتها فقد كانت قصيدتها مكثفة في معانيها...

وكانت الخنساء اشهر من بكت واستبكت في عصر ما قبل الإسلام ، فقد رثت أخويها معاوية وصخراً بشعر تحترق له الأفئدة ، وهذا حال المراثي ، قال الأصمعي " قلت لأعرابي : ما بال المراثي أشرف أشعاركم؟ قال : لأنا نقولها وقلوبنا محترقة"[2] ، ولذا نجد نار الجزع والحزن في أحشاء الخنساء وهي ترثي أخاها[3] ولا تملك إفصاحاً عن حزنها الا بكلمات ملتاعة ولا يبرّد فؤادها حتى الماء الزلازل [4]وهذه اللوعة المتقدة في فؤاد الخنساء مما نجدها عند كثير من النساء اللاتي بكين اخوتهن أو أبنائهن ، ولكن لا نجد عند اغلبهن المرارة التي الفناها عند سيدة الرثاء العربي الخنساء التي كانت المثل الأعلى في الرثاء [5]. وما من شاعرة جاهلية أجادت الرثاء كإجادتها وذلك من خلال قصائد رثت فيها أخاها صخراً فقد بقيت نائحة عليه السنين الطويلة ، لاطمة الخد ، شاقة الجيب، متأسية ، تعن لها ذكراه

---

[1] الاصمعيات /101-102. (مخلية) : خالية (تهمع) : تسيل دموعها .(الطليحة) : المتعبة (الدخيل): الداخل .

[2] العقد الفريد 288/3.

[3] ديوانها/47.

[4] م.ن/94.

[5] ينظر : الرثاء او جرحات القلوب/69.

انى ولت وجهها ، فلا تجد من معين الا البكاء ولا سبيل الى هدوء النفس الا بإفراغ هذا الهم الذي وقفت رثاء أخيها عليه ، فقد استولى عليها الجزع وطال آساها وعبرت عن جزعها بمخاطبة العين ، اذ تقول :

يـا عـينُ مالـكِ لا تبكـينَ تسـكابا اذ رابَ دهـرٌ وكـان الـدّهرُ ريابـا
فـأبكي أخـاكِ لأيتـامٍ وأرملـةٍ وأبكـي أخـاكِ إذا جـاورتِ اجنابـا[1]

فكان البكاء والدمع السخين ، أطوع لها وأصدق تعبيراً [2]، من هنا كان للحزن العميق دور التوثيب للانتقام ، وتكاد الخنساء ان تكون أنموذجاً لهذا النوع من الرثاء " حيث استوفت كل صور الرثاء ومعطياته وتقاليده القديمة الموروثة"[3]، متخذة أسلوب الوصف الدقيق لتلك القيم والمعبرة عن الجزع بأدق التفاصيل ، فهي تقول :

يـاعينَ فيضـي بـدمع منـك مغـزار وابكي لصخر بـد مع منك مدرار
- - - - ـــــ ـــــ ـــــ ـــــ
قـد كنـت تحمـل قلبـاً غيـر مهتضـم مركباً فـي نصابٍ غير خوار
- - - - ـــــ ـــــ ـــــ ـــــ
ابلـغ سـليماً وعوفـاً ان لقيـتهم عميمة مـن نداءٍ غير اسرار
- - - - ـــــ ـــــ ـــــ ـــــ
لا نـوم حتـى تقـودوا الخيـل عابسـة ينبـذن طرحـاً بمهـراتِ وامهـار[4]

---

[1] ديوانها /148-150. الريبة: الشك ، الجنب: القرب.
[2] ينظر : المرأة في الشعر الجاهلي /488.
[3] رثاء الأبطال في الأدب العربي قبل الإسلام/235.
[4] ديوانها /290-301.

وتعلن الخنساء عجزها وضعفها وظهور الشيب قبل آوانه نتيجة لحالة الجزع التي عاشتها ، وكان ذلك المجرى مبالغة في التعبير عن الخوالج النفسية المؤثرة في حياة الشاعرة والصادرة عن قلب مليء بالآهات والحسرات فهي لا تجد منفذاً حتى تعبر عن جزعها [1] ، فضلاً عن ان الحرمان من الجوارح كان له وقع كبير في نفوس الشعراء ، حتى وجدناهم ينقلون هذا النوع من الحرمان إلى استعارات مجازية في موضوعات تكون الكارثة فيها مساوية للحرمان من اليد[2].

لقد اقترن جزع النساء بالبكاء اقتراناً لا نلحظ نظيره في بكاء الرجال " وذلك انه يتفق في معطياته على رسم الأطر الأولية من قبيل المبالغة في إظهار الجزع"[3] ، ولاسيما إذا كانت البنت هي الراثية المفجوعة بوفاة والدها والتي يدمى قلبها حين تخذلها الدموع لان البكاء " لا يكون الا من فضل فإذا اشتد الحزن ذهب البكاء"[4]، فتلك سلمى بنت المهلهل ترثي أباها جازعة بعد ان فقدته ، قائلة :

أعينـــيَّ ان تُغْـــنِ الـــدموع فأوكفـــا دمـاً بارفضـاضٍ عنـد نـوح النـوائح
الا تبكيـــان المرتجـــى عنـــد مشـــهد يثـور مـــع الفرســـان نقـــع الابـــاطحِ
عـدياً اخـا المعـروف فـي كـل شـتوة وفارســها المهيــوب عنــد التكــافحِ[5]

وتعلن جليلة بنت مرة جزعها على زوجها الذي قتله أخوها جساس ، وفي الوقت نفسه تعلن فيه جزعها من فعل أخيها ، فجاءت قصيدتها بأشجى الألفاظ المعبرة عن عمق معاناتها بمصابها ، قائلة :

يـــا ابنـــة الأقـــوامِ ان لمـــتِ فـــلا تعجلـــي بـــاللومِ حتـــى تســـألي
فـــإذا أنـــت تبينـــتِ التـــي عنـــدها اللـــومِ فلـــومي واعـــذلي

---

[1] ينظر : الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه /201.
[2] ينظر : الحرمان في الشعر العربي قبل الإسلام /246.
[3] دراسات في الأدب الجاهلي (البياتي) 433/1.
[4] نهاية الارب165/5.
[5] المهلهل بن ربيعة /59.

ان تكــن أخــتُ امــرئ ليمــت علــى جـــزعٍ منهـــا عليـــه فـــافعلي
فعـــل جسّـــاس علـــى ضـــنيّ قـــاطع ظهـــري ومـــدنٍ أجلـــي[1]

وهل هناك أروع من الصورة التي عبرت عن خسارة هذا الإنسان والفراغ الذي تركه بموته ؟

ومن الصعب على الرجل ان يبكي أحزانه كالنساء غالباً وهو يرفض ذلك بقوة وإذا بكى فبصمت وهدوء وحكمة أحياناً ، وقد يفقده الهم والحزن صبره [2]،فيغلب عليه الشحوب والنحول والحزن ، يقول متمم عندما فقد أخاه مالكاً:

آبـــى الصـــبر آيـــات أراهـــا وأننـــي أرى كـــل حبـــل بعـــد حبلـــك اقطعـــا
وانـــي متـــى مـــا ادع باســـمك لا تجـــب وكنـــت جـــديراً ان تجيـــب وتســـمعا
تقـــول ابنـــة العمـــري مالـــك بعـــدما أراك قـــديماً نـــاعم البـــال أفرعـــا
فقلـــت لهـــا طـــول الآســـى اذ ســـألتني ولوعـــة حـــزن تتـــرك الوجـــه اســـفعا
وفقـــد بنـــي ام تـــداعوا فلـــم اكـــن خلافهـــم ان اســـتكين واخشـــعا[3]

ونار الحزن والجزع لفقد الأهل والأحبة من النيران التي يكتوي بها فؤاد المرء ، فلا تستطيع دموع العين ان تطفئها[4]، وقد اكتوى المهلهل بن ربيعة بنار الحزن لفقد أخيه كليب فعبر عن ألمه خير تعبير ذلك لأن اقدر الناس تعبيراً عن الحزن – في اغلب الأحيان – من كان الحزن داخله ، قال المهلهل:

أذجُـــر العـــين أن تبكِّـــي الطلـــولا ان فـــي الصـــدر مـــن كليـــب غلـــيلا
ان فـــي الصـــدر حاجـــة لـــن تقضـــى مـــا دعـــا فـــي الغصـــون داع هـــديلا

---

[1] العمدة 2/153-154.

[2] ينظر : الرثاء في الشعر الجاهلي/163.

[3] مالك ومتمم /110-117.

[4] ينظر : نيران العرب في شعر ما قبل الاسلام /35.

كيـــف أنســـاك ياكليـــب ولمـــا أقـــضِ حزنـــا ينـــوبني وغلـــيلا[1]

فهو يصف الألم والجزع الذي عم الناس لمقتل أخيه كليب لا سيما النساء اللواتي احترقت أفئدتهن بنار تأججت في أحشائهن حزناً وحسرة ، فيقول :

كنـــا نغـــار علـــى العواتـــق ان تُـــرى بـــالأمس خارجـــة عـــن الأوطـــان
متســـــلبِّات نُكـــــدهُنّ وقـــــد ورى اجـــــوافهن بحرقـــــة ووراني[2]

ومن الشعراء الجاهليين من تناسى كبرياء الرجولة ولم يجد بأساً من البكاء على احبائه الذين فقدهم ، فتراه ينوح في شعره عليهم جزعاً من وقع المصاب ، فكان البكاء من بعض المظاهر التي عبرت عن جزع الشعراء وتأثرهم.

وقد اكثر بعض الشعراء من الحديث عن العين والدموع وغزارتها[3]، يقول زهير بن جذيمة العبسي يرثي ابنه شاساً:

ســـابكي عليـــه ان بكيـــت بعبـــرةٍ وحـــق لشـــاس عبـــرةٌ حـــين تُسَـــكُبُ
وحـــزن عليـــه مـــا حييـــتُ وعولـــةٌ على مثل ضوء البدر او هو أعجبُ[4]

وبالرغم من غزارة دموع الشعراء على أبنائهم ، فانهم شعروا بأنها لا تشفي غليلهم ولا تبل صداهم ، فلم يكتفوا بما سكبوه ، فقطعوا العهد على الاستمرار في ديدنهم هذا ، وكان الشعراء قد اتخذوا من هذا العهد رمزاً للوفاء لأبنائهم ، قال الحارث بن عباد في رثاء ابنه يجير الذي قتله المهلهل بن ربيعة :

---

[1] المهلهل بن ربيعة حياته وشعره / 321، وينظر : م.ن /242.

[2] المهلهل بن ربيعة /342. العواتق : الأوانس . متلبسات : ممزقات ثيابهن . ورى : احرق.

[3] ينظر : الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه /218.

[4] الأغاني (القاهرة) 3864/11.

ولعمـــــري لأبكـــــين بجيـــــرا ... مـا أتـى المـاء مـن رؤوس الجبـال
حيـل مـن دونـه فسـحت دمـوعي ... بسـجال كمثـل سـح العزالـي[1]

وقد يلجأ الشاعر في استعظام المصيبة إلى المبالغة في جزعه وذلك باشراك الطبيعة في أحزانه ، وهذا ما اتخذه اغلب شعراء ما قبل الإسلام في تهويل المصيبة ، وما كان ذلك الا خزيناً من العواطف كبتت في داخل الشاعر ، فلم يكن أمامه سوى إشراك الطبيعة معه ليعبر عن تلك اللوعة وذلك الألم ، وقد يدهش الراثي لبقاء الجبال على حالها والموتى مستقرين في قبورهم والنجوم ملتصقة بأديم السماء عندما يعلن نبأ وفاة المرثي وهو حصن بن حذيفة الغزاري الذي بكاه النابغة الذبياني ، قائلاً:

يقولـون حصـنُ ثـم تـأبى نفوسـهم ... وكيـف بحصـنٍ والجبـالُ جنـوحُ
ولـم تلفـظِ الأرضُ القبـور ولـم تـزل ... نجـوم السـماءِ والأديـم صـحيحُ
فعّمـا قليـل ثـم جـاش نعيّـهُ ... فبـات نـدِيُّ القـوم وهـو ينـوحُ[2]

ومن الشعراء من يشرك القوم للبكاء معه ، وكانت قافيه قيس بن زهير التي رثى بها حذيفة بن بدر تعبيراً عن الجزع الجماعي للفقيد إذ قال:

كـم فـارسٍ يُـدعى ولـيس بفـارس ... وعلـى الهبـاءةِ فـارسٌ ذو مصـدقِ
فـابكوا حذيفـة لـن ترثـوا مِثلـهُ ... حتـى تَبِيـدَ قبائـل لـم تُخْلَـقِ[3]

---

[1] كتاب بكر وتغلب/61.
[2] ديوانه /213.
[3] ديوانه /50.

ومن شدة جزع الشاعر يصبح طعم الحياة مراً ، ويحس ان من العدل ان يحرم نفسه من المتع التي حُرِمَ منها الميت ، ولعل نذرهم ان لا يشربوا ولا يغتسلوا ولا يدهنوا شعرهم ولا يقربوا النساء ، لم يكن الا تعبيراً عن جزعهم العميق الذي لا يطفئه الا أدراك الثأر ، وذلك ما يطفح به طفيل الغنوي:

نـداماي قـد أضـحوا تخليّـت مـنهم فكيـف الـذّ الخمـر ام كيـف اشـرب[1]

اما زهير فله أبيات في رثاء هرم بن سنان لا تقل روعة عن أبياته التي مدحه بها لانه في الحالين سواء أكان مادحاً ام راثياً انما يصدر عن عاطفة صادقة تجاه هرم لانه يمثل قيمة إنسانية وأخلاقية تجسدت فيها أخلاقيات العربي وشيمه فكان من الطبيعي ان يكون رثاؤه بمستوى مدحه هذا ان لم يتفوق الرثاء على المدح من ناحية العاطفة وإظهار الفجيعة والإحساس بالألم لفقد هرم بن سنان عندما قال:

فآســـــتأثرالدهرُ الغـــــداةَ بهـــــم والـــــدهرُ يرمينـــــي ولا أرمـــــي
لـــو كـــان لـــي قرنـــاً أنـــا ضـــلُه مـــا طـــاش عنـــد حفيظـــةٍ ســـهمي
او كـــان يعطـــي النّصـــف قلـــتُ لـــه أحـــرزت قســـمك فآلـــه عـــن قســـمي
يـــــادهر قـــــد آكثـــــرت فجعتنـــــا بســـــراتنا وقرعـــــت فـــــي العظـــــمِ
وســـــلبتنا مـــــا لســـــت معُقبـــــه يـــا دهـــرُ مـــا أنصـــفتَ فـــي الحكـــمِ
أجلـــتْ صـــروفك عـــن أخـــي ثقـــةٍ حـــامي الـــذِّمار مُخـــالط الجـــزمِ
ينمـــــي الـــــى ميـــــراثِ والـــــدهِ كلُّ امرئ لأرومةٍ ينـمي
- - - - ـــــــ ـــــــ ـــــــ ـــــــ ـــــــ
ولقـــد علمـــت علـــى آنصـــلاتك مـــا أزرى ولـــو أكثـــرت بـــي عُـــدمي
خُلقـــي بـــرى جســـمي وشـــيبني جزعـــي علـــى مـــا مـــات مـــن هَـــرْمِ
ان الرّزيئـــــة مـــــا لهـــــا مثـــــلٌ فقـــدانُ مـــن ينمـــي الـــى الحـــزمِ[1]

---

[1] ديوانه /18.

فزهير يوجه اللوم بهذا الفقد الى الدهر الذي ما انفك يصيبهم بسادتهم الواحد تلوا الآخر والشاعر جعل الامر كأنه شخصي بينه وبين الدهر . فالدهر يرميه وهو عاجز عن الرد او الثار ، ثم يتجه الى ما يشبه العتاب لذلك الدهر بقوله (يا دهر ما أنصفت في الحكم).

إلا أننا نلمس حالة أخرى عبر الشاعر الجاهلي فيها عن جزعه على الفقيد ورسم صوراً رائعة عبر فيها عن جزعه عند الديار والقبور ، داعياً لها بالسقايا كما في عينية متمم التي رثى بها أخاه[2] ، فضلاً عن وقوفه بها ، وتحيته (إياها كان يردّ بلى الأطلال إلى الدهر او الزمان ، كما في رائية زهير بن أبي سلمى [3]،فجاءت المعاني صادقة عفوية مجسدة هدفاً وضعه الشاعر نصب عينيه لمعالجة موضوعه.ويلاحظ ان موقف البنت في الجاهلية تجاه أسرتها يختلف اختلافاً كبيراً عن موقف الزوجة تجاه زوجها و أسرتها فهي بالرغم من قسوة الظروف الاجتماعية والاقتصادية معها فقد كانت بارة بوالديها و أسرتها عطوفة عليهم تبكيهم في حال موتهم وقد يؤثر فقدان الرجل في البنت او الأخت فيجعلها تفارق كل ملاذ الحياة لترتدي أقسى الثياب الصوفية وهذا مما فعلته الخنساء في حزنها على أخيها صخر الذي قاسمها أموالـه وكان سندها في الملمات وقد بقيت على حزنها الشديد ولبسها للصدار الصوفي إلى ان جاء الإسلام وحرّم ذلك عليها وأبطله [4].

---

[1] شرح ديوانه / 385.

[2] يقول متتم :

سقى اللهُ أرضاً حلّها قبر مالك ذهاب الغوادي المدجنات فأمرعا

مالك ومتمم /112.

[3] يقول زهير :

لمن الدّيار بقنّة الحجر اقوين من حجج ومن دهرِ

لعب الزمان بها وغيرها بعدي سوافي المورالقطرِ

شرح ديوانه /86.

[4] الكامل 1203/3.

وقد تحدث الشعراء الجاهليون عن هذا الموقف من جانب البنت تجاه أهلها فذكروا حزنهنّ وعويلهنّ مع شق جيوبهن وهذا المأتم الإنساني يثير فينا الدموع والألم مرتين أولاهما لأجل الحزن على من مات ومشاركة للنساء في المهن عليه. وثانيهما بسبب الإشفاق والحزن على هؤلاء النسوة لما يصيبن على أنفسهن من العذاب الجسدي الهائل بعد موت المرثي وأضعاف أنفسهن في أقسى الواقف مرارة.

ورائية لبيد تصور لنا شعائر النسوة في الجزع على الفقيد وهي صورة غير مباشرة توضح جزع الشاعر الذي لم يعلنه جهاراً ، وهو ناتج عن طبيعة الحدث الاني الذي قال فيه الشاعر :

فَلَمْ أرْ يوماً كان اكثر باكياً وحسناءَ قامتْ عن طرافٍ مجُوّر
تبلّ خموش الوجهِ كلُ كريمةٍ عوانٌ وبكرٌ تحت قرٍّ مُخدّرِ [1]

وما من شك في ان التحريض على الثار " كان أوقع في النفس وابلغ في اثارة حمية القوم ، لان الرجل يأنف ان يظهر أمام المرأة بمظهر النكس العاجز " [2]

وهذا سبب من الأسباب التي أدت بأغلب الشعراء الى التظاهر بالصبر والتجلد في حين انهم في قمة الجزع والدليل على ذلك الأبيات التي تحمل الآلام الموجعة والتفجع على الفقيد والتي يتخذ فيها الشاعر من النساء قناعاً للتستر ولكن حزنه هذا يخيب ظنه فيكسر هذا القناع ليعلن جزعه المباشر يقول الربيع بن زياد العبسي:

نام الخليّ فما أغمض حار من سيّء النبأ الجليل الساري
من مثله تمسي النساء حواسراً وتقوم معولةً مع الاسحار
من كان مسروراً بمقتل مالك فليأت نسوتنا بنصف نهار

---

[1] شرح ديوانه /51-52.

[2] العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي /632.

قــد كــنّ يخبــأن الوجــوه تســترا ... واليــوم حــين بــدون للنظــار
يجــد النســاء حوســراً يندبنــه ... يضــربن او جههــن بالأحجــار
يخمشـن حـرات الوجـوه علـى امـرىء ... ســهل الخليقــة طيــب الأخبــار
مــا ان ارى فــي قتلــه لــذوي الحجــا ... الا المطــــيّ تُشّــــد بــــالأكوار
ومجنّبــات مــا يــذقن عذوفــةً ... يقــذفن بــالمهرات والامهــار
ومســاعراً صــدأ الحديــد علــيهم ... فكأنمــا طلــي الوجــوه بقــارِ[1]

وفضـلاً عـن بكـاء الجـاهليين لقـتلاهم ، فـان الشـاعر الجـاهلي يعـدد فضـائل القتيـل ويبـالغ فيهـا ، فـالمرثي يبـدو فـي القصـيدة شـجاعاً كريمـاً محافظـاً علـى شـرف القبيلـة وقد خصـه الشـاعر أجمـالاً بكل مظـاهر المـدح كمـا لـو كـان يمـدح حيـاً ،ولكـن بأسلوب فيه آسى ولوعة يتناسب مع ما يوحي به الموت من رهبة وفاجعة ، نتأمل ذلك في رثاء النمر بن تولب لاخوته وجزعه عليهم ، اذ يقول:

بــين البــديّ وبــين برقــة ضــاحكٍ ... غــوث اللهيــف وفــارسٌ مقــدام
ومقــابر بــين الرّســيس وعاقــل ... درســت وفيهــا منجبــون كــرام
جزعــاً جزعــت علــيهم فــدعوتهم ... او يســمعون وكيــف يــدعى الهــام
لا تبعــدوا وغــدا الســلام علــيكم ... وســرى فقــد يتفــرق الأقــوام
فأبيــتُ مســروراً برؤيــة مــن ارى ... فــإذا انتبهــتُ إذا هــي الأحــلامُ[2]

ويركز الشعراء دائماً على إبراز صفات الفقيد ، وخاصة سمة الشجاعة التي حـاول الشـاعر ان يؤكدها بصيغ مختلفة وربما يعود هذا التركيز في الصفات الى رغبة الراثي في ان ترى مكانة مرثيه وأهميته واستحقاقه للحزن والرثاء وتجسيد المرثي

---

[1] شعره /393-394.

[2] شعره/13.غوث اللهيف : الذي يغيث المضطر او محترق القلب (الرسيس:الماء)،(عاقل : العَقْلُ) الحجر والنّهى).

لتلك الصورة المثلى التي احتلت المكانة العليا في وعي الشاعر ما ان وجدت منفذاً حتى برزت مجسدة ردة فعله عندما وضع امام ما كان يحاول تخطيه طيلة حياته ، ومن هنا استمدت هذه الحقيقة والكشف عنها [1].

ولقد شغل فقد الأحبة جزاءاً لا بأس به في شعر دريد بن الصّمة والذي لا يخرج على غيره من شعراء المراثي قبل الإسلام . وكانت بواعث الجزع عنده فقد اخوته جميعاً في حياته ، وكذلك فقد والده وبعض أعمامه في ساحات القتال ، فتفرق دمهم في قبائل العرب " مما أثار في نفسه حسّ الفجيعة والموت وجعله يؤمن بأن قدر القتل قسم لهم ، وكتب عليهم ، فهم بين قتيل وثائر" [2]،ولكن الباعث الأكبر والهم الأعظم هو مقتل أخيه عبد اللهِ الذي جعله يتحسر على فقده وينعى فيه البطولة والجود والنجدة ومن اشهرها مرثيته الدالية ، التي يقول فيها:

دعاني أخي والخيل بيني وبينه ... فلما دعاني لم يجدني بُقعْددِ
فجئتُ أليه والرماح تنوشهُ ... كوقع الّصياحي في النسيج الممدّدِ
وكنت كذات البَوّريعت فاقبلت ... الى جلد من مسكِ سقْبٍ مقعدّدِ
فطاعنت عنه الخيل حتى تنهنهت ... وحتى علاني حالكُ اللونِ اسودِ
فما رمتُ ختى خرقتني رماحهم ... وغوردت اكبو في القنا المتقصّدِ
قتال امرئٍ آسى اخاه بنفسه ... ويعلم ان المرء غيرُ مخلدِ
وغارة بين اليوم والأمس فلتةٍ ... تداركتُها ركضاً بسيد عمرَّدِ[3]

---

[1] ينظر : البناء الفني للقصيدة العربية/63،رؤية جديدة لشعرنا القديم /20، الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام /75.

[2] موسوعة الشعر العربي/575.

[3] ديوانه /48–50 .(بقعدد : الجبان) ،(تنوشه : تناوله) ،(صيصه : شوكة الحائك) (البو : ولد الناقة) ، (ريعت : فزعت) ، (المسك : الجلد) ،(السقب : الذكر من أولاد الإبل) ، (السيد : الذئب) ، (عمرد : الطويل) .

وكثيراً ما كان الألم يعتصر قلوب الشعراء ويملأ نفوسهم أسى وحزناً اثر لحظات الفراق التي يفرضها الدهر بموت صاحب أو حبيب فينهال الشاعر لوماً وتقريعاً على الدهر ، وكان ذلك دافعاً إلى استنفار عاطفة الشاعر التي تتدفق برثاء لأخوة له قاسموه الخير والشر وعايشوه لحظات الفرح والحزن فكيف لا يرثي أصحابه وقد قضوا أياماً طويلة جنباً إلى جنب .

ويتضح فيما تأملناه من دواوين الشعراء الجاهليين ان البكاء كان سلاحاً للشاعر في التعبير عن جزعه على الميت ، وكانت نسبة النساء الجازعات تفوق نسبة النساء الصابرات على فقد الأحبة في حين ان الرجال كانوا اقل جزعاً منهن وهذا يعود إلى طبيعة الشخصية الرجولية القائمة على القوة والصلابة فضلاً عن تحكيم العقل اكثر من العاطفة ، او بعبارة أخرى انهم لم يحاولوا ان يظهروا جزعهم بصورة مباشرة ، على ان بعض الشعراء لم يستطيعوا ان يتمالكوا أنفسهم لشدة الجزع فأشركوا الطبيعة والقوم للبكاء معهم فضلاً عن وقوفهم عند الديار والقبور للتعبير عما تفيض به قلوبهم من أسى موجع . ومن الشعراء الجاهليين من

تناسي كبرياء الرجولة ولم يجد باساً من البكاء من خلال تعداد فضائل المرثي الذي ربما خصه اجمالا بكل مظاهر المدح التأبيني وبأسلوب فيه لوعة وحرقة تتناسبان مع ما يوحي به الموت من خوف ورهبة .

3.الموت ومعضلات الحياة :

الإنسان هو المخلوق الوحيد في الطبيعة الذي يشعر بالخوف والرهبة من الموت ، ولا غرابة في ذلك ، فقد جُبلت طبيعة الحياة الإنسانية على حب الحياة والتعلق بها ، والحق ان مشكلة الحياة والموت أصبحت جزعاً أساسياً في فن الفطرة

الإنسانية (الشعر) . إلا ان اكثر العرب قبل الإسلام عامة ، كانوا يدينون بالوثنية المشبعة بروح المادة والواقعية الملموسة ، مما منعهم من ان يعللوا الأشياء تعليلاً معنوياً يغلب عليه طابع الروحانية والإيمان الغيبي ، لان عقل الجاهلي لا يرى الشعور الداخلي ولا يفهمه إلا بمشهد حسي فمازالت في داخله حواجز تتمثل في العادات الفكرية التي انتقلت أليه من البيئة فحجزت عقله عن الانطلاق من اسر المادة فظلت فكرة البعث والنشور تقابل بالسخرية . [1] وبقيت حياته ميداناً للمشاكل المحلية والقبيلة ، لا تستطيع أن تتفتح لآفاق العقيدة الواضحة والتشريعات الدقيقة والتعاليم العميقة . " مما جعل القلق والخوف من الموت يسيطران على وعي الجاهلي بدرجة كبيرة " [2]، نتأمل ذلك في دالية طرفة بن العبد التي يقول فيها :

لَعمْــركَ مــا أدري وانــيّ لاوجــلٌ أفــي اليــوم اقــدام المنيــة أوغــدِ
فــانْ تــكُ خلفــي لا يفتْهــا ســوادِيَا وانْ تــكُ قــدّامِي أجــدها بمرصــدِ[3]

قدم الشاعر وجهة نظره وخلاصة تفكيره في مشكلة الموت ، بنوع من التعبير الضمني القائم على الاستسلام دون أي طموح او أمل بعالم آخر ، فالشاعر لم يعرف اليقين الديني الذي يتخطى المظهر المادي إلى نوع من الإحساس الروحاني [4]، وربما انعكس فقدان هذا الإحساس الإيماني في شعر بعض الصعاليك على

---

[1] ينظر : الحياة والموت في الشعر العربي في صدر الإسلام والعصر الأموي /5.
[2] الإنسان والزمان في الشعر الجاهلي /10.
[3] ديوانه /150. (الوَجَلُ: الخوف).

[4] لقد اتجه شعراء ما قبل الإسلام اتجاهاً مناقضاً لهذا الاتجاه فكان رثاؤهم لا نفسهم يتضمن الحزن والتغني بالفروسية القائمة على ابرز المزايا الذاتية واعطاء نظرة تأمل ذاتي منبثقة عن حيرة النفس أمام لغز الموت ، فاتخذ طابع الحكمة في معظم نماذجهم والتأسي في البعض الآخر ، وكذلك وصف الشاعر كيفية موته ودفنه وحال من هم حوله. ينظر : شعر اوس بن حجر ورواته الجاهليين /403.

طبيعة جزعهم من الموت فالشاعر الصعلوك تأبط شراً حين يواجه الموت يكون اكبر جزعه من ان تترك جثته لتنهش منها الضباع والطير ولهذا فأنه يتوعدها بأنها ستنهش سماً ناقعاً وليس لحماً يشبعها من الجوع ، فيقول:

ولقـــــد علمْـــــتُ لتعـــــدونّ علـــــي شـــــيمٌ كالحســـــائِلْ
يـــــأكلنَ اوصـــــلاً ولحمـــــ مـــاً كالشـــكاعي غيـــر جـــادِل
يـــــاطيْرُ كُلْـــــن فـــــإنّني ســـــمٌ لكـــــنَّ وذُو دغـــــاول[1]

فطبيعة حياة الصعلكة جعلته على يقين من حدوث هذا الأمر وادت إلى تمكن هذه الفكرة من وعيه، فظلت تفرض وجودها على أبعاد هذا النموذج الرثائي[2].

وما كان ذلك الا خزيناً من العواطف كبتت في داخله ، منعه حزمه وآباؤه عن التصريح بها مباشرة ، فجاءت هذه الأبيات ومضة عبر من خلالها عما بداخله بل أنها ترددت في نصوص أخرى له يصف فيها الوحوش التي ستنهش جثته منها قوله:

فزحـــزت عـــنهم او تجئنـــي منيتـــي بغبـــراء او عرفـــاء تغـــدو الـــدفائنا
كـــأني أراهـــا المـــوت –لادّردّرهـــا– إذا امكنـــت أنيابهـــا والبراثنـــا
وقالـــت لأخـــرى خلفهـــا وبناتهـــا حتـــوف تنقِّـــي مُـــخّ مـــن كـــان واهنـــا
أخـــاليج ورّادٌ علـــى ذي محافـــلٍ إذا نزعـــوا مـــدَّوا الـــدلاءَ الشـــواطنِا[3]

---

[1] ديوانه /195. (شيم :سود) ، (الحسائل : جماعة البقر) ، (غير جادل : ليس غليظ) (الشكاعي نبت ، دغاول: دواهي) .

[2] ينظر : الطبيعة في الشعر الجاهلي /301–303.

[3] ديوانه /217. البراثن : من السباع والطير كالأصابع من الإنسان والمخلب ظفر البُرثُنُ اخاليج : السريع ، الدلاء : جمع دلو . الشواطنا : الحبال ، زحزحت عنهم : هربت الغبراء : انثى الذئب ، عرفاء : الضبع.

لقد عبر الشاعر عن مشاعر دفينة ، تنم عن الكثير من المعاني مشوبة بالألم والجزع مما سيكون بعد الموت بل من الجزع من الموت نفسه . وان إحساس الإنسان بالزمن يرتبط بإحساسه بالفناء ، والذي يزيد من قسوة هذا الإحساس وحدته هو ان الإنسان يموت ويبقى بعده الوجود مستمراً.

ويطلق امرؤ القيس لفظة (الهلاك) على الموت إمعاناً منه في التعبير عن جزعه ولا سيما عند ما حانت منيته في دار الغربة فقال في داليته.

فلــو أنــيّ هلكــتُ بــدار قــومي لقلــت المــوت حــقّ لا خلــودا
ولكنــي هلكــتُ بــأرض قــومٍ بعيــد مــن ديــاركُمْ بعيــدا
أعــالجُ ملــك قيصــر كــلَّ يــومٍ واجــدرُ بالمنيــةِ ان تعــودا[1]

وما كان هذا الا خوفاً دفيناً عبر عنه الشاعر وهو يواجه الموت بعيداً عن أهله ودياره ، فرسم هذه الصورة الصادقة والنابعة من قلب مليء بالقلق والفزع حتى ان صورة الفزع من الموت لتتردد في أشعار الجاهلية وعلى الشاعر ان يكون مستوعباً ذلك الكم الهائل من الانفعالات المختلفة التي وقعت في ذاته وعبر عن خوفه منها . وان كان بصورة غير مباشرة ، الا ان الموت محتمٌ وما من سبيل الى ردعه.

وهنالك قصائد رثى الشعراء بها أنفسهم ومنها يائية افنون التغلبي الذي سمع كاهناً يقول له : تموت في (الآهة) . فكان يسأل عن هذا الموضع ليتجنب نزوله ، حتى كان في قافلة الى الشام فضلوا الطريق ، ثم ارتفع لهم على البعد بدوي فسألوه ، فقال لهم:تسلكون هذا الدرب حتى تكونوا في الآهة . ثم يكون الدرب ميسوراً الى الشام ، فآبى افنون ان ينزل عن ناقته لعله يقي نفسه شر النبوءة فلما كانت الناقة ترتعي من عشب الأرض علقت أفعى بمشفرها ، ففزعت فرمتها ، فوقعت على فخذه

---

[1] ديوانه /213.

فلسعته ، فسقط عن ظهرها ليواجه المصير المحتوم ، فلما أحس بدنو الموت رثى نفسه في أبيات قال فيها[1].

ألا لست في شيءً فروحاً مُعَاوياً ولا المُشْفعاتْ اذْ تبعْنَ الحوازيا
فلا خير فيما يكذب المرءُ نفسه وتقوالهِ للشيء ياليت ذاليا
فطأ مغْرضاً ان الحتوفَ كثيرةٌ وانك لا تُبقِى بمالك باقيا
لعمرك ما يَدْري امرؤ كيف يتّقى إذا هو لم يجعلْ له الله واقيا
كفى حزناً ان يرحل الركبُ غدوةً وأصبح في أعلى إلاهة ثاويا[2]

وتمتزج العبرة والحسرة في رثاء النفس قبل الموت مع التأكيد ان قدر الموت أقوى من جهد الإنسان . فالموت وهم لابد ان يتحول الى حقيقة مهما حاول الإنسان الهرب منه.

فالموت مفهوم مجرد حقاً ، ولكنه حقيقة مادية وفعل واقعي ، شانه في ذلك شأن مفاهيم أخرى مجردة كالخوف من الوحدة ، او التقدم في العمر ، او غيرها مما يمكن ان يؤثر فينا ونخشاه ، ولكن الخوف يزول بإحدى طريقتين أما بالهرب من الخطر وأما بالتغلب عليه [3].

فإذا طال عمر الإنسان انتفت قسمة الإحساس به ، لذلك ملّ المعمرون عمرهم الطويل ، اذ عاشوا غير زمانهم فغادرهم جل ناسهم ، حتى أمست حياتهم بلا أمل طلبوا الموت النابع من البرم بحياة الهرم، فأخذ الشعراء يشكون من حياة لم يعد لها قيمة مليئة بالسقم والأوجاع فهذا النمر بن تولب يفصح عن جزعه قائلاً

---

[1] ينظر : دراسات نقدية في الأدب العربي/230.

[2] المفضليات 939/2.

الحوازيا: الكواهن ،الآهة : اسم موضع بالجزيرة.

[3] ينظر : قلق الموت /39 ، القلق بلباس العصر الحاضر /14.

ألا يـــــاليتني حجـــــرٌ بـــــوادٍ أقـــام وليـــت أمـــي لـــم تلـــدني
الا ياحـــــادِ ويحـــــك لا تلمنـــــي ونفســـــك لا تضـــــيعِّها ودعنـــــي
فـــإني قـــد لبســـت العـــيش حتـــى مللـــتُ مـــن الحيـــاة فقلـــتُ قـــدني
ولاقيـــــت الخيـــــور واخطـــــأتني شـــرور جمّـــةُ وعلـــوتُ قرنـــي[1]

أنها أبيات نابعة من ضجر شاعر ملّ عيشه وسئم حياته واراد الكشف عن الخوالج النفسية التي لا يستجيب لها استجابة مادية متمثلة بالبكاء.

ويبدو ان هذا وليد لحادث آني حفز الشاعر على اتخاذ هذا الاتجاه المباشر في تناول المعاني مجسدة بحد ذاتها مكانة الشاعر فكان وصفه الصريح نتيجة صادقه لما كان يعانيه ، طارحاً فكرة اتسمت بأهميتها في الحياة العربية .

ومن الشعراء من طال العمر بهم منهم مجمّع بن هلال الذي عبر عن سأمه من العيش ، قائلاً:

انْ أمُسْـى شـيخاً قـد بليـتُ فطالمـا عَمْـرتُ ، ولكـن لارى العـيش ينفـعُ
مضـتْ مائـةٌ مـن مولـدي فنضـيتها وعشـرٌ وخمْـس بعـد ذاك وأرْبـعُ[2]

ومن الطبيعي ان تؤدي مثل هذه الأبيات معاني الخوف والقلق التي تنبع في نفس الشاعر فاختلطت فيها الشكوى والألم على ان الشاعر المبتلى بأمراض الشيخوخة يستبطئ الموت ويتألم من ضعفه وعجزه ..... وذلك ما عبر عنه عبيد بن الأبرص حين وصف الحياة بأنها عذاب ، اذ يقول:

والمـــرءُ مـــا عـــاش فـــي تكـــذيب طـــول الحيـــاةِ لـــهُ تعـــذيب[3]

---

[1] شعره /118.
[2] المعمرون والوصايا/41.
[3] ديوانه/15.

وكان هذا ناتجاً عن عمق الاتجاه النفسي المستوعب لطبيعة التجربة الآنية التي دعت الشاعر إلى الجزع وهو على يقين بان الموت مصيره أينما كان وان لا نجاة من منّية التي يستسلم لها خلاصاً من الحياة التي سئمها ومل البقاء فيها.

وان مثل هذه الأبيات تحمل في طياتها الحكمة والموعظة ، فقد جاءت الحكمة الجاهلية على قدر كبير من النضج العقلي ، فقد أفادوا من خبرة الماضين وشهد بعضهم حياة طويلة حافلة ، رأوا أجيالاً تمضي وأخرى تنشأ ، وأصابوا من خير الحياة وشرها ، وذا قوا حلوها ومرها ، وكان من هؤلاء الشعراء الجاهليين من نظروا اعتبر بالماضين ، وتأمل في مصير الناس وغاية الحياة ، ولجأوا أخيراً الى سبحانه وتعالى ، كما فعل لبيد وزهير ، ومنهم من يقص قصصاً دينياً كأمية بن أبي الصلت ، ومنهم من يئس وتشاءم وبكى كعدي بن زيد ، ومنهم من انصرف إلى الحياة يلهو فيها ويعيش ليومه بل لساعته كطرفة بن العبد[1].

وليس غريباً ان يبدأ زهير حكمه هذه بالتعبير عن السأم ، والتبرم بأعباء الحياة ،التي ذاقها وخبرها ، وعاش في خضمها ، ثم امتد به العمر فزهدها ، وانصرف عنها ، فجاءت حكمه مشوبة بالألم والتفجع ووليدة لذلك الظرف ، مستمدة من جزعه ، ومعبرة عن الكثير من المعاني العميقة والعواطف المتدفقة اذ يقول :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش ثمانين حولاً-لا أبالك - يَسْأم
واعلم ما في اليوم وألامس قبلهُ ولكنني عن عِلْمِ ما في غدٍ عَمِّ[2]

فمن عاش هذا العمر الطويل ، وخبر الحياة خبرة زهير وتكشف له خفاياها ووقف على مدلولاتها وصراعاتها ، فأنه يملها كما ملها زهير ، الذي ذاق الحياة وبلاها وعرف مكنونها وحقائقها .

ولما طال العمر بالمستوغر بن ربيعة وملّ الحياة عبر عن شعور مر تملكه في حياته ورسم فيها الصورة المثلى في تهويل المصيبة ، فقال :

---

[1] ينظر : الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه/288.

[2] ديوانه /30.

ولقد سئمتُ من الحياة وطولها	وعمرتُ من عدد السنين مئينا
مائةٌ حدتها بعدها مائتان لي	وعمرتُ من عدد الشهور سنيناً
هل ما بقي الا كما قد فاتنا	يــوَمٌ يمُرُّ وليلةٌ تحدونا [1]

فكانت الحكمة ناتجة من جزع الشاعر من الحياة والضيق بها طيلة هذه السنين حتى أطلقها صرخة واحدة معبرة عما كبت في داخله من مواجع ، فجاءت بعد تجربة مهدت لها وضمن تدرج فني ساق الأحداث ليتمركز عندها .....

نستشف من ذلك ان الموت والحياة من المثيرات الذاتية التي لم يستطيع الشاعر الجاهلي ان يتغلب عليهما أو يواجهها ، فالقلق والخوف يسيطران عليه فالخوف كان ناتجاً من مصيره المجهول بعد الموت ، والقلق كان قلقاً من حياته البائسة المليئة بالمآسي. الا اننا نجد جزع الشاعر الجاهلي من الموت اقل بكثير من صبره عليه [2] ،فقد كان يجد في الموت خلاصاً من حياة الذّل والمهانة ولاسيما عندما يتقدم العمر به وتلازمه امراض الشيخوخة والهرم .

4. عقدة النقص :

لا تقتصر الهموم على فئة من الشعراء دون فئة ، بيد ان تأثير الهموم أقوى وكثرتها تترى على من هم اكثر من غيرهم قوة وبأساً وعقلاً ، فكل شيء في الحياة لديهم يصير هماً وقلقاً لحساسيتهم المفرطة ، وتلك الهموم أناىء ما تكون عن ذوي النفوس الضعيفة التي لا تجد الا الاستكانة. والشعراء أناس مفرطوا الحساسية

---

[1] المعمرون والوصايا/120. وقال أصحاب الأنساب عاش المستوغر (320) سنة ، فأدرك الآلام او كاد يدركه . (المعمرون والوصايا /12.)

[2] ينظر : القائمة (1) .

يستثيرهم ما قد لا يستثير سواهم من الناس ومن هنا فان الإحساس بالنقص كان يدمي قلوبهم ويفجر إحساسهم بالألم وهكذا تركت العبودية وسواد اللون في الشعراء السود أثراً سلبياً تمخض عن حالات جزع شديد ومن هؤلاء الشعراء سحيم عبد بني الحسحاس الذي تركت حياته القلقة المضطربة ونظرة المجتمع أليه بوصفه عبداً أسود آثارها ولعل اشد ما كان يرمضه حرمانه من العلاقة الطبيعية بالمرأة ، فيقول:

فلـــو كنـــتُ ورداً لونـــه لعشـــقنني ولكـــن ربّـــي شـــانني بســـواديا[1]

ولسحيم في شعره ما يدل على جزعه وألمه لما هو عليه من سواد البشرة [2]، وان ما ورد في ديوانه من قصائد غزلية يتغنى فيها ببياض بشرة الحبيبة الا محاولة التعويض التي اراد من خلالها ان يعبر عن مأساته وفزعه ومعاناته ...

ولقد عانى السليك من عقدة اللون والسواد الذي اكتسبه من أمة ، فقد كان دائم التعرض للسخرية والاستهزاء مما افقده توازنه الاجتماعي ، فكان يشكو ويتألم لما يصدر من زوجته ومن الناس من استهزاء لسواد لونه ولفقره ، فما كان منه الا ان يقول جازعاً في داليته:

هَزِئـــتْ أمامـــةُ ان رأتْ بـــي رقّـــةً وفمـــاً بـــه فَقَـــمٌ وجلـــدٌ أســـودُ[3]

وقد عاود الشاعر إعلان جزعه من لونه وفقره وما كان يكبت في داخله من خوالج نفسية آلت إلى تحطيم قدرته على مواجهة التحدي المفروض عليه فشكا في مقطوعة له ما تعانيه خالته وبنات جنسه من ضيم وتنقل من مكان الى اخر ، وعبر عن عذابهن وعذابه و عجزه عن إنقاذهن لفقره وقلة ماله :

أشـــاب الـــرأس أنـــي كُـــلَّ يـــوم أرى لـــي خالـــةً وســـط الرِّحـــالِ
يشـــقُّ علـــيّ ان يلقـــين ضـــيماً ويعجـــز عـــن تَخَلُّصِـــهِنَّ مـــالي[1]

---

[1] ديوانه /26.

[2] ينظر : ديوانه /44،34،27،18.

[3] أخباره وشعره /50.

وان حرمان نعمة البصر عند الأسود بن يعفر آلمه نفسياً وأحس بظلام الحياة وقد كان فيما سبق يهدي الآخرين ويقودهم ، فأسقط معاناته على حسن المقادة ، وفقد توازنه النفسي فعبر عن مللـه وقلة صبره ، بقوله:

قد كنتُ اهدي ولا أُهدى فعلمني حُسْنُ المقادة أني أفقد البصرا
أمشي واقبعُ جُنّاباً ليهديني ان الجنيبة مما يجشمُ الغدرا[2]

على ان أعلى مراتب الجزع ان يهجوا الشاعر نفسه وذلك لدمامة خلقته ولقبح شكله من جراء ما يلاقيه من الاستهزاء والسخرية من الآخرين ، وذلك ما جاء في لامية الحطيئة اذ يقول:

أرى لـيّ وَجْهاً شوّه اللهُ خَلْقَهُ فَقُبّح من وَجهٍ وقبّحٍ حامِلُه[3]

ومن خلال هذا المنفذ الضيق يستطيع الشاعر ان يؤكد مقدرته على تطويع غرض الهجاء للتعبير عن جزعه وللتعبير عن ذلك الخضم من المعاناة النفسية المتولدة عن طبيعة حياته . ويشتد ألم الحطيئة ذلك الألم الدفين من جراء النسب المتداخل بين القبائل وتعاوده الأحزان فيطلق لسانه في الهجاء المقذع الذي عُرِفَ به ، فيقول :

تقولُ لي الضراءُ لست لواحدٍ ولا اثنين فانظُر كيف شركُ اولئكما
وانت امرءٌ تبغي أباً قد ضللتهُ هبلت ألمّا تستفيق من ضلالكما[4]

ومن خلال ما قاله الشعراء من أبيات تتعلق بجزعهم من عقدة النقص نستطيع القول ان ما جاء من هذه الأبيات كان تعبيراً عن جزعهم من اللون الأسود

---

(1) أخباره وشعره /62.

(2) الأسود بن يعفر /37. (الجنيب) : الغريب . (جشم الأمر وتجشمه أي تكلّفه على مشقّة.

(3) ديوانه /282.

(4) ديوانه /276.

الذي اصبح لصيقاً بهم وجعلهم يعانون من السخرية والاستهزاء فضلاً عن عقد أخرى تتعلق بالفقر وفقدان البصر ودمامة الشكل والنسب المتداخل وهي عقد نفسية عانى منها الشعراء فجاءت اغلب الأبيات شكوى وهجاء نتيجة طبيعية لما يعانونه ويحسون به من آلام .

ثانياً : المثير الاجتماعي :

بعد ان تناولنا صور صبر الشاعر الجاهلي على المثيرات الاجتماعية في الفصل السابق وكيف كان يحاول ضبط نفسه وتمالك أعصابه إزاء هذه المثيرات وجدت ان هناك حالات جزع أعرب الشاعر عنها ولم يستطيع الثبات والمقاومة اتجاهها مما انعكس على الشعر لتصبح لدينا ظاهرة تقاطع ظاهرة الصبر ، انبثقت من الشعر الجاهلي وعبرت عن حالة الخوف والهلع التي انتابت الجاهلي وهو عاجز عن مواجهة مثل هذه المثيرات ، ومن أهم هذه المثيرات :

1- **العلاقات الأسرية** :

2- **الحرب :**

3-القبيلة:

1.العلاقات الأسرية:

أ. المرأة:

لقد اعتمد الشاعر في تشكيله للمقومات الغزلية بالدرجة الأولى على الحيوية الطبيعية للمرأة وما تبعثه في نفسه من محفزات تأخذ موضعها في نمط الطرح والمعالجة فكان لعملية التجاوب الفعلي بين المرأة وما تمثله من دوافع غريزية نفسية وبين التجارب الاجتماعية للشاعر ، العماد الأساس لقيام غرض الغزل ، الذي يعدُّ وليداً لتلك العاطفة التي تأصلت في ذات الشاعر من خلال نظرته تجاه المرأة ، فكانت منطلقاته مرتبطة بحاجة النفس الإنسانية المعبرة عن ألم الشوق وفرط الصابة.

فقد اعزّ الرجل المرأة ، وأحبها وعبر عن حبها في شعره ، وان الدلال هو الفن الذي برعت فيه النساء ، ومن ألوانه تغير الطباع ، وخلف المواعيد والهجران ، لأن الصلة بين الشاعر والمرأة تأخذ معنى عميقاً من خلال تصميم على خلق حيز يعلن خلاله عن جزعه تجاه سوء معاملة المرأة له وما يعانيه منها من صدٍّ وهجران ، ولنتأمل دالية المثقب العبدي التي كانت تعبيراً عن معاناته وألمه الدفين من بخل الحبيبة ، حتى قال جازعاً:

الا ان هنـــداً أمْـــسِ ربّ جديـــدها وضـنّتْ ومـا كـان المتـاع يؤودهـا
فلـو أنهـا مـن قبـلُ جـادتْ لنـا بـه علـى العهـدِ اذْ تصـطادُني وأصـيدُها
ولكنهـــا ممـــا تُمِـــيطَ بُودِّهـــا بشاشـــةُ أدنـــى خُلّـــةٍ تســـتعيدُها[1]

ولم يمر بالأدب العربي أي عصر من العصور الا وكان الحب فيه ينبوعاً من ينابيعه ، وكانت اكثر قصائد الشعر الجاهلي تقريباً تفتتح بذكر حبيبة ، تتغنى

---

[1] ديوانه /83-85،(جديدها): يريد جديد وصلها ، (ضنّت:بخلت) ، (المتاع: الوداع)، (يؤودها : يثقلها) ، (تميط: تميل).

باسمها او تصف منازلها او يقف صاحبها لوداعها او يبكي لفراقها ...الخ فكانت الشكوى نتيجة طبيعية عبر الشاعر من خلالها عن تبرمه من فعل الحبيبة فضلاً عن جزعه من ضعفه أمامها ، ففي شعر قيس بن الحدادية ما يدل على انه كان يعاني من واقع صدود الحبيبة الذي كان يجرحه والفراق الذي يحرمه من بقائها والفوز بقربها ، لذلك نجد الشكوى والجزع من تمنّع المرأة واضحاً في شعره:

أجِدّك إن نُعْمٌ نأت أنت جازعُ قد اقتربت لو أنَّ ذلك نافعُ
قد اقتربتْ لو أنّ في قرب دارها نوالاً ولكن كل من ضنّ مانعُ
وقد جاورتنا في شهورٍ كثيرةٍ فما نوّلت والله راء وسامع[1]

ومما تجدر ملاحظته ان كثرة المعاني التي ضمنها الشاعر في هذا النص تعود إلى أسباب متعددة منها القدرة التي يتمتع بها في تمكنه من احتواء الانفعال والتعبير عنه بالصيغة او الصورة التي يؤديها الجزع على أتم وجه وبالدقة التي ابتغاها ، حتى انه ليعزو الشيب الذي غزا رأسه الى حرمانه ممن يحب .

وانّ الذي أملّت من امّ مالكٍ أشاب قذالي واستهام فؤاديا[2]

وكثيراً ما شكا الشعراء من تمنع المحبوبات وتعففهن وتعاليهن وعلى الأرجح ان هذه المعالجة كانت نتيجة لحادث واقعي حدث للشاعر ، فأتاح له قدرة حفزته على إظهار الجزع ، واستثمار الموقف مبرزاً من خلاله عاطفة الألم يقول بشامة بن عمرو:

وما كان اكثر ما نولت من القول الا صفاحاً وقيلا[3]

---

[1] عشرة شعراء مقلون/37.
[2] م.ن/44.
[3] المفضليات 54/1.

ويبدو ان الشاعر الجاهلي استوعب عظم معاناته من المرأة متخذاً إياها نقطة الانطلاق للخوض في جميع أبعاد تجربته المعبرة عن مللـه ليس من بخل الحبيبة فحسب بل من إخلافها المواعيد أيضاً وقد سئم الشعراء من هذه الظاهرة التي هي طبيعة من طبائع النساء .

وقد برع الشعراء في رسم صورة الجزع بأدق التفاصيل واصفين وعودهن بالأباطيل ، مستخدمين ألفاظاً حاملة لمعانٍ دالة على ضيق الصدر عن تحمل ما يبدو من المرأة ومن دلالها . فهناك نوع من الشكوى الضمينة الناتجة عن شعور ذاتي انبثق من تجربة عبر فيها الشاعر عن جزعه ، ورحيل الحبيبة من المناظر المؤلمة والمواقف الصعبة التي يفتضح فيها جزع الشاعر من هذا الفراق ، فلست ترى واحداً عرف قلبه الحب ثم لم يعرف الدمع ، ولا يكاد يعرف الشعر العربي أمراً أقدم من بكاء الأحباب ، ولم يطق بعضهم صبراً ، فرحل وراء الحبيبة حتى اضجر ناقته لكثرة ترحاله عليها فكأنها في حالة الذي لو تكلم لنطق بهذا القول وشكا حاله ، يقول المثقب العبدي:

إذا مـــا قمْـــتُ أرحلهـــا بليـــلٍ تـــأوّهُ آهـــة الرجـــلِ الحـــزينِ
تقـــولُ إذا درأت لهـــا وضـــيني أهـــذا دينـــهُ أبـــداً ودينـــي؟
أكـــلَّ الـــدّهر حـــلٌ وارتحـــالُ أمـــا يُبقـــي علـــيّ ومـــا يقينـــي؟[1]

وما كان هذا التتبع الدقيق والوصف المسهب ، الذي اتجه أليه الشاعر الا مجالاً اتخذه للتعبير عن الحالة النفسية التي تدفقت فيها مشاعر عبرت عن جزعه وبأسه ، موضحاً تفاصيل المعالجة الموضوعية والمرتبطة بظرف القول ، وهذا ما نراه جلياً في قول عمرو بن قميئة :

فلمـــا نـــأوا ســـبقت عبرتـــي وأذرتْ لهـــا بَعْـــدَ ســـجلٍ ســـجالا[2]

---

[1] ديوانه /194-198. (درأت : دفعته)، (الوضين : للرجل بمنزله الحزام السراج).

[2] ديوانه /56.

ويبدو لنا واضحاً ان الدموع والبكاء كان لهما نصيبُ في حياة الشعراء ، وكان لهما دور بارز في التعبير عن ردود الفعل الإنساني التي عبرت عن عمق التأثير ، مكونة لدى الشاعر اتجاهاً محدداً في وضع التفاصيل الفنية والموضوعية ولشدة ألم الشاعر لهذا الفراق أجاد في صوغ الأسلوب المعبر والمؤثر في الملتقي ، وكان امرؤ القيس فيما يقول الرواة – أول الباكين في معلقته ، ولم يبك فتى كندة في الطلول وحدها بل بكى خلف ظعائن الأحباب أيضاً:

فعيناكَ غرْبا جدولٍ في مُفاضةٍ كمرِّ الخليج في صفيحٍ مُصَّوب[1]

وقد برع الشاعر الجاهلي في تصوير جزعه من خلال وصف الرحلة والفراق ذلك لان قلبه ما زال مقيداً مع الحبيبة ، حتى ان بعض الشعراء صور الفراق هلاكاً كما فعل اوس بن حجر في لاميته [2]في حين صور بشر بن ابي خازم حيرته وجزعه للفراق بصورة العمى الذي يصيب صاحبه بالذهول والحيرة [3]على ان الأعشى صوره في الفؤاد بصدع الزجاج[4] ، في حين ان حسان بن ثابت قد أيقن ان

---

[1] ديوانه /44.(غربان : دلوّان) ،(الصفيح : الحجارة)،(المصوب: المنحدر).

[2] ديوانه /20.

وكان له الحين ألْمتاح حمولة وكل امرىء رهن بما قد تحملا

[3] ديوانه /179.

فظللت من فرط الصبابة والهوى أعْمَى آلجليّةِ مثل فِعْلِ الاهيم

(الجلية : الرأي الواضح) ، (الاهيم : الحائر على وجهه من عشق وغيره) .

[4] ديوانه /317.

تنابشتها لم تكن خُلّةً ولمْ يعلمِ الناسُ اسرارها
فبانت وقد اورثت في الفؤا دِ صدعاً يخالطُ عتّارها
كصدع الزجاجةِ ما يستطيـ ـعُ من كان يشعبُ تجبارها

شيبه كان بسبب رحيل الحبيبة وقومها[1]، كل هذه الصور كانت تعبيراً عن جزع الشاعر لفقد الحياة الهادئة المستقرة التي تمثلها المرأة ونحن نجد ان المعاني قد جاءت متسمة ببساطتها وصدقها وبعدها عن الافحاش متخذة من الوصف عماداً لها ، معبرة عن الحالة النفسية التي يمليها جزع الشاعر لإحساسه بوطأة الفراق وما يسببه من لوعة وحرمان .

وربما عبر الشاعر عن جزعه من الواقع الذي تفرضه الام المسيئة على أولادها وقد شكلت هذه الإساءة المعاناة الكبرى للشاعر الحطيئة فما كان منه الا ان انفجر بقوله لأمه:

جـــزاكِ الله شـــرّاً مـــن عجـــوز ولقّـــاكِ العقُـــوقَ مـــن البنـــينِ
فقـــدْ سُوِّسْـــتِ أمـــر بنيـــك حتـــى تـــــركتهمُ أدق مـــــن الطّحـــــينِ
لســـانكِ مبـــردٌ لـــم يُبْـــقِ شـــيئاً ودرّكِ درُّ جاذبـــــــةً دهـــــــينِ
وإن تُخْلَـــى وامـــرك لا تصـــوني بمُشـــــتدٍّ قـــــواهُ ولا متـــــينِ[2]

فالشاعر نقل لنا ادق التفاصيل التي عكسها لحظات انفعاله الذاتية والاجتماعية القاسية ، وما عاناه من واقعه فلم ير الا التنفيس عن تلك الالام التي تجلت فيها الانفعالات الصدقة ، فكان ان عاش جازعاً من عيون اقرب الناس أليه متخذاً من الهجاء أسلوباً للتعبير عن جزعه المستمر من المرأة سواء أكانت أماً أم زوجة ، فهو يقول هاجياً زوجته :

أطـــوّفُ مـــا أطـــوّفُ ثـــم آوي إلـــى بيـــت قعيدتـــه لكـــاعِ[1]

---

[1] ديوانه /12.

وأيقنـت لمـا قـوّض الحـيّ خـيمهم بروعـات بـينٍ يتـرك الـرأس أشـيبا

[2] ديوانه /278.(سوست : من السياسة ، أي قلدوكِ أمرهم ، فأذللتهم وأفسدتهم وتركت أمرهم ضعيفاً من سياستك . (الجاذبة : التي قد رفعت لبنها). الدّهين : القليلة اللبن فأراد ان خيرك قليل.

وأبو خراش تحمل اللوم من المرأة ، وعانى من جحودها وتنكرها له عندما لحقه الفقر فراحت تستبيح شتمه وتؤثر فراقه ، وهذا الجحود منها صَعّدَ انفعال أبي خراش فتمنى لها العمى لأنها قليلة الوفاء:

أبعد بلائي ضنِّتِ البيت من عمىً تُحِبُّ فراقي أو يحلَّ لها شتمي[2]

ويحز في نفس أبي خراش هذا الجحود والتنكر ، وتؤلمه الكلمات القاسية التي واجهته بها عند ما رأت هزال جسمه وضعفه أحجمت عنه وقالت : لولاك لزففت إلى رجل عتي ، ويسقط في يد أبي خراش فلا يدري بماذا يجيبها سوى ان يذكرها بأنها كانت حرة في اختيارها ، ولم يفرض عليها قبوله وتفعل هذه الحال في نفسه فعلها فينطلق معبراً عما يعانيه ، قائلاً :

رأت رجلاً قد لوّحتْهُ مخامِصُ وطافتْ برنّانِ المعدّين ذي شحمِ
غذِيَّ لقاحٍ لا يزالُ كأنّهُ حميتٌ بديغٍ عظمهُ غير ذي حجمِ
تقول فلولا أنت أُنكحْتُ سيّدا أُزَفُّ أليه أو حُمِلتُ على قرْمِ
لعمري لقد مُلّكْتُ أمركِ حِقبةً زماناً فهلا مِسْتِ في العقمِ والرقمِ[3]

---

[1] ديوانه /280. (قعيدة البيت : ربة البيت) ، (اللكيعة : اللئيمة).

[2] شرح اشعار الهذليين 6/3.

[3] م.ن 11/3-14.

ب.**الأهل والأقارب:**

لقد تمخضت العلاقات الأسرية أحياناً عن حالات أوجبت على الشاعر النفور منها والجزع من عقباها ، فمنها جزع الأم من ولدها الذي كانت ترتجي النفع منه بعد الشباب فخيب أملها فيه بدافع من زوجته ، تقول ام ثواب في ابن عقها ، وهي جازعة من سوء معاملته :

أنشا يمزق أثوابي يؤدبني أبعد شيبي عندي يبتغي الأدبا
أنّى لأبصر في ترجيل لمته وخط لحيته في خده عجبا
قالت له عرسه يوماً لتسمعني مهلا فان لنا في امنا اربا
ولو رأتني في نار مسعرة ثم استطاعت لزادت فوقها حطبا[1]

أنها صورة صادرة من قلب حزين محمل بالألم ومعبرة عن تجربة قاسية بعثت الشاعر على تصوير شدة تألمها لأنها قد تُحرم في بعض الأحيان من خير ولدها ، فتنال منه غلظة وخشونة وهذا ما يؤلمها اشد الإيلام .

وقد عبرت ام ناشرة عن جزعها لما قدم عليه ابنها حين قتل همام بن مرة فأظهرت اسفها لمقتل همام الذي كان كثير الإطعام للفقراء والمحتاجين ، وجزعها من ابنها لسوء فعلته ، فقالت متألمة من ذلك :

ألا ضيَّع الأيتام طعنةُ ناشرة أناشرَ لا زالتْ يمينُك واترة
قتلت رئيس الناسِ بعد رئيسِهمْ كليبٍ ولم تشكُرْ وإنّي لشاكرة[2]

---

[1] ديوان الحماسة /213 . ولم اقف على حياة ام ثواب الا ان د . علي الهاشمي ذكرها ضمن الشواعر الجاهليات في كتابه (المرأة في الشعر الجاهلي ص211).

[2] شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام /39. ولم اقف على حياتها وذكرها د. علي الهاشمي في كتابه (المرأة في الشعر الجاهلي ص/278).

على ان صلة الرّحم من العوامل المؤثرة في النفس الإنسانية وان الشاعر الذي وقع تحت حرمان البر من ولده كانت صور التعبير لديه مزيجاً من الانفعالات النفسية لان من شأن المحروم ان يكون ضعيفاً ، وهذا الضعف ناتج عن الشعور بالحرمان [1].

قال أمية بن أبي الصلت في لوم ولده والضيق به عندما رأه مقصراً في حقه:

غـــذوتُكَ مولـــوداً وعلتـــك يافعـــاً ... تُعَلُّ بما أُحنـــي عليكَ وتنَهلُ

فلّمـــا بلغـــت السِّـــن والغايـــة التـــي ... أليهـــا مـــدى مـــا كنـــتُ فيـــك أُؤمّـــلُ

جعلـــت جزائـــي غِلظـــةً وفظاظـــةً ... كأنـــك أنـــت المُـــنعِمُ المتفُضِّـــلُ

فليتـــك إذ لـــم تـــرعَ حـــقّ أبـــوتي ... فعلـــت كمـــا الجـــارُ المجـــاور يفعْـــلُ

فـــأوليتني حـــقّ الجـــوار ولـــم تكـــن ... علـــيّ بمـــالٍ دون مالـــكِ تَبْخـــلُ

زعمـــتَ بـــأني قـــد كِبـــرتُ وعبتنـــي ... ولم يمضِ ليْ في السِّن سِتون كُمّلُ

وســـميتني بآســـم المفنّـــد رأيـــه ... وفـــي رأيـــك التفنيـــدُ لـــو كنـــتَ تعقـــلُ

وانْ كنـــتَ شـــيئاً فـــالتمس لـــك والـــداً ... ابـــاً لـــك تـــدعوه أبـــاً حـــين تُســـألُ[2]

لقد كانت الأبيات صورة صادقة لمشاعر الشاعر التي أثارها جزعه من ولده ، وهذه الصور والمشاعر لم تملها الرغبات وإنما كانت بدافع الإحساس والشعور الداخلي تجاه الحدث وتعبيراً عنه . ونحن حين نستعرض هذه الأبيات نقف على حس أنساني يصور المأساة في التجربة التي عاشها الشاعر من عقوق ولده بصور رسم الشاعر فيها جزعه وألمه.

وربما واجه الشاعر إساءة ابن العم وازدراءه اياه ففاضت نفسه بالألم بعد أن يئس من محاولات رأب الصدع وإقامة لحمة الدم فكان اليأس باعثاً على المرارة عبر عنها ذو الإصبع العدواني وهو يخاطب ابن عمه :

---

[1] ينظر : الحرمان في الشعر العربي قبل الإسلام /230.

[2] أمية بن أبي الصلت حياته وشعره /354-355-356.

ولي ابن عمٍّ على ما كان من خلقٍ مختلفـــان فاقليـــه ويقلينـــي
ازرى بنـــا أنّنـــا شـــالتْ نعامتُنـــا فخـــالني دونـــه وخلتـــه دونـــي
يـاعمرُو الا تـدع شـتمي ومنقصـتي أضربك حيث تقول الهامـة اسقوني
فـأن تُصْـبكَ مـن الأيـام جِائحـةٌ لـم أبـكِ منـكَ علـى دُنيـا ولا ديـنِ[1]

على ان جزع الشاعر لم يقتصر على الأهل والأقارب فحسب،بل كان يحوم حول الأصدقاء والأصحاب فهو يخرج من دائرة العتاب واللوم ليدخل إلى دائرة الشكوى المؤلمة ..

لنتأمل قول عروة بن الورد وجزعه من أصحابه الذين ظلموه عندما تنكروا لصنيعه معهم في لاميته التي يقول فيها:

الا ان أصـــحاب الكنيـــف وجـــدتهم كمـــا النـــاس لمـــا أخْضَـــبوُا وتموّلـــوا
وأنـــي لمـــدفوعٌ الـــيّ ولاؤهـــم بمـــا وان اذْ نمشـــي واذ نتملمـــل[2]

فمن خلال هذا المنفذ الضيق نستطيع ان نؤكد مقدرة الشاعر على تطويع غرض الشكوى لاستيعاب ذلك الخضم من المعاناة النفسية المتولدة عن طبيعة حياة الشاعر وقد عبر من خلال هذا المنفذ عن الكثير من المشاعر والأفكار التي تراءت له ويلوح ابو كبير الهذلي باللوم لأصحابه ورفاقه الذين ما ان رأوا عجزه وضعف سمعه حتى تحاشوه وقاطعوه كالمقذر على حدِّ قوله :

ونُضـــيتُ ممـــا تعلمـــين فاصـــبحت نفســـي الـــى اخوانهـــا مالَمقْـــذَرِ[3]

---

[1] ديوانه /89.

[2] ديوانه /119.

[3] شرح أشعار الهذليين 1081/3.المقذر : أي ذلك الأمر الذي يستقذر الناس أي يُسْتَقْذَر وهو كالمصدر.

على ان الجزع الأكبر يكون من خلال مقابلة معروف الشاعر بغدر صاحبه وذلك ما عانى منه طرفة بن العبد فعبر عنه بقوله:

فكم صاحبٍ قد كان لي غير منصفٍ إذا جاءه فضلي أتاني جفاؤه[1]

وهكذا نرى ان المرأة – ولاسيما الحبيبة –كانت من أهم بواعث جزع الشاعر لاسيما حينما كانت تتمنع وتخلف المواعيد ، فوشح الشاعر قصائده بالحسرة والبكاء لفراقها ورحيلها عنه ....الا ان هنالك نسبة ضئيلة من جزع الأمهات والأباء على أولادهم فضلاً عن الجزع من الأقارب والأصدقاء ، الا ان هذا الجزع كان ممزوجاً بالعتاب وذلك حفاظاً على صلة القرابة التي حرص الشعراء على دوامها وعدم انقطاعها.

[1] ديوانه /139.

2. الحـــرب :

ومن المثيرات الاجتماعية الأخرى التي ضاق الشاعر بها ذرعاً – الحرب– التي زخراً الشعر الجاهلي بصورها وأعلن الشاعر أحياناً جزعه منها لما تسببه من دمار يلحق بالنساء والكبار والصغار وقد برع الشعراء في تصويرها ذلك التصوير الذي يبعث الخوف والقلق من نتائجها الوخيمة ، حتى قيل عنها بأنها شرٌ كبير لا ينعب به الا طير الشؤم ، ساحتها خطيرة ، وهولها شديد ، وطعمها مرّ وفزعها عظيم ، يغص بها الشيخ المجرب ، وتخلع الأفئدة ، وتطيّر العقول وتسقط الحوامل وتشيب الولدان ، وهي جناية عظمى يصعب الفصل فيها وويلاتها عظيمة وآثارها جسيمة ، تهلك الرجال ، وتترك النساء أيامى والأطفال يتامى ، وتملأ القلوب حسرة ولوعة، وتديم البكاء والعويل ، ولا يقتصر ضررها على جانيها ، بل يُصلى بها كارهوها ، ويتطاير شررها إلى الآمنين الوادعين ويلقي فيها الناس من الشدة ما تنوء به القوى ، وتضعف دون حمله الجبال[1].

وعندما قيل لعنترة : صف لنا الحرب ، قال : " أولها شكوى ، وأوسطها نجوى ، وآخرها بلوى "[2]، ولهذا عبر الشعراء عن جزعهم من الحرب من خلال ما ذكروه من ويلاتها وصورها البشعة التي يغلب عليها طابع الهول والفزع مما تضيق به نفس الشاعر والملتقي معاً ، وخير من عبر عن بشاعة الحرب وأهوالها الشاعر الذي اشتهر بداعية السلم ، زهير بن ابي سلمى الذي حاول معالجة ظاهرة الحرب من خلال تصوير مصائبها وآثارها المادية والنفسية ، بقوله:

وما الحرب الا ما علمتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المرجم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة وتضر إذا ضريتموها فتضرمِ[3]

---

[1] ينظر : شعر الحرب /70.
[2] العقد الفريد 94/1.
[3] ديوانه/18-19.

فالشاعر يحاول تكييف التفاصيل الموضوعية لتثبيت الأسس التي من وجودها يستمد قوته ، وهذا الحشد من الصفات أعطى الشاعر القدرة للتعبير عن جزعه من الحرب.

ولم تكن شهوة الانتقام والثأر لتحجب شرورها ففي كلام العرب ما يدل على معرفتهم بويلاتها وجزعهم منها قال عمرو بن معد يكرب:

الحـــربُ اول مـــا تكـــون فتيـــةً تســـعى بزينتهـــا لكـــل جهـــول
حتـــى إذا حميـــت وشـــب ضـــرامها عـــادت عجـــوزاً غيـــر ذات خليـــل
شـــمطاء جـــزت رأســـها وتنكـــرت مكروهـــــة للشـــــم والتقبيـــــل[1]

فالشاعر ينطلق من الأرضية نفسها التي انطلق منها زهير معبراً عن المعاني ذاتها النابعة من مرارة الواقع .

وربما دفعت شدة جزع الشاعر الجاهلي من الحرب إلى محاولة إيقافها والدعوة الى السلم والصلح ، ولاسيما إذا كانت تجمع بين المتخاصمين قرابة ، ليعيد الى أذهانهم قيمة أواصر القرابة ولقدرة الشعراء الخارقة على تطويع أساليب الكلام استطاعوا ان يطفئوا كثيراً من حروب استعرت او كادت تستعر ، ولعل الأعشى واحدٌ من هؤلاء الشعراء الذين اخذوا على عاتقهم هذه المسؤولية ولا سيما مع أبناء عمومته:

بنـــي عمّنـــا لا تبعثـــوا الحـــرب بيننـــا كـــردّ رجيـــع الـــرفض وارمـــوا الـــى الســـلم
وكونـــوا كمـــا كُنّـــا نكـــون وحـــافظوا علينـــا كمـــا كنـــا نحـــافظ عـــن رُهْـــمِ[2]

ولقد شكل هذا الاتجاه سمة بارزة في إظهار القيم الفخرية والنبيلة فكان الشاعر يشير دائماً أليه عند إدراكه الأهوال . على ان الشاعر الجاهلي اتبع أسلوب

---

[1] ديوانه /353.

[2] ديوانه /355، وينظر : ديثوان زهير بن أبي سلمى/16.

المقارنة بين حياة السلم وحياة الحرب في أشعاره أسلوباً لإقناع الملتقي بالضرر الذي سوف يحيق به جراء الحرب ، يقول قيس بن زهير :

فيا ابني بغيض راجعا السلم تسلما ولا تشمتا الأعداء يفترق الشمل
وان سبيل الحرب وعرٌ مضلةٍ وان سبيل السلم آمنة سهل[1]

على ان جزع الشعراء من الحرب لا يعني انهم كانوا يعبرون عن ضعفهم فقد كان الشاعر الجاهلي يفتخر بكثرة خوضه الحرب فالعصر الجاهلي اشتهر بكثرة حروبه وغزواته فليس من المعقول ان يعلن الشاعر جزعه من خوض المغامرة الا ان جزعه كان مما سيكون عليه الحال بعد الحرب....

ومن هذا المبدأ نجد ان الجزع من الحرب صفة ذمها الشعراء الجاهليون واسندوها إلى أعدائهم موضحين من خلالها ضعف قابلية العدو على المواجهة والاستمرار في خوض غمار الحرب.....

وان الدقة في إيراد المعاني وتكوين الصورة من أروع ما أنجزه الشاعر الجاهلي ، كونهما يجسدان أحد أهم الأقطاب الرئيسية التي بنى منها الأشعر قصيدته ، ويظهر جهد الشاعر من خلال تجاوبه مع الواقع ، معتمداً في ذلك على موهبته الشعرية في معالجة الموضوع ، فنرى بشر بن أبي خازم يقول:

فطارت عامِرُ شتىّ شلالا فما صبرتْ وما حُمِيَ التَبيعُ[2]

وقد اتخذ الشعراء من الجزع سلاحاً لهجاء الأعداء ولاسيما لدى الذين لم يصبروا على نار الحرب مظهرين في الوقت نفسه مقدرتهم على الأقدام في خوض غمارها وكاشفين في الوقت نفسه عن الحالة النفسية المعبرة عن مدى مقتهم للأعداء ، يقول قيس بن الخطيم في بائيته:

---

[1] شعره/46.

[2] ديوانه / 135.

فهـلاً لـدى الحـرب العـوان صـبرتم لـو قمتنـا والبـأس صـعب المراكـبِ[1]

علـى ان جـزع الشـاعر مـن الحـرب لا يخـص خوضـه المعـارك القبليـة ضـد الاخـرين ، بـل ربمـا كانـت هنالـك معـارك فرديـة بـين الشـاعر ومـن يريـد النيـل منـه والشـاعر فـي هذه الحالـة يكثر فـي اشـعاره من التهديد والوعيد ، ومنهـا المواجهـة التـي حصلت بين زيد الخيل وعامر بن الطفيل الذي لم يصبر في المعركة ، وسلم نفسه أسيراً ، ولو كان قد صبر لطعنه طعنة متقدة كالنار[2] وأشار إلى ذلك في داليته:

ولـــو تصـــبر لـــي حتـــى اخالطـــه أســـعرته طعنـــة كالنـــار بالزبـــد[3]

فالشـاعر يسـتمد مـن تجاربـه الخاصـة ، وإحساسـه الفنـي ، وقدرتـه التعبيريـة الملائمـة للمنـاخ النفسـي والموضـوعي أساسـاً فـي صـياغة معانيـة المعبـرة عـن جـزع الآخرين وخوفهم من المعركة ، يقول عنترة متوعداً حصين بن ضمضم المري:

أصـبر حصـين لمـن تركـت بوجهـه أثـــراً فـــأني لا أخالـــك تصـــبر[4]

وقد يتخذ بعض الشعراء من صور الفرار من المعركة تعبيراً عن جزعهم منها ولو بصورة غير مباشرة ولم يكن الفرار الا هرباً وضع الشاعر في حالة اليأس من النجاة متخذاً منها نقطة الانطلاق في صراع متجدد مع الواقع والزمن [5]. وأحاديث الجزع والفرار من الحرب ظاهرة واضحة في بعض أخبار الهذليين ويعلل الأعلم الهذلي فراره من الحرب بسبب خوفه من الموت ، والحرب سبيل الموت فكيف لا يخاف من الحرب وهو يخاف الموت:

لمـــــا رأيـــــت القـــــوم بالـــــ عليـــــاء دون قـــــدي المناصـــــب

---

[1] ديوانه /46.

[2] ينظر : الصبر في شعر الفرسان /12.

[3] ديوانه /168.

[4] ديوانه /327.

[5] ينظر : الزمن عند الشعراء العرب قبل الاسلام /32.

وفريـــت مـــن فـــزع فـــلا ارمـــي ولا ودعـــت صـــاحب
وخشـــيت وقـــع ضـــريبة قـــد جربـــت كـــل التجـــارب
فـــاكون صـــيدهم بهـــا وأصـــير للضـــبع الســـواغب
جـــزراً وللطيـــر المريّـــة والـــذئاب والثعالـــب[1]

على ان كلامنا عن الحرب يقودنا إلى الحديث عن الأسر والسجن وهما من نتاج الحرب ، وشعر الأسر تعبير عن تجربة ألم تعانيها النفس الأسيرة المعذبة حيث ينفث الإنسان الأنفاس الحرى ، وتضيق الرحاب بما وسعت في عينيه فينقلب ماضيه السعيد، وأيامه الجميلة إلى أشواك تدميه ، وتحيل ألوان الحياة إلى سواد قاتم ، ويضحي مكبلاً ذليلاً بعدما كان مثار النقع فوق الرؤوس من صولاته وجولاته ،إذ يستبدل الذل بالعز ،والعبودية بالحرية ، والموت الزؤام بالحياة في استكانة لا يرضاها[2]. انه ليتشبث بالحياة ويحلم بالحرية لممارسة رجولته عبر البطولات التي خاضها ويخوضها في سوح المنازلة. يأتي الأسر نتيجة الحروب والغزوات والوقائع فيلهب مشاعر الشاعر ويثير أحاسيسه ثم يفجر أنات الألم والشكوى في حنايا نفسه ، وتلك النفس التي هوت بعد صعود ، وتجرعت مرارة الذل والبؤس بعد العز والرفعة مما دعا الشاعر عدي بن زيد الى القول وهو في السجن معتذراً للنعمان بن المنذر طالباً منه إطلاق سراحه:

طـــال ذا الليـــل علينـــا فـــآعتكر وكـــأني نـــاذرُ الصّـــبْحِ سَـــمَرْ
مـــن نجـــيّ آلهـــمِّ عنـــدي ثاويـــاً بـــين مـــا أعلـــن منـــه وأُسِـــرّ
وكـــأن الليـــل فيـــه مِثلـــه ولقـــدماً ظُـــنّ بالليـــل آلقصَـــرْ
لـــم أُغـــمِّضَ طولـــه حتـــى أُنقضـــى أتمنـــى لـــو أرى الصُّـــبح جشـــر
شـــئِزٌ جَنبْـــي كـــأني مُهُـــدأُ جعـــل آلقـــين علـــى الـــدّفِّ إبـــرْ
غيـــر مـــا عشـــقٍ ولكـــن طـــارقٌ خلس النّوم وأجـداني السَّهرْ

---

[1] ديوان الهذليين 79/2،78،77.

[2] ينظر : الغربة والحنين في الشعر العربي قبل الإسلام /55.

إذا تـــــاني نبـــــأً مـــــن مـــــنعمٍ	لـم أخُنْه والـذي أعطى آلخبر
ابلـــــغ النعمـــــان عنـــــي مألكُـــــاً	قـول مـن خـاف اضـطنانا فأعتـذر
لا تكـــــونَّ كآســـــي عظمـــــه	بأســـىً حتـــى إذا العظـــمُ جبـــر
عـــاد بعـــد الجبـــر يبغـــي وَهْيَـــةً	يَنْجُـوَنَّ آلمشـــي منـــه فأنكســـر[1]

فالشاعر في هذه القصيدة صور جزعه للنعمان بن المنذر في غياهب السجن الذي رماه فيه ،فالليل هناك طويل جداً ، والشاعر ارق قلق يحس بالآلام تجتاحه وكأن أبراً محماة تحزّ جنبيه وتكويه فيتغلب في ذلك السجن فلا يعرف الهدوء ولا للسكون طعماً ، مصوراً الحالة النفسية القلقة التي كان يعانيها والتي تدل على التوتر والانفعال نتيجة للهموم والمخاوف التي كانت تملأ نفسه من بطش النعمان بسبب تهمة الخيانة وهو منها براء . ولم يكن هذا الا مجالاً اتخذه الشاعر للتعبير عن حريته التي افتقدها.

على ان عدياً يرسم لنا صورة أخرى يوضح فيها جزعه من الحبس وطول المدة وذلك من خلال عكس معاناته على اهل بيته الذي اصبح مقفراً الا من النساء الأرامل الهلكات من النحيب ، الجازعات لفراقه والباكيات عليه أسفاً . والأسير يخرج من مساحة الحلم الذي سبق ان رسمه قبل الأسر ، داخلاً دائرة الواقع الذي لا يستطيع الانفلات منه وهو في ضمير الغيب ، أما حياة له بعد افتدائه ، واما ذلة ضربت إطنابها عليه ليموت بعدها ذليلاً بعد معاناة ولقمة عيش مغمسة بالألم مع

---

[1] ديوانه /59-61. (اعتكر الليل : اشتد سواده) ، (حبشر الصبح : انفلق) ، (شئز : قلق) ، (أهدأت الصبي : اذا جعلت تضرب عليه بيدك رويداً لينام) . (خلس : سلب) ، (المألكة : الرسالة) (الاضطنان : الاتهام) ،(الآسي: المدواي) ، والاسى : العلاج والمداوة .

قلق وتوتر شديدين يحيقان به . ولذا فان الشاعر يجترح مشاعره عبر زفرات حادة تكون طريقاً يوصله إلى الألم والحرقة الموجعة التي تعصف بكيانه كله ، اذ يقول:

ألا مـــن مبلـــغ النعمـــان عنـــي وقـــد تُهـــدي النصـــيحة بالمغيـــبِ
احظِّـــي كـــان سلســـلةً وقيـــدا وغُـــلاً والبيـــان لـــدى الطبيـــبِ
أتـــاك بـــأنني قـــد طـــال حبســـي ولـــم تســـأم بمســـجون حريـــب
وبيتـــــي مُقْفِـــــرُ إلا نســـــاءً أرامـــل قـــد هلكـــن مـــن النحيـــب
يبـــادرن الـــدموع علـــى عـــديٍّ كشـــنٍّ خانـــه خـــرز الربيّـــبِ
يُحـــاذرنَ الوشـــاة علـــى عـــدي ومـــا اقترفـــوا عليـــه مـــن الـــذّنوبِ
فـــان أخطـــأتُ أو أوهمـــتُ أمـــراً فقـــديهمُ المصـــافي بالحبيـــبِ
وان أظلـــمْ فقـــد عـــاقبتموني وان اظلـــم فـــذلك مـــن نصـــيبي
وان أهلـــك تجـــد فقـــدي وتخـــذل إذا التقـــت العـــوالي فـــي الحـــروب
فهـــل لـــك ان تـــدارك مـــا لـــدينا ولا تُغلـــب علـــى الـــرأي المصـــيبِ[1]

وهذا التوتر والقلق كفيلان بان يفقدا الإنسان سيطرته ، وذلك ما عبر عنه الأعشى ، الذي صحب ممدوحه في بعض غاراته بمكان اسمه (لعلع) ، وتعرض للوقوع في الأسر حتى أنقذ مع صحبه بدخول الممدوح عليهم (قيس بن معد يكرب) آخر الليل فعظموه وشكروه ، وهكذا فان الضعف والقوة والقلق والراحة والخوف والأمان والضياع والاهتداء والأمل واليأس كلها تجسدت في جزع الشاعر من السجن ، ومدلول الكلمات التي استخدمها في النص عبر من خلالها عن تلاشي الأمل والانتظار القاتل والضياع والفزع من المكان ، يقول الأعشى:

فـــأنّي وجـــدك لـــولا تجـــيء لقـــد قلـــق الخـــرت ان لا انتظـــار
فياليلـــةٍ لـــي فـــي لعلـــعٍ كطـــوف الغريـــب يخـــافُ الاســـارا

---

[1] ديوانه /40-41.

فلمـــا أتانـــا بعيـــد الكـــرى سـجدنا لـــه ورفعنـــا عَمـــارا[1]

وننتقل الى تجربة مفعمة بالألم واليأس وهي تجربة قيس بن عيزارة الذي ينقل لنا تجربة أسره لدى (فهم) فالشاعر يعيش في حالة جزع مفعمة بالمخاوف ولحظات قلقة في حياة الأسر ، متأملاً مصيره حيث تسوقه الضبع لضعفه وهزاله طامعة في أكله ويوضح لنا الشاعر موقفين متضادين هما قوته وضعفه ، بطولته في صولاته ، وأسره إذ لا حول ولا قوة ، بين تقلده سيفه ، بين تجرده منه ، وبين موته على ارض قومه وموته غريباً في بطن الضبع.....

لعمـرك أنســى روعتــي يــوم أقْثُــدٍ وهـل تتـركَنْ نفـس الأسـير الروائـع
غــداة تنــادوُا ثــم قــاموا وأجمعــوا بقتلــي سُــلكى لــيس فيهــا تنــازع
تقــول اقتلــوا قيســاً وحــزّوا لســانه بحســبهم ان يقطــع الــرأس قــاطع
ويــأمرُ بــي شــغْلُ لأُقتــل مقــتلاً فقلـتُ لشـغْلٍ بـئس مـا أنـت شـافِعُ
ســرا ثابــتٌ بــزّى ذميمــاً ولــم أكــن سَـلَلْتُ عليـه شـلّ منـي الأصـابعُ[2]

وهكذا نرى ان الأبيات التي صورت جزع الشاعر من الحرب كانت تعبيراً عن ويلات الحرب وما تسببه من كوارث كان لها أثرها في نفسيته فيكون السلم والصلح استجابة لهذا المثير . على ان الشاعر في اكثر الأحيان يسند الخوف والجزع من الحرب إلى عدوه ومحاولته للهرب منها . أما اكثر الأشعار فقد كانت دعوة إلى خوض الحرب والصبر على ويلاتها والتجلد أمام الأعداء ، وذلك بسبب حياة العرب القائمة على الحرب فضلاً عن طبيعة معاشهم التي تتطلب ذلك ...على ان الكلام عن الحرب ، قاد الى الحديث عن نتائج الحرب من اسر وسجن وجزع الشعراء

---

[1] ديوانه /101.

[2] شرح أشعار الهذليين 2/ 589،590،591.(أنسى : يريد لا أنسى) ،(اقتد:ماء ويقال موضع)، (سُلكى : على استقامة) ، (شعل : لقب تأبط شراً) ، (سراثابت : يعني تأبط شراً) ، (شل مني الأصابع :دعا على نفسه ألا أكون سللت عليه السيف فقتلته).

الجاهليين منهما اكثر من الصبر عليهما وهذا يعود لمقت الشاعر للمهانة والذّل والقيد الذي لا يتوافق مع حياة العربي الأصيل الذي يتمتع بالحرية والفخر بالنفس . ولم يكن الاعتذار الصادر من بعض الشعراء في أشعارهم الا تعبيراً عن جزعهم للخلاص من هذه القيود والمذلة ، فضلاً عما يصيب الشاعر من ارق وقلق على مصيره ومصير أهله .....ومنه نستطيع القول ان جزع الشاعر من الأسر والسجن أكثر من صبره عليها ، وان نسبة صبر الشاعر على على الحرب اكثر من جزعه [1]منها وذلك لإظهار قدرته وإقدامه على الحرب وجرأته فهي من السمات التي يفتخر بها العربي الأصيل.

[1] ينظر : القائمة (1).

3- القبيلة :

ان جهد الشاعر لا ينصب في إطار مواجهة القبيلة للتحديات الخارجية المختلفة حسب، وإنما قد ينفرد الشاعر بصوته يعبر عن موقفه إزاء القبيلة نفسها إذا ما اضطربت الاصرة بينه وبينها بفعل عوامل مختلفة مما يدعوا إلى الألم الممض الذي يغور في أعماقه ، ويشعره بانسحاق (الانا) وقد حفل الشاعر الجاهلي بنماذج كثيرة من هذا النمط المعبر عن ألم الشاعر لما يقع بينه وبين قبيلته بفعل تأثير الظروف الاجتماعية والاقتصادية والنفسية وبالرغم من ذلك يظل الشاعر مشدوداً للقبيلة في انتمائه لها ، على الرغم مما تثيره في نفسه من مواجع،وما تنكأ في قلبه من جروح فيتجه للتعبير عنه الى العتاب بشكل هادئ او منفعل او قد يتجه للتصعلك او الى البحث عن جوار له بين القبائل.

لقد فضل تأبط شراً حين لم يجد في قبيلته ما يطمح أليه ان يعيش مع الوحوش التي ألفها وألفته فكانت انتماءه الذي يطمئن أليه ، فهو يقول:

يبيتُ بمَغْنَى الوَحْشِ حتّى ألْفْنَهُ ... ويَصُبْحُ لا يَحمْي لها الدهر مَرْتعا
رايْن فتّىً لا صَيْدُ وَحْشٍ يُهمُّهُ ... فلو صافحتْ انساً لصافحْنُهُ معا[1]

ولعل الشعراء الصعاليك من أوضح واقدر الشعراء على تثبيت محاولات التمرد الفردي التي تتسم بشيء من الشمول في محاولة الجهد الفردي للانفلات من القيد القبلي سواء عن طريق اختيار الانفصام ام عن طريق إعطاء الذات حريتهما في التصرف إلى حد يسيء إلى القبيلة إساءة تضطر معها إلى خلع المسيء . بيد ان المحاولة كانت تنتهي دائماً إلى مواجهة ظرف بيئي قاسٍ لا تخفف من وطأته الضمانة الجماعية المتمثلة بالقبيلة فكان الصعاليك يضطرون إلى ان ينشئوا لأنفسهم مجاميع ابتكرت لنفسها قيوداً جماعية جديدة ظلت أخف وطأة من القيود

---

[1] ديوانه /115-117. (مغنى الوحش :منزله).

القبيلة وهكذا كان من الطبيعي ان يستوعب نتاج الصعاليك الشعري آثار هذه الرغبة في التفرد عن طريق هدم مقومات الانتماء القبلي[1]، وذلك ما يمكن ان نتأمله في لامية الشنفرى الذي يتلذذ بذكر أسماء الوحوش التي عوض بها عن أهله ويتغنى بأنها لن تذيع ما بينه وبينها من أسرار ، فيقول :

ولي دونكم أهلون : سيد عَمَلّسٌ وارقطُ زهلولٌ ، وعرفاء جيألُ
هم الأهل ، لا مستودع السّر ذائعُ لديهم ، ولا الجاني بما جَرَّ يخذلُ[2]

أما تفرده فانه يعتز به ويفخر بأنه ينتصر فيه بأصحاب ثلاثة لا يخذلونه قلبه الشجاع وسيفه وقوسه.

وأني كفاني فقد من ليس جازياً بحسنى ولا في قربهِ مُتعلّل
ثلاثة أصحاب فؤاد مشيّع وابيضُ اصليتُ وصفراءَ عيطلُ[3]

فالشاعر يحاول تكييف التفاصيل الموضوعية بغية تثبيت الأسس التي من وجودها يستمد قوته لمجابهة الحياة ، وهذه الصفات تعطي الشاعر الطمأنينة و والأمان اللذين فقدهما في قبيلته.

وتتجلى جزع لبيد من قومه ، حين أنكر على بعض قومه أخلاقهم وطبائعهم المخالفة لطبيعته فضلاً عن إغارتهم على البريء وإتيانهم الفواحش واللصوصية واتباع من هو غير مؤهل لقيادتهم ، فقال:

هم قومي وقد أنكرتُ منهم شمائل بدلوها من شمالي

---

[1] ينظر :دراسات نقدية في الأدب العربي /166.
[2] لامية العرب/32.
[3] م.ن/32.

يُغـــار علـــى البـــريء بغيـــر ظلـــم وبفضـــــح ذو الأمانـــــة والـــــدلالِ
وأســـرع فـــي الفـــواحش كـــل طمـــلٍ يجـــــرُّ المخزيـــــات ولا يبـــــالي
أطعـــــتم أمـــــره فتبعتمـــــوه ويـــأتي الغـــيّ منقطـــع العقـــالِ[1]

ان جميع انفعالات الشاعر إنما تصدر تعبيراً عن الحدث الموضوعي بأطار يصور فيه الانفعالات النفسية التي يسببها الحدث ، فيحاول الشاعر ان يفرغ شحناته الانفعالية التي تتملكه للتخلص منها[2]، وهذه الدواقع التي حركت الشعور والذهن معاً ، إنما كان سببها الحرمان الذي استشفه الشاعر من تصرفات قومه قال عمرو بن قميئة معبراً عن جزعه من سلوك قومه تجاهه:

علـى ان قـومي أشـقذوني فأصـبحت ديـاري بـأرض غيـر دانٍ نبوحهـا
تنفـــذ مـــنهم نافـــذات فســـؤنيْ وأصـــفر أضـــغاناً علـــيّ كشـــوحها
فقلـــتُ: فـــراقُ الـــدار أجمـــل بيننـــا وقـد يَنِتَأْي مـن دار سـوءٍ نزيحهـا[3]

وواضح من الأبيات نفور الشاعر من القبيلة ، كاسراً عصا الولاء القبلي ، فضلاً عن مأساته التي بلغت الذروة في المعاناة لذلك كان إخراج التجربة الى الواقع مفعماً بالمشاعر والأحاسيس المصورة لجزعه.....

وان العنف الذي واجه به الشاعر قومه له ما يبرره لان القيم الجاهلية تقتضي من القبيلة ان تنصر ابنها ظالماً ام مظلوماً ، فهو صاحب حق مشروع يرى ان من واجب القبيلة ان تنهض لنجدته فلما تقاعست القبيلة عن مساعدته وخذلته ، ما كان جوابه الا ان يعاتبهم هذا العتاب المر ، وفي الاتجاه نفسه يقول طرفة الذي لم ينصره قومه ليلة مقتله:

---

[1] ديوانه /94.(الطمل : الأشعث الأغبر وهو اللص).

[2] ينظر : الدوافع النفسية لنشوء الفن /27.

[3] ديوانه /32.(أشقذوني : طردوني). (النبوح : الضجة من الحي) .(الكشوح: البغض).

أســـلمني قـــومي ولـــم يغضـــوا لســـوأة حلـــت بهـــم فادحـــه
كـــلّ خليـــل كنـــت خاللتُـــهُ لا تـــرك الله لـــه واضـــحه
كلهـــم أروغ مـــن ثعلـــب مـــا أشـــبه الليلـــة بالبارحـــه[1]

ويقف الشاعر على ارض الواقع ، مستثمراً تجاربه الواقعية بكل ما تحمله من حقائق مبتعداً عن الغلو الذي نراه في كثير من المعاني ، فيطلق شكواه بصرخة قوية مدوية كتلك الصرخة التي أطلقها طرفة عندما حرمه قومه من المثيرات ، فقال:
وظلـم ذوي القربـى أشـد مضاضـةً علىالمرءِ من وقع الحسام المهنـدِ[2]

ان الشاعر عندما تلم به الملمات يفرع مستنجداً بقبيلته ، ولكن صوته يرتد أحياناً دونما استجابة لان القبيلة أنكرته وخيبت آماله فلا نجد غير الشكوى والهجاء والعتاب في أبياته التي يعبر من خلالها عن جزعه من ظلم القبيلة وإحساسه بمرارة الخلع الذي أجرته القبيلة عليه ، وذلك ما عالجه قيس بن الحدادية في قوله :
أنـــا الـــذي تخلعـــه مواليـــه وكلهـــم بعـــد الصـــفاءِ قاليـــه
وكلهـــم يقســـم لا يباليـــه انـــا إذا المـــوتُ ينـــوب غاليـــه
مخـــتلط أســـفله بعاليـــه قـــد يعلـــمُ الفتيـــات انـــي صـــاليه
اذ الحديدُ رِفعَتْ عواليه[3]

وهكذا يبرز أسلوب الوصف الدقيق لتلك القيم المستجدة في الشاعر الجاهلي معبراً عن كل ميزة فيه بأدق التفاصيل ، وكان هذا نتيجة طبيعية لاستيعاب زخم الأفكار المحتشدة في وعي الشاعر نظراً لتجربة آنية مر بها ، ووقع تحت سطوتها وهي تحمل معاني دالة على صراع بين القبيلة والشاعر . ولاسيما الصعلوك فكان نتاج الشعر وسيلة لإعلان فلسفته الاجتماعية والاقتصادية وتصوير حياته بكل ما

---

[1] ديوانه /118.
[2] م.ن/40 وينظر : الشاعر الجاهلي طرفة بن العبد /57.
[3] عشرة شعراء مقلون/44.(قالية : مبغضة) ، (الغالي في الأمر : المبالغ فيه) .

يدور فيها من الجزع والتمرد ، ولعل ابرز ما في نتاجهم الشعري التحلل من الشخصية القبيلة التي حلت محلها شخصيتهم الفردية ، معلنين عن جزعهم من القبيلة بسبب الخلع الذي أجرته عليهم او لعدم مناصرتها لهم ، أوقد يتخذون من الصحراء بديلاً عنها كما فعل الشنفرى ، فضلاً عن الشكوى والهجاء والعتاب الذي وشح قصائد الشعراء معبرين من خلالها عن جزعهم من مواقف قبائلهم.....

ثالثاً : المثير البيئي

تبقى الطبيعة العربية في العصر الجاهلي هي المجال الرحب والافق الواسع لجميع الموضوعات الشعرية، لما تستوعبه من انعكاسات وتأملات لما فيها من موجودات حية وصامته تحرك المشاعر ونحن نستطيع القول بان هذه الطبيعة وما تحويه والبيئة وما تضمنه قد شكلت مادة أساسية في بنية الشعر الجاهلي والصراع الدائر بين الإنسان وهذه الطبيعية وما تحويه في جميع نشاطاتها حتى لا يخضع لقهرها وجبروتها.

وعلى الرغم من ذلك نجد الشاعر قد وقع رغم أنفه تحت قوة الطبيعية وجبروتها في هذه الصحراء القاسية المليئة بالمخاطر والكوارث ، وقد عبر الشاعر الجاهلي عن خوفه وجزعه من هذه الظواهر وهي :

1-الأطلال .

2-شظف العيش .

3-الحيوانات .

1-الأطـــــلال :

يعد الطلل من أهم الموضوعات التي ترددت في القصيدة الجاهلية لعلاقته الوثيقة بإنسانية الشاعر الجاهلي ، وتنازعه مع ميوله وعواطفه ، وقد جرت محاولات عديدة لتفسير ظاهرة الوقوف على الأطلال ، ولعل أول إشارة حاولت الوقوف عند تفسير هذه الظاهرة ، وتعليل البواعث التي بعثت الشعراء إلى سلوك هذا الطريق هي قول ابن قتيبة " ان مقصد القصيدة إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار ، فبكى وشكاه وخاطب الريح ، واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها ، اذ كان نازلة العمد في الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر ، لانتقالهم من ماء إلى ماء ، وانتجاعهم الكلاء ، وتتبعهم مساقط الغيث ، حيث كان ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجد وألم الفراق.."[1]

وفسر المستشرق الألماني فالتر براونة الظاهرة من خلال التماسه لألوان من التفكير الوجودي لدى الشعراء الجاهليين ،واعتقد هذا المستشرق ان الشعراء صدروا في نسيبهم عن مشاعر صادقة كامنة في نفوسهم ، تمثل نوعاً من القلق الوجودي وان الأحاديث التي ذكروا فيها أيامهم السعيدة ، ووصفوا ساعات اللهو والشرب والهزل ، كانوا يتكلمون عنها بصرخة من الألم ، لشعورهم بان الفرح انتهى ،وان اللهو مضى وان الشباب فني ، ثم يقرن هذا الموقف بموقف الإنسان في التاريخ كله ويرجع ذلك إلى ان الإنسان يشعر دائماً بتهديد القضاء ، وتوعد الفناء ، وهو ينظر إلى الموت اليقين ، ويخلص من حديثه هذا فيقول : ان في الشعر الجاهلي القديم مسائل شبيهة بتلك التي تثيرها الفلسفة الوجودية [2]وارى ان بكاء الأطلال ليس عاطفة خاصة ، ولا تجربة وجدانية ذاتية ، بل لحظة حزينة أملاها على الشاعر شعور الجماعة التي ينتمي أليها بالحرمان من الوطن والحنين إلى الاستقرار.

والواقع ان وقوف الشاعر الجاهلي عند أطلال أحبته ، أو بكاء دياره التي هجرها – او اضطر إلى هجرها، لم يكن غريباً ، لان الطلل عندهم قطعة من الحياة

---

[1] الشعر والشعراء 1/20-21.

[2] ينظر : مجلة المعرفة السورية ، السنة الثالثة ، العدد الرابع /1963.

التي تهرم كلما مضى منها جزء لا يستطيع الإنسان رده مهما حاول فكان البكاء على الطلل اصبح يعني البكاء على الحياة نفسها ، وكأن البكاء على الحياة يمثل نقطة الانطلاق في تفكير الشاعر الجاهلي ، فهو ينظر الى الطلل ، ويحس بعمق الحالة التي تصادفه ، فيجزع من بعده عن الوطن وارتحاله عنه ، وعندها لا يجد شيئاً يناجيه غير هذه الآثار الصامتة .ويعلن الشاعر جزعه من إقفار هذه الديار لأيمانه بحقيقة ارتباط هذه الديار بحياة الإنسان الذي لازمته منذ ان عرف الحياة فكان إقفار هذه الديار بالنسبة له يعني إقفار الحياة نفسها ، وهذا وحده يكفي لتفجير كثير من الأحاسيس ومن خلال ذلك كان الشاعر يحاول ان يطابق بين هذه الصور ويربط بين موت الإنسان ومفارقة الديار ويعدُّ الحالين حالة واحدة ، يقول لبيد:

وما النّاسُ الا كالديارِ و أهلها بها يوم حلُّوها وغدواً بلا قع[1]

ولنا ان نلاحظ كيف ركز الشاعر على إيراده للمعاني التي وصفت بدقة صفات خوفه من إقفار هذه الديار وجزعه عند الوقوف عليها لان وقوفهم عليها يثير الأشجان والحزن ويلهب العواطف ، يقول امرؤ القيس:

لمن طللُ أبصرته فشجاني كخط زبور في عسيب يمانِ[2]

ولنا ان نلاحظ اتجاه الشاعر في المعالجة إلى المباشرة في التعامل مع الحدث ، وذلك يعود لأنية التجربة ، وشدة الانفعال والتأثر ، مما يترك ، للملتقي فرصة لتأمل كيفية صوغ معانيه ، فجزع الشاعر كان نتيجة إقفار الديار ، على ان العبرة المسفوحة كانت التعبير الحاسم عن اليأس من بعث الحياة في جدث الطلل فاستقطبت معاني العلاقات الإنسانية كلها في وعي الشاعر وتلك نقطة اللقاء بين الطلل والمرأة ويرسم عبيد صورة معبرة عن شدة حزنه وشجنه واصفاً بكاءه ببكاء حمامة تحنُ إلى إلفها ، قائلاً:

---

[1] ديوانه /168.

[2] ديوانه /85.

وقفــتُ بهــا أبكــي بكــاء حمامــة اراكيّـــة تـــدعو حَمامـــا اوأركـــا
إذا ذكـرت يومـاً مـن الـدّهر شـجوها على فرع ساقٍ أذرت الدّمع سافِكاَ[1]

وكثيراً ما كان الشاعر يضفي على الطلل صفات الحي ، فيخبره ويستخبره ، ويناجيه ويستلهمه ، ويتبرم منه حين لا يجيب عن سؤاله ، كما تبرم امرؤ القيس في لاميته لان الأطلال استعجمت فلم تنطق:

يـــــا دار ماويـــــة بالحائـــــل فالسَّـــهب فـــالخبتين مـــن عاقـــل
صُـــمَّ صـــداها وعفـــا رســـمها واسـتعجمت عـن منطـق السـائلِ[2]

ويبدو ان الدموع والشكوى كان لهما النصيب الأكبر في حياة الشاعر المعبر عن مله من الديار الخالية من أهلها ، مكونة لديه اتجاهاً محدداً في وضع التفاصيل الفنية والموضوعية .

ولابد ان تحمل مثل هذه الصور مرارة الألم الذي أحس الشاعر به وهو لم يهتد إلى معالم أحبته إنها صورة الألم المر الذي يعانيه الشاعر الجاهلي ، والخيبة المفجعة وهو يقف على ارض لم تحفل بأيامه ،ولم تأنس بشبابه وصباه . وعلى الرغم من هذه الأحوال التي ترد في ذهن الشاعر ، باعتباره مرحلة انفعالية حادة فقد كانت تثير في نفسه الأسى والجزع ، وقد صور ذلك بشامة بن الغدير :

فوقفـــت فـــي دار الجميـــع وقـــد جالـــت شـــؤون الـــرأس بالـــدمع
كعـــروض فيـــاض علـــى فلـــج تجـــري جداولـــه علـــى الـــزرع[3]

---

[1] ديوانه /92.
[2] ديوانه /117.
[3] المفضليات 207/2.

ان ظهور مثل هذا الاتجاه كان نتيجة حتمية وتلبية لنمط حياة الشاعر القائمة على هذا الأساس ، المعبرة عن فكر وعاطفة في آن واحدٍ، مازجاً كلا البعدين في سياق التناغم بحيث توحد في كيان واحد نشعر فيه بعاطفته من خلال أفكاره.

على ان الشاعر الجاهلي عبر عن جزعه من العوامل التي كان لها دور بارز في تغيير هذه المعالم كالسيول والأمطار ، وهي في الواقع من ابرز العوامل لأثرها الكبير وقوتها في سرعة إزالة بقاياها- أي ذكرياته -قال النابغة :

وقَفْت بربع الدّار قد غيَّر البلى معارفُها والسواريات الهواطلُ
أسائلُ عن سُعْدى وقد مرّ بعَدنا على عرصات الدار سبعٌ كوامِلُ[1]

على ان الرياح بأنواعها لا تكون سبباً كافياً في رأي الشاعر ، لإبادة معالم الديار من رماد واثافي ومرابط خيل وانما كان الدهر عاملاً آخر من عوامل إقفارها ، فلم يترك فيها غير البقر الرواتع والظباء الخالصة البياض ، قال عبيد:

أقوت مَعالمِهُا وغيّر رَسْمَها هُوجُ الرّياحَ وحِقْبَةُ الأيام
- - - - ـــــ ـــــ ـــــ ـــــ
دار بها عينُ النعاج رواتعِا تَعْدو مساربِها مع الأرامِ[2]

وكما كانت صور المطر والرياح وصروف الدهر تزيل الذكريات ولا تبقي منها الا آثارها التي تلوح من خلال تلك الأطلال ، كانت صور الحيوانات وهي تجوب هذه الآثار تبعث في نفسه الحزن والأسى والجزع المستمر .... ويستذكر الشاعر أيامه التي قضاها في المربع الذي ربع فيه ، وحبيبته معه ، ولكن المربع تبدل إلى قفر ، ترتاده أولاد الظباء وترعاه النعام ، على ان جماعات النعام وحدها لم

---

[1] ديوانه /195.

[2] ديوانه /121-122.

تستقطب انتباه الشاعر ، وإنما أصوات الرياح المتجاورة – التي عبر عنها بالعوازف ، وهي تحف بأطراف هذه الديار وأصوات ذكر النعام ، كانت ترسم له صورة أخرى من صور الفزع والخوف فيسفح عبراته ، وقد ارتسمت هذه الصورة في ذهن عبيد ارتساماً واضحاً ، اذ يقول:

أمن منزلٍ عافٍ ومن رسم أطلال بكيت؟وهل يبكي من الشوق أمثالي
ديارهم اذ هم جميع فأصبحت بسابس الا الوحش في البلد الخالي
قليلاً بها الأصوات الا عوازفاً والاعراراً من غياهب آجالِ[1]

أما الآرام فأنها منفذ آخر من المنافذ التي يعبر الشاعر من خلالها عن جزعه من إقفار الديار وهو يذكر أحبته ، يقول امرؤ القيس:

ترى بعر الأرآم في عرصاتها وقيعانها كأنه حبُّ فلفلِ[2]

لقد جاءت المعاني متسمة بالبساطة ، متخذة الوصف اساساً لها ، معبرة عن الحالة النفسية النابعة من ارض الواقع لشعور الشاعر بالخوف والجزع من إقفار هذه الديار من أهلها والتي أصبحت مرتعاً للوحوش يقول عنترة :

ولقد حبست بها طويلاً ناقتي أشكو الى سُفع رواكدجُثَّم
يادار عبلة بالجواء تكلمي وعمي صباحاً دار عبلة واسلمي
فوقفت فيها ناقتي وكأنها فَدَنٌ لا قضي حاجة المتلوّم
حُييّتُ من طل تقادم عهده أقوى و أقفر بعد أُمِّ الهيثم[3]

---

[1] ديوانه /112.
[2] ديوانه /8.
[3] ديوانه /183-184.

وغالباً ما يعاود الشاعر الجاهلي الجزع من إقفار الديار عندما يجد نفسه أمام منازل قفرٍ لا أنيس بها.

وهكذا وجدنا الشعراء الجاهليين يعبرون عن إحساسهم العميق بالحنين الى ملاعب الصبا، يجدون في هذه الآثار العافية حقيقة الموت التي تثير في نفوسهم المخاوف ، وتعد مشاهد الأطلال من اشد المظاهر الطبيعية تأثيراً في الحس والنفس ، لأنها تحمل تخيلات مؤلمة من صور الحياة اليائسة فهي صور ترمقها العين وتجتلي مظاهرها ولكن آثارها تتخلل النفس ، وتثير الجزع لدى الشاعر والملتقي .

2- شظف العيش:

ان صورة العذاب والنقمة والخوف والموت تتمثّل بالجدب والمحل الذي يطبع شبه الجزيرة العربية بطوابع راسخة ثابتة ، فيحيل حياتهم شقاءً ، وعذاباً ، وفقراً وشحاً ، وجوعاً . لذلك كانت معاناة العربي من الطبيعة القاسية عظيمة فان أجدبت جاءت بالعذاب ، وان أمطرت صبّت الموت الزّؤام ، ويشتد بردها حتى ليجمد المطر على أهداب عيون الإبل[1].

وليس الجدب في صحراء العربية طارئاً في سنة من السنوات فقد ارتبطت به دوماً حياة العرب ارتباطاً وثيقاً ، ولعل النواح من اجل المطر ابرز ألحان الحزن في الشعر الجاهلي ، وفي الجدب تتحول الصحراء العقيم عندما تهب عليها رياح السموم جحيماً لا يطاق . وهناك حقيقة مفادها: "ان عدد من يموت في الصحراء غرقاً يفوق عدد من يموت فيها عطشاً"[2]. أي قد يكون مطر الرحمة مطر عذاب ونقمة وكما ان الجفاف يجدب الصحراء ، فان المطر يجرف كل شيء فلا يبقي ولا يذر والمطر حين يهطل دائماً رحيم رقيق ، ولكن ما اكثر ما ينهمر قوياً عاتياً ، يجرف التربة ويحطم الخيام والشجر ، ويتلف الزرع ، ويغرق المنازل ، ويحول الأرض الى مسايل تجعل كل عامر دامراً [3]. وعلى أية حال فان البيئة المقفرة لا تفسح مكاناً واضحاً للغنى[4]، وقد فرضت طبيعية الجزيرة على العرب حالة من التنقل ، وعدم الاستقرار ، وكان للتناقض البيئي في مناطق شبه الجزيرة العربية اثر كبير في أيجاد التناقض في المستويات الاقتصادية فالفقر والجوع كتبا الشقاء والبؤس على الشعراء الذين تسلط عليهم أرباب النعم والأموال يكيدون لهم ويضنون عليهم بما يقيهم غائلة الجوع والحاجة.

ويتحدث الشعراء عن اثر الفقر في أجسامهم ، وما يحمله لهم من جوع وهزال ، ومن ذلك حديث السليك بن السلكة وعما يفعله الجوع به في اشهر الصيف

---

[1] ينظر : عنوان المجد في تاريخ نجد /411.

[2] المطر في الشعر الجاهلي /23.

[3] ينظر : المزاج الطبيعي لمنطقة نجد /11.

[4] ينظر : شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والإسلامي /103.

المحرقة ، وما كان يصيبه من إغماء ودوار حتى يكاد يفقد حياته نتيجة الفقر والهزال والجوع[1]، ويبقى الفقر مذلة عند اغلب الشعراء حيث يحس الفقير بمكانته الوضيعة في المجتمع واننا نلاحظ ان الذين يشكون من الجوع نجدهم يتحدثون عن ذلك في مجال حديثهم عن مغامراتهم المتمردة .

ويصف تأبط شراً الفقر وما يفعله به في صورة دقيقة وهي صورة الشخص الذي لا يبقى من الزاد الا ما يتعلل به ، حتى نشرت أضلاعه والتصق معاه:

قليـــلِ ادخـــار الـــزّادِ الا تعلـــةً وقد نَشَرَ الشرسوفُ والتصقَ المعى[2]

فالمعاني التي تناولها الشاعر في وصف جسده تعبر عما يعانيه في صراعه مع ذاته ، ومع بيئية ويعلو صوت الألم عندما يتمكن منه شعور اليأس المتولد من عجزه عن تغيير هذا الواقع وإنشاء المجتمع الذي طالما طمح الى تحقيقه....

وللفقر والحاجة وطأة ثقيلة مرعبة يمتد أثرها فيشمل حياة الإنسان كلها ، وقد احسن عروة تصوير حالة الفقر وما تجره على الإنسان من مضايقات والشعور بالنقص ، فالاطمئنان وعدم السعي يورثان الفقر وبالتالي الالتجاء الى الناس فان أعطوه منوا عليه وان منعوه وجه لومه أليهم ، ودوام هذا الحال يخلف مردودات سلبية تجعل الإنسان ثقيلاً على الآخرين ، فتنقطع علاقته مع الأقارب والأصدقاء في الغالب، فضلاً عن معاناته وشعوره بالإحباط :

إذا المـرءُ لـم يطلـب معاشـاً لنفسـه شـكا الفقـر اولام الصـديق فـاكثرا
وصـار علـى الادنـين كـلاًّ ، وأوشـكت صِـلات ذوي القـرى لـه ان تنكـرا[3]

---

[1]. ينظر : الشعراء الصعاليك / 234 .

[2] ديوانه /115. (الشرسف): أطراف أضلاع الصدر التي تشرف على البطن .

[3] ديوانه /89.

فهو يرى ان الفقر لا يعني الحاجة المادية فحسب ، بل المنزلة الاجتماعية ، فالناس على استعداد لنسيان عيوب الغني ، في حين ان الفقر لا يلقي الا الأعراض والاستهانة ، وان كان شريفاً ، يقول عروة بن الورد :

دعيني للغنى أسعى فأني رأيت الناس شرهم الفقير[1]

لان:

المالُ فيه تجلة ومهابة والفقر فيه مذلة وفضوح[2]

ويرسم الاعلم الهذلي صورة عبر فيها عن قلقه وجزعه عندما تذكر أولاده الذين تركهم في العراء لا أحد يعينهم وهم ينتظرون عودته بفارغ الصبر ليعود أليهم بالطعام وهي صورة مؤلمة رسمها الاعلم بلمسات سريعة [3]منفعلة وقوام هذه الصورة صبية صغار باقون في العراء لا مال لديهم ولا زاد ، ينتظرون من الأقارب عوناً ولكن ليس من مجيب ، فيقول :

وذكرتُ أهلي بالعرا ء وحاجة الشعث التوالبْ
المصرمين من التِّلا دِ اللاّمحين الى الأقاربُ
ويجانبي نعمان ، قلـ ـتُ ألنْ يبلغني مارِب[4]

ويبالغ عمرو بن براق الهمداني في تصوير الجدب والمحل والجوع من خلال دلائل توحي بقلة القوت إذا ان انقطاع المطر كان سبباً في جفاف الزرع والضرع

---

[1] ديوانه /91.

[2] م.ن/43.

[3] ينظر : شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والإسلامي /104.

[4] ديوان الهذليين 2/81-82. (التوالب) : الجحاش . اللامح: المشابه ، الانصرام : الانقطاع.

مما دفع الناس إلى مشاركة الخيل قوتها فأصاب الخيول غبرة الجدب فدب في أجسامها الهزل ، قال الشاعر :

غَبَـــرَتْ خيلُنـــاَ نقاسِـــمُها القـــو تَ ولـم يُبْـقِ حاصِـدُ المَحْـلِ عُـودا
شـــتوةٌ توســـع الجمـــال لهـــا الـــرّ لَّ ونســـــقي عيالنـــــا تصـــــرِيْدَا[1]

وقد حاول الشعراء ان يعبروا عن سطوة القهر والألم من خلال محاورتهم مع الذئب [2]، الذي مثل شخصية الشاعر ، وعلى الأرجح ان هذه المعالجة الموضوعية كانت نتيجة حادث واقعي حدث للشاعر أو لسواه ، فاتاح للشاعر قدرة إيحائية هيأت منفذاً على إظهار الشبه واستثمار الموقف مبرزاً من خلاله عاطفة الالم من ذلك القفر ، واصفاً نحول جسده وشدة جوعه وذلك ما جاء في شعر تأبط شراً:

ونَغْـلٍ كأشـــلاء السُّـــماني ، نبـــذتها الـى صـاحب حـافٍ وقلـت لـه : انْعَلِ
وقربـــةِ أقـــوامٍ جعلـــتُ عِصـــامَهَا علـــى كاهـــل منِّـــي ذلـــولٍ مُرَحَّـــل
ووادٍ كجـوفِ العيـر ، قفْـرٍ ، قطعتـهُ بـــه الـــذئب يعـــوى كـــالخليع المعَّيـــل
تعـــدّى بزيـــزاةٍ ، تعـــجُّ مـــن القـــوا ومـــن يـــكُ يبغـــي طرقـــه الليـــل يُرْمـــلِ
فقلـت لـه ، لمّـا عـوى : انّ(ثابتـاً) قليـــل الغنـــى ان كنـــت لمّـــا تمـــوّلِ
كلانـــا إذا مـــا نـــال شـــيئاً أفاتـــهُ ومـــن يحتـــرثْ حرثـــي وحرثـــكَ يهـــزلِ
كلانـا طـوى كشـحاً عـن الحـيّ بعـدما دخلنـا علـى كـلاّ بهـم كـلَّ مَـدخلِ

---

[1] الأشباه والنظائر 360/2. (المحل : الجدب).

[2] ويعود سبب اختيار شعراء ما قبل الإسلام للذئب لكثير من الصفات التي امتاز بها مقترباً من أفعال الإنسان ومن أفعال الصعاليك بصورة خاصة نتيجة لطبيعة حياتهم حيث ذكر عنه في عيون الأخبار 82/2(قولهم : الذئب لأنه إذا أراد السفاد توخى موضعاً لا يطؤه أنيس خوفاً على نفسه ، ويقولون : ان الذئب ربما نام بإحدى عينيه وفتح الأخرى والذئاب أشد السباع مطالبة ، وإذا عجز عوى استغاثة فتسامعت الذئاب فأقبلت حتى تجتمع على الإنسان لتأكله) . وتنظر دراسة د. عناد غزوان ، الموسومة : قراءة عصرية في أدب الذئب عند العرب ، بحث ودراسة الباحثة ساهرة عبد الكريم في (الصورة البيانية في الشعر العربي قبل الإسلام /78-80).

طرحْتُ لـه نعـلاً مـن السِّـبتِ طلـةً خِلافَ ندىً من آخرِ الليلِ مخْضَلِ[1]

وبـذلك اسـتطاع الشـاعر ان يعطـي صـورة الـذئب بعـداً فكريـاً مـنح الـنص معطيـات جديـدة فـي بنـاء الحـدث وتـرك مجـالاً للتعبيـر عـن سـعة افقـه وقدرتـه فـي معالجـة الأمـور المستقاة مـن واقـع صـعلكته ، بمـا حملـه مـن مفردات لإبـراز لـواعج النفس لمعالجة الموضوع . وهذا الاتجاه غير المباشر طرقه الشاعر في محاورته مع الذئب مستثمراً أبعاده في طرح معالجته ولم يظهر لدى الصعاليك باستثناء الشنفرى الـذي كـان لـه موقـف مـع الـذئب ، فمـرارة الجـوع التـي رسـمها الشـنفرى للـذئب الـذي صادفه تعكس مرارة الجوع التي يشعر به الإنسان المعدم ، اذ يقول :

غـدا طاويـاً يُعـارضُ الـريحَ حافيـاً يخـوتُ بأذنـاب الشـعاب ويَعْسِـلُ
فلمـا لـواه القـوتُ مـن حيـث أمّـهُ دعـا فأجابتْـهُ نظـائِرُ نُحّـلُ
مُهَلّلـةٌ شـيب الوجـوه كأنّهـا قِـداح بأيـدي ياسـر تتَقَلْقَـلُ
فضـجّ وضـجّت بـالبراح كأنهـا وايـاهُ نـوحٌ فـوق عليـاءَ ثكـلُ
فأغضى واغضت وابتسى وابتسّتْ به مراميـلُ عزّاهـا وعزّتْـه مرمـلُ
شكا وشكتْ ثـم ارعـوى بعـد وارعـوتْ وللصّبرُ ان لـم ينفـعْ الصبرُ أجملُ[2]

ومن خـلال تأملنا للنصوص نجد ان الجدب مثير طبيعي حاصل نتيجة قسوة الصحراء من خلال الأمطار وندرتها او من خلال قوة الرياح وشدتها فضلاً عن كثرة السموم مما أدى إلى جفاف المنطقة وانتشار الجوع ، الأمر الذي كان له أثره في حياة العرب ولاسيما الشعراء وخاصة الصعاليك منهم ، وما ان – يأتي شبح القحط في الصحراء المجدبة حتى يخيم في القلوب الذعر والخوف والجزع .

---

[1] ديوانه /181–185. (السماني : طائر صغير) ،(يرمل : يقل زاده)،(جزاية :مايكفي من الطعام) . (الطله الشربة من اللبن) .

[2] شعره /74–77.(يخوت : يسرع) ، (عسلان الذئب : عدو فيه اضطراب) ،(لويته : مطلته) ، (دعا : استعوى الذئاب فأجابته) ، (نظائر أي أشباه)،(النحل:القليلة اللحم) أمّة : قصد نحوه مراميل : جمع مرمل وهو الذي نفذ زاده).

3- الحيوانات :

لقد أثارت الطبيعة في نفوس العرب الهواجس والتصورات لتفردهم في السير فيها وإذا استوحش الإنسان ، تمثل له الشيء الصغير في صورة الكبير وارتاب ، وتفرق ذهنه وداخلته الظنون فكانوا يتصورون الكثير من الحيوانات ويسمعون أصواتها ويحسون بها ، وقد حفل الشاعر الجاهلي بذكر هذه الحيوانات التي أخافت الإنسان و ادخل الى قلبه الفزع والرعب وخاصة إذا توسطوا الصحراء والوديان والديار المقفرة . ومن هذه الحيوانات الغراب والحديث عنه في الشعر الجاهلي حديث طويل ، تناوله الشعراء كثيراً ، وكنوا به عن الفراق والموت لإحساسهم نتيجة للتجارب التي مروا بها ، وهم يسمعون أصواتها ، ويشاهدون منظرها بالشؤم لارتياد هذه الحيوانات الأماكن المهجورة ، وهذا ما دعاهم الى الإشارة أليها في كل حيث يدعو للتشاؤم ، وكل مكان موحش يبعث على الخوف والفزع والرهبة وعدوا صياح الغراب نذير البعد ودليل الفرقة ، يقول عنترة :

ظعن الذين فراقهم أتوقّعُ وبذاك خبّرنا الغرابُ الا بقعُ
خرق الجناح كأن لحيي رأسه جلمان بالأخبار هش مولعُ
فزجرته الا يُفرّخ عُشّهُ أبداً ويصيح واحداً يتفجع
ان الذين نعبت لي بفراقهم قد اسهروا ليلي التمام فاوجعوا[1]

لقد تشاءموا بالغراب حقيقة ووجدوا في نعيبه دليلاً من أدلة الفرقة والبين[2]. وظلت هذه الصورة مرتسمة للغراب في أشعارهم ، ومن هذه المعاني ارتسمت صورة الغراب وبرزت ألوانه ، فالى جانب تشأومهم بالغراب تراهم يذكرونه ويجزعون من

---

[1] ديوانه/ 262-263.

[2] ديوانه النابغة /43.

زعم الأحبة انّ رحلتنا غدا وبذاك خبّرنا الغدافُ الأسود

صورته وهو عاكف على الموتى شأنه في ذلك شان بقية الحيوانات التي اعتادت الاقتيات على أمثال هذه الفضلات ، وقد عبر عبيد بن الأبرص عن هذه الصورة وهو يرد على امرئ القيس:

اتوعـــد أســـرتي وتركـــت حجـــراً يُريـــغُ ســـوادَ عينيـــهِ الغـــرابُ[1]

ولا يختلف جزع الشاعر من الغراب عن جزعه من الضبع ، ويعد الشعراء الجاهليون من اكثر الشعراء حديثاً عن الضبع ولا سيما الصعاليك للتقارب بين الطرق التي يسلكها كل منهما ، ولان اكثر الشعراء كانوا يموتون في العراء فتصبح جثثهم نصيباً لهذا الحيوان ولغيره من الحيوانات التي اعتادت على اكل الأشلاء ، والضبع من الحيوانات التي عرفت بولعها بجيف الموتى ، واشتهرت برغبتها بنبش القبور ، ولهذا اقترنت صورتها بصورة الفزع من الموت الذي لا يعرف مصير الجسد بعده .....قال الاعلم الهذلي جازعاً من الضباع :

هـــل ألحـــقُ الطعـــن والضـــربة الـــ خـــــدباء بـــــالمُطَّردِ المقصـــــل
ممـــــا أُقضـــــي ومحـــــارُ الفتـــــى للضـــــبع والشـــــيبة والمقتـــــل[2]

فالشاعر يحاول تكييف التفاصيل الموضوعية ، وهذا الحشد من الصفات يعطي الشاعر القدرة للتعبير عن جزعه من الحيوانات التي تأكل أشلاء الموتى ، وكان الشعراء يظهرون خوفهم ويتحاشون وقوع جثثهم بين براثنها ، وهي صورة يخشاها تأبط شراً ايضاً ، ويصورها في بعض قصائده وهي تنبش الأرض ثم تدعو رفيقاتها وبناتها ، فيسارعن أليها ليشاركنها نهشها[3]. ومن الملاحظ ان مثل هذه

---

[1] ديوانه /1، وينظر : الاصمعيات /234 قول المفضل النكري

تركنـــا العـــرج عاكفـــة علـــيهم وللغربـــان مـــن شـــبع نغيـــق

[2] شرح أشعار الهذليين 1261/3.

[3] ديوانه /217.

الأفكار يكثر ورودها في رثاء النفس ونماذجها كما هو واضح مخاوف الإنسانية الخالدة من الموت وعما ياتي بعده ..... ومثال ذلك الخوف من الدفن ومن الوحدة والظلام ومن السباع والذئاب والضباع يقول عبيد:

أشْـرِي الـتلادَ بحمـدِ المـالِ أبذلـه حتـى أصـيرَ رميمـاً تحـت الـواحِ
بعـد انتقـالِ إذا وسـدت حثحثـة فـي قعـرِ مظلمـةٍ الارجـاءِ مكـلاح
اوصِـرْتَ ذا بومـةٍ فـي رأس رابيـة او فـي قـرار مـن الارْضِـين قـرواح[1]

علـى ان الخـوف والفـزع لا يقتصـران علـى الغـراب والضـبع بـل ان هنالـك حيوانـات اخـرى تقتـرن صـورتها بـالموت والخبـث والفـزع والـدمار، وكلهـا صـور غيـر محببـة توحي بالرعب والخوف ، وقد جاء في قول الأعشى ذكر الثعالب من خلال حديثه عن الخرائب والديار التي هجرها أهلها ولم تعد الا ملجأ لهذه الحيوانات تعبث فيها فساداً:

يـأمن يـرى ريمـان أمـ سـى خاويـاً خربـاً كعابُـه
أمسـى الثعالـب أهلـه بعـد الـذين هُمُـو مآبُـه[2]

ولهذا كـان حـديثهم عـن هذا الحيـوان وغيـره مـن الحيوانـات التـي نعتوهـا بهـذه النعوت تعبيراً عن جزعهم منها ومما توحي به من دلالات وكان لصوت الذئب وقع في نفوس الشعراء ، فإذا أرادوا ان يذكروا الفزع والرعب ذكروا عواءه ، قال الاعشى:

وعـين وحشـية أغفـت فأرقهـا صـوت الـذئاب فأوفـت نحـوه دأبـا[3]

---

[1] ديوانـه /40-41 . (التـلاد : المـال المـوروث) ، (رميمـاً : أي عظمـاً باليـاً) ، (الألـواح : حجـارة القبـر) ، (حثحثـه : لعلـه اراد بهـا الحفرة تحفر لـدفن الميت) ، (المكـلاح: القبيح) (القرواح : البارز الذي يستره شيء).

[2] ديوانه /289.

[3] ديوانه /361.

وتعد جزيرة العرب من المناطق الصالحة لمعيشة الأفاعي . لملاءمة المناخ والظروف الطبيعية التي يجد فيها هذا الحيوان قدرة على الحياة ، وقد ارتبط مفهوم الأفاعي بالجن وعدّ القدماء الحية بنت الجن وهي من اكثر الحيوانات وروداً في القصص الذي يرويه الاخباريون عن الجن[1] . وكان شكل الأفعى وما تحمله من السم إلى فريستها يبعث الهلع والرعب في نفوسهم ، ولهذا كانت صورتها تقترن بصورة القوة ، وأشار النابغة أليها في حديثه عن قلقه الذي صوره بقلق ملدوغ من أفعى رقشاء :

فبتُّ كأنّي ساورتني ضئيلةٌ من الرقشِ في أنيابِها السمُّ ناقُع[2]

ولشدة خوف الشعراء وجزعهم من العقارب كنوا المنية والشرور بها ، قال عروة:

فللموتِ خيرٌ للفتى من حياتِه فقيراً ومن مولى تدبُّ عقاربهُ[3]

ولنا بعد ذلك كله ان نقول ان الشاعر الجاهلي اتجه في هذا المضمار إلى اعلان اليأس والخوف والجزع ممثلاً الاتجاه السلبي او الاتجاه النقيض للاتجاه الإيجابي – الصبر – متخذاً من الشكوى والهجاء أسلوباً للتعبير عن الانفعال النفسي الذي تولد من الشعور باليأس والخوف في ان واحد مظهراً صفات الضعف والخور في مواجهة الحدث معتمداً في ذلك على القدرة الفنية في استثمار الظرف البيئي والاجتماعي والذاتي ....

وقد رأينا عظم معاناة الشاعر التي رهنت بظرفه الآني متخذاً إياها نقطة الانطلاق للخوض في جميع أبعاد تجربته ، فنجد الألم والخوف والجزع تعبيراً عن حالته ومعاناته . وإذا ما صادف تجربة آنية حفزته على الحديث عنها متخذاً الصيغ غير المباشرة والصيغ المباشرة في التعبير عن دواخله . وان ما نخرج به من دراسة النماذج يشير بشكل واضح إلى أنها اتخذت نمطاً عاماً ظل يتحكم في اكثر

---

[1] ينظر : تاريخ العرب قبل الإسلام ، جواد علي 47/5.

[2] ديوانه /156.

[3] ديوانه /29 المولى : ابن العم

اتجاهاتها ، مستثنين من ذلك التفاصيل الدقيقة التي كانت تنبثق من خلال الحدث الآني وان طبيعة ظروف الشاعر الخاصة وقدرته على المتابعة الفنية واستقصاء جوانب المشهد الشعري ، وطريقته في استثمار الجانب الموضوعي ، كان سبباً في منح نماذجه طابعاً خاصاً صور شخصية قائله ، سواء أكان ذلك في اتجاه هجائه للأعداء معطياً واقعاً حقيقياً ، ام متخذاً أسلوب المقارنة في بعض الأحيان اتجاهاً في معالجته الموضوعية لإظهار جزعه المؤلم والمعبر عن حالة الإثارة التي انتابت الشاعر في تلك اللحظة.

القائمة(1)

القائمة توضح عدد النصوص التي وردت فيها ظاهرتا الصبر والجزع ووفقاً لنوع المثير ، وقد جاءت هذه الإحصائية من خلال استقراء عدد من الدواوين الجاهلية وبعض كتب الاختيارات التي اعتمدت عليها الرسالة

المثير	نوعه	عدد المقاطع التي ورد فيها الصبر	عدد المقاطع التي ورد فيها الجزع
الذاتي	الموت والحياة	27	10
	فقد الأحبة	16	21
	الشيخوخة والهرم	8	21
	عقدة النقص	5	6
الاجتماعي	الحرب	30	15
	القبيلة	13	8
	العلاقات الأسرية	12	21
البيئي	شظف العيش	11	9
	الجبال والمراقب والرياح	9	–
	قسوة الصحراء	8	–
	الأطلال	–	10
	الحيوانات	–	8
مج		139	129

الفصل الثالث:

الدراسة الفنية:

أولاً : الألفاظ والتراكيب

ثانياً : الصورة الشعرية

ثالثا : موسيقى النص الشعري

أولاً : الألفاظ والتراكيب

أ-الألفاظ

تعد اللغة واحدة من أهم مكونات البناء الفني للقصيدة الشعرية، فهي العنصر الذي تقوم عليه القصيدة ، ولنا ان نفترض وجود قصيدة تخلو من الموضوع المفيد او من الصورة الموحية او من النغم الذي يتلاءم مع الموضوع المطروح ، ولكن لا يمكننا تصور قصيدة تخلو من الألفاظ والتراكيب اللغوية[1].

ويعتمد الشاعر الجاهلي في تشكيل تجربته والتعبير عنها على اللغة ، فتظهر مثقلة بأفكاره ومحملة بمشاعره فتتحول اللغة الى بنية دلالية معقدة يكشف عنها النظام اللغوي نفسه الذي صاغه الشاعر مجسدة الرؤيا الداخلية للنظام فيتبع وجود كل عنصر ومعناه وخصائصه من طبيعة العلاقات التي يختارها الشاعر فتتولد جدلية عميقة هي التي تؤسس المعنى .

فالشاعر لا يتعامل مع المفردات من حيث كونها مفردات معجمية فقط ولكنه يعامل مع تراكيب تقوم فيها المفردات بوظائف تكتسب فيها معاني جديدة لم تكن متوافرة لها من قبل . والكلمة في التراكيب غيرها مجردة مفردة. لان " الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها ، ولكن لان يضم بعضها الى بعض فيعرف فيما بينها من فوائد"[2].

وتتمثل " عملية الإبداع الشعري على نحو خاص في إبداع اللغة المتميزة بأسلوب ينفرد في نسج العلائق الفنية الجديدة بين المفردات "[3]. فتصبح ذات صفات خاصة خاضعة لشخصية الأديب وأسلوبه في كيفية صياغة التركيبية الفنية داخل البناء الشعري .

وما ان نقرأ دواوين الشعر الجاهلي الا وتستدعينا ألفاظه الى النظر والتأمل لما تحتويه من معانٍ إيحائية امتلكت قدرة عالية في التعبير عن المشاعر والتمكن

---

[1] ينظر : بناء القصيدة الغني في النقد العربي القديم والمعاصر /26.

[2] دلائل الإعجاز /415.

[3] الصور الفنية في نقد الشعر العربي الحديث / 105.

من طرح الأفكار بصورة عميقة تمكنه من نظم سياقات تشكل فيها الألفاظ تشكيلاً موحياً بمعانٍ كثيرة تنبثق من اللفظة بتواشجها مع سياقها وهو من أهم القضايا المؤثرة في الإبداع الفني ، لان قضية الإبداع في الشعر هي مسألة امتلاك القدرة على خلق البناء اللغوي المتجدد ، القادر على الكشف عن مكامن الذات من خلال امتلاكه الإيحاء الدقيق المعبر . وقد أشار الدكتور يوسف خليف إلى الدقة التي امتاز بها الشاعر الجاهلي في اختيار ألفاظه المعبرة وضرب الكثير من الأمثلة التي أكدت ما ذهب أليه[1].

وقد حظيت مفردة (الصبر) بأهمية كبيرة ، ومنزلة تبوأتها في نفوس شعراء العرب قبل الإسلام ، بعثتهم على الاتجاه إلى صورتها ليعبروا عنها بألفاظ وتعابير تمنح شعرهم قدرة توليد الرموز التي تزيد من إيضاح الصورة وتجسيدها فضلاً عن إن الشاعر المبدع يظهر تفوقه على من سواه ، بما يمنحه للمفردة من دلالات فنية متجردة . فهذا الحصين بن حمام المري يوظف مفردة الصبر في فخره بنفسه وبقومه في الحرب فيقول :

صبرنا وكان الصبر فينا سجيةً بأسيافنا يقطعن كفّا ومعصما
يفُلَّقن هاما من رجال اعزّةٍ علينا وهم كانوا أعق وأظلما[2]

وبصورة رائعة يصور خفاف بن ندبة صبره على صدود الحبيبة وبخلها في النوال والوصل ، وهذا ما نجده في قوله :

ان تعُرضي وتضنِّي بالنوال لنا فواصِلنَّ اذا اوَصلْتِ امثالي
اني صبورٌ على ما ناب معترفٌ أصرّف الامر من حال الى حالِ[3]

---

[1] ينظر : الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي / 286-289.
[2] ديوانه /112.
[3] شعره / 91.

ولكي تأخذ صورة الصبر ومفرداتها دلالاتها الواضحة ، ومضامينها فقد لجأ الشعراء الى استخدام الأسماء والأفعال التي توحي بفعل الصبر وقدرته . فكان جل اهتمامهم في هذا الجانب ينصب على الأفعال المشتقة من (الحلم والعزاء والجلد والجمل والتأسي)[1].

وهذا أمر ينم في تصورّي عن ثراء الشاعر اللغوي ، ووعيه بدلالات مفردات الصبر ومضامينها ، فضلاً عن القدرة على توظيف هذه الدلالات في تجسيد الصورة وتكوين الفكرة .

وكما هو معروف ان لكل مفردة ما يضادها ويرادفها في الحياة الاجتماعية واللغة . ومضاد الصبر – الجزع – وان كانت صور الجزع قليلة مقارنة لصور الصبر فان ظاهرة الجزع ظاهرة نفسية تعبر عن الواقع المعاش في تلك اللحظة وقد عبر عنها الشاعر برموز وإيحاءات مختلفة وبصور غير مباشرة احياناً . فهذه سعدى بنت الشمردل ترثي أخاها ، ما ان وجدت منفذاً حتى أطلقت صرختها الباكية بحرقة جاعلة من صورة الجزع مادة لتصوير حرقتها لفقد أخيها :

وتبـــيّن العـــينُ الطّليحـــةُ انهـــا تبكـــي مـــن الجـــزع الـــدّخيل وتـــدمعُ
ان الحـــوادث والمنـــون كليهمـــا لا يُعْتِبـــان ولـــو بكـــى مـــن يجـــزعُ[2]

ومما يميز أسلوب ذكر الجزع ، وتوظيفه في بنيته ، وروده بصيغ معنوية اكثر مما يكون لفظياً ، وان كان الشاعر الجاهلي قد آتى بألفاظ أخرى مشتقة من الجزع وهي (الملل والسأم)[3].

---

[1] ينظر: الجدول (1).

[2] الاصمعيات / 102.

[3] ينظر : الجدول (2).

ثم ان رغبة الشعراء في استكمال جوانب التعبير جعلت الصور التي قدموها لمفردتي الصبر والجزع ، اقرب ما تكون الى مشاهد واقعية ، ينقل فيها الشاعر ملاحظاته بكل وضوح ودقة فنية . فهو حين يذكر الصبر او الجزع لا تغرب عن ذهنه الآثار التي تتركها في نفسه .

ومن الظواهر اللفظية التي حاول الشعراء من خلالها إضفاء عنصر الجمال على أشعارهم ظاهرة التكرار التي تتمثل في تكرير الشاعر لفظة بعينها في البيت الشعري الواحد ، او الأبيات المتوالية لزيادة النغم وتقوية الجرس فضلاً عن تعميق المعنى الذي يحمله اللفظ المكرر.[1]

ففي إطار الجانب الصوتي وما يحققه من غاية موسيقية يقع قول عبيد بن الأبرص في تصبير النفس ، حيث كرر لفظة الصبر ليؤكد المعنى الذي يطمح في إيصاله للملتقي وهو تصبير النفس وتعويدها على التجلد ، قائلاً:

صَبّر النفس عند كُلِّ مُلمٍّ ان في الصّبرِ حيلةَ المحتالِ[2]

واستخدم الحصين بن حمام التكرار اللفظي في فخره بأقدام قومه في الحروب فكان ان عمل على توظيف التكرار للتعبير عما يرمي اليه ، فكرر لفظة (صبر) ليؤكد تجلد قومه ،فضلاً عما يحققه التكرار من تقوية الموسيقى الداخلية في البيت الشعري وذلك في قوله :

صبرنا وكان الصبر فينا سجيةً بأسيافنا يقطعن كفّا ومعصما[3]

ولا نعدم وجود أبيات كان التكرار اللفظي وما يحدثه من انسجام صوتي الهاجس الأول للشاعر فيها ولاسيما إذا كان الشعر في الرثاء ، ذلك ان التكرار جزءاً

---

[1] ينظر : المرشد 568/2.

[2] ديوانه /112.

[3] ديوانه / 112 .

مهماً من شعائر الحزن على المرثي [1]وتصوير لوعة فقده ، وهذا ما يطالعنا في شعر النمر بن تولب الذي رثى اخوته ، إذ سخر تكرار لفظة (جزع) في خدمة صورة الجزع التي حاول من خلالها إبراز شمائل اخوته ،وهذا ما نجده في قوله :

جزعــاً جزعــت علــيهم فــدعوتهم لــو يسـمعون وكيـف يُـدعى الهـامُ[2]

واستخدم زهير بن أبي سلمى تكرار(سئم) ليؤكد جزعه من الحياة فجاءت حكمه مشوبة بالألم والتفجع ، اذ يقول :

سِـئْمُت تكـاليف الحيـاة ومـن يعـش ثمـانين حـولاً – لأبالـك – يَسْـأمِ .[3]

ومن الظواهر اللفظية الأخرى الجناس الذي يعد شكلاً من أشكال التكرار .[4]" وهو أن تجيء الكلمة تجانس أخرى في بيتِ شعرٍ أم كلام ومجانستها لها أن تشبهها في تأليف حروفها "[5].وقد وظف الشاعر العربي قبل الإسلام الجناس في إطار توظيفه الصبر لخدمة صورته صوتياً ، وذلك من خلال المشاكلة بين ألفاظه ، قال تأبط شراً :

وأجمـلُ مـوتِ المـرءِ ، إذ كـان ميتـاً ولابـدّ يومـاً ، موتــه وهــو صــابر
إذا راع روع المــوتِ راع ، وان حَمَــى حَمَـى مَعَـهُ حُرٌّ ، كريَمٌ ، مصابرُ .[6]

فجانس بين اللفظتين (صابر) و(مصابر) جناساً اشتقاقياً معززاً بذلك الموسيقى الداخلية ، وعاملاً على إتمام المعنى وتقويته في ذهن المتلقي من خلال

---

[1] ينظر: الصورة في الشعر العربي حتى أواخر القرن الثاني الهجري /219.

[2] شعره /13.

[3] ديوانه 30 .

[4] المرشد 232/2 .

[5] علم البديع /186 .

[6] ديوانه /85 .

توظيف الجناس لخدمة صورة الصبر التي حاول من خلالها إبراز شجاعته واستسلامه للموت .

ويرسم اوس بن ربيعة الأسلمي صورة رائعة وهو يشكو من شيخوخته من خلال توظيفه للجناس الاشتقاقي في إبراز صورة الجزع وذلك في قوله :

لقد خُلِّقت حتى مَلَّ أهلي ثوائي فيهم ، وسئمت عمري
وحق لمن أتت مائتين عامٍ عليه وأربعٌ من بعد عَشْرِ
يَمَلُّ من الثواء وصبح يومٍ يغاديه ، وليلٍ بعْدُ يَسْرِيَ[1]

فالشاعر في شكواه حاول رسم صورة في ذهن المتلقي من خلال إسباغ صفات الشيخوخة عليه ، فجانس بين اللفظتين (ملّ) و (يمل) لتقوية جرس الألفاظ التي اكتملت بها صورة الجزع ودلالتها في شكواه.

ويعدُّ الطباق من الظواهر اللفظية وهو الجمع بين المتضادين في كلام او بيت شعري [2]، وهو من الفنون اللغوية التي طرقها الكثير من شعراء ما قبل الإسلام ، لخدمة السياق الشعري ، لما له من قدرة على إبراز المعنى ، ورسم ما في ذهن الشاعر من خلال تلك الضدية التي تجذب الانتباه ، وتمنح إيحاءات ودلالات مكنونة في صياغتها.

ونجد مثل هذا الأسلوب عند فقد الشاعر أحبته ، فكثيراً ما اظهر الشاعر حزنه وجزعه على الفقيد ، ثم لا يلبث ان يلجأ الى الصبر ، ويظهر هذا التنوع في العاطفة عند أعشى بأهلة الذي مزج بين الجزع والصبر في رثائه لأخيه ، حينما قال :

فان جزعنا فقد هدت مصيبتنا وان صبرنا فانا معشر صبر[3]

---

[1] المعمرون والوصايا /94.

[2] ينظر : البرهان 455/3، البلاغة والتطبيق /438.

[3] مختارات ابن الشجري / 8. وينظر : الحماسة البصرية 250/1.

ب- التراكيب

لقد برع الشاعر العربي في توظيف التراكيب في فنه الشعري ، ومن جملة الظواهر المرتبطة بالتراكيب – التوكيد – فـ(العرب لم تكتف بمؤكد واحد بل هي تتكلم على حسب الحاجة ، فإذا كان المخاطب لا يحتاج الى توكيد الكلام لا تؤكد ، وإذا كان يحتاج إلى مؤكد واحد جاءت له بمؤكد واحد ، وإذا احتاج إلى اكثر جاءت له على قدر حاجة المخاطب اليه) [1]، ومن ذلك توظيف عنترة لأسلوب التوكيد بـ (لقد) في فخره بنفسه في الحروب التي خاضها محاولاً بذلك معالجة عقدة النقص التي كان يحملها ، وهذا ما يطالعنا في قوله:

ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها قيل الفوارس ويك عنترَ اقدمِ[2]

وترد الظاهرة نفسها في قول عدي بن زيد الذي أكد صبره على الحياة مستخدماً (إن) في قوله :

غيران الأيام يغدرن بالمر ءِ وفيها الميسور والمعسور
فاصبر النفس للخطوب فإنّ الد هر يدجو حيناً وحيناً ينير[3]

ويشير بشامة بن عمرو إلى بخل الحبيبة مما أتاح له القدرة على إظهار جزعه مستخدماً أسلوب القصر لتوكيد جزعه ، اذ يقول :

وما كان اكثر ما نولت من القول الا صفاحاً وقيلاً[4]

---

[1] معاني النحو 511/4.
[2] ديوانه /219.
[3] ديوانه /87.
[4] المفضليات 54/1.

ولما كان أيقاد نار الحرب من الحقائق التي يمكن إنكارها احتاج الشاعر العربي إلى توظيف أسلوب الشرط ليعرف المتلقي ان تلك الحروب موجودة فعلاً وينجم عنها الكوارث ، ومن ذلك جزع زهير بن أبي سلمى من الحرب ، اذ يقول:

متى تبعثوها تبعثوها ذميمة وتضر اذا ضريتموها فتضرمِ[1]

ويسلك المثقب العبدي المسلك نفسه في حالة إثبات حالة الجزع من كثرة الترحل والتنقل ، مستثمراً من (إذا) أداةٍ للتعبير عن مقدرته على طرح المعاني بأسلوب رفيع يأخذ بالسامع منذ أداته التي تكررت في البيتين إلى فعل الشروط وجوابه ، حين يقول :

إذا ما قمت أرحلها بليلٍ تأوه آهة الرجل الحزين

تقول إذا درأت لها وضيني أهذا دينه أبداً ودينـي[2]

وبحد أسلوب الشرط في قول الخنساء التي أخذت تصبر نفسها على فقد أخيها ، فقد وجدت في الشرط خير ما تستعين به لإيضاح معانيها وضمان تأثيرها في نفوس سامعيها ، فقالت :

فلولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي[3]

وجسد تأبط شراً صبره على الموت واستسلامه للقدر ، بأسلوب يُنبىء عن مقدرته في استخدامه خدمة للمعنى الذي أراده ، اذ يقول :

إذا راع ورع الموت راع ، وانْ حمى: حَمَى معه حرٌّ ، كريمُ ، مصابرٌ[4]

ولما كانت الحاجة إلى الاستفهام تظهر عندما يطلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل [5] احتاج الشاعر العربي قبل الإسلام إلى الاستفهام ليكشف عن حيرته ، وهو استفهام تقليدي يشيع في لوحات وصف الأطلال ، قال عبيد:

---

[1] ديوانه /19.

[2] ديوانه / 194

[3] ديوانها /119.

[4] ديوانه/85.

[5] ينظر :فن البلاغة /122.

أمن منزلٍ عافٍ ومن رسم أطلال بكيت؟وهل يبكى من الشوق أمثالي[1]

الا ان ألفاظ الاستفهام قد تحمل معاني أخرى غير المعاني الأصلية تستفاد من سياق الكلام [2] ، ومن ذلك استفهام النفي الذي وظفه ابو كبير الهذلي للزمان الذي أفزعه بقوله :

أزهير هل عن شيبةٍ من معدلٍ ام لا سبيل الى الشباب الاولِ[3]

ومنه الاستفهام الإنكاري الذي ينكر الشاعر فيه صدور فعل ما كان ينبغي ان يصدر ، نحو قول أبي عداس النميري الذي استنكر فقده لابنه عداس ، فقال :

أعدّاس هل يأتيك عني أنه تغيّر خلاّن فطال شحوب

أعدّاس ما أدراك ان رب هالك تقطّع من وجد عليه قلوب[4]

فالاستفهام هنا أعطى البيت الشعري قوة في التعبير عن شدة ارتباط الشاعر بابنه ن وهي حقيقة كان التعبير عنها بالاستفهام أبلغ من التعبير عنها بالخبر واعمق تأثيراً في وعي الملتقي.

ونخلص من ذلك الى ان الألفاظ في الشعر العربي قبل الإسلام – ولاسيما في موضوع الصبر والجزع – كانت تتفاوت بين الجزالة والغرابة ولاسيما في مقاطع الجزع وبين الرقة والسهولة وذلك في الأشعار التي تضم مقاطع الصبر ، وقد لاحظت من خلال معجم الألفاظ ان صورة الصبر ومفرداتها كانت تحتل خيزاً كبيراً من حياة العرب في ذلك العصر . اذ كانت صفة يفتخر بها العربي الأصيل فضلاً عن أنها وسيلة في التعبير عن المشاعر ، لذا جاءت ألفاظها كثيرة كثرة ملحوظة .

---

[1] ديوانه /112

[2] ينظر : علم المعاني /104.

[3] شرح أشعار الهذليين 1069/3.

[4] المؤتلف والمختلف /162.

الجدول (1)

معجم ألفاظ الصبر [1] .

	الألفاظ	عـــــدد مـــــرات ورودها	المعنى
1	الصبر [2]	45	نقيض الجزع ، صَبَرَ يصبرُ صَبْراً ، فهو صابر وصَبار وصَبِيرُ ، وصُبُرُ ، والصّبْرُ: الجرأة ، وسُمي الصوم صبراً لما فيه من حبس النفس عن الطعام والشراب والنكاح وفي أسماء الله تعالى : الصبور وهو من أبنية المبالغة ومعناه قريب من معنى الحليم . لسان العرب مادة /صبر
2	الحلم [3]	8	الاناةُ والعقل ، وجمعه أحلام وحلوم ، واحلام القوم : حُلماؤهم ورجل حليم من قوم أحلام وحلماء . والحِلْمُ : نقيض السّفه والحليم في صفة الله عز وجل معناه صبور ، وقال معناه انه الذي لا يستخفه عصيان العصاة ولا يستفزه الغضب عليهم . لسان العرب مادة /حلم

[1] جاءت الإحصائية من خلال استقرار مجموع الدواوين والاختيارات التي رجعت أليها الرسالة .

[2] ينظر : مختارات ابن الشجري (أعشى بأهلة /8 مرتين) ، الحماسة البصرية (الغطمش الظبي) 250/1 (مرتين) ، متمم /132، كتاب المعمرين (جروة بن يزيد) /60 الحصين /112، المهلهل /324 ، عنترة /264،299،275 ، بشر /28، الاصمعيات (المفضل النكري) / 232، علقمة /92، عامر بن الطفيل / 62، طفيل الغنوي /16 المفضليات (عبد يغوث) /315/ خفاف /91 ، ذو الاصبع /90، امرؤ القيس /278 (مرتين) ، طرفة / 76 (مرتين) 82 ، تأبط شراً /81-82 (مرتين) ، كتاب المعمر ين (فالج بن خلاوة) 77/2 ، ديوان الهذليين (ابو ذويب) 68/1 ، عبيد /128 ، عدي /87 ، سلامة /47 ، الاعشى /211، 217 ، ديوان الهذليين (ابو خراش) 1195/3، 1189 ، دريد /63، الخنساء /62-63 مرتين) ، 45، الاصمعيات (ذو الخرق الطهري) 124.

[3] ينظر / ديوان الهذليين (ابو ذؤيب) 68/1 ، المهلهل /241، طوفة /199 ، 201 (مرتين) قيس بن زهير /33(مرتين) ، اوس بن حجر /99.

	الألفاظ	عـــــدد مـــــرات ورودها	المعنى
3	العزاء[1]	6	والعزاء أيضاً الصّبر . يقال : (عَزّاه تَعزِية فتعزّى). لسان العرب مادة (عزا)
4	الجلد[2]	3	القوة والشدة . والجلد الصلابة والجلادة تقول منه : جلُد الرجل ، بالضم ، فهو جَلد جليد وبين الجلد والجلادة والجلودة. لسان العرب مادة /جلد
5	جمل[3]	1	المجامل: الذي لا يقدر على جوابك فيتركه ويحقد عليك الى وقت ما ، وقول ابي ذؤيب: **جمالك ايها القلب القريحُ ستلقى من تحب فتستريح** يريد الزم تجملك وحياءك ولا تخرج جزعاً قبيحاً لسان العرب / جمل
6	التأسي[4]	1	(أسّاه تأسية) عزّاه و (آساه) بماله (مؤساة) أي جعله أسوته فيه و (واساه) لغة ضعيفة فيه .(والأَسِوَة) بكسر الهمزة وضمها لغتان وهو ما (يَأتسي) به الحزين يتغذّى به وجمعها (أُسَىً) بكسر الهمزة وضمها ثم سُمّي الصَّبْرُ أسَّى. و(تأسَّى) به تَعَزّى و(تآسوْا) أي آسى بعضهم بعضاً. لسان العرب / مادة (أسا).

[1] ينظر : الخنساء /45،119 (مرتين) ، الاصمعيات (المفضل النكري /232، عمرو بن معد يكرب /68 ، دريد /49 ، متمم /132.

[2] ينظر : الحماسة البصرية (الغطمش الضبي) 250/1 ، دريد / 233، قيس بن الخطيم / 166.

[3] ينظر / قيس بن الحدادية /39.

[4] ينظر / الخنساء /119.

معجم ألفاظ الجزع [1] .

الألفاظ	عدد مرات ورودها	المعنى
جزع[2]	5	قال تعالى : اذا مسه الشّر جزوعاً واذا مسه الخير منوعاً ، الجزوع : ضد الصبور على الشر والجزعُ نقيضُ الصبر . جَزِع، بالكسرة يجزعُ جزعاً ، فهو جزوعٌ وجزاعٌ والِهْجَزاع: الجبان، هِفْعَل من الجزع ، هاؤه بدل من الهمزة. لسان العرب / مادة جزع.
سئم[3]	5	سئم الشي وسئم منه وسَئِمْتُ منه أسْأمُ وسآمَةُ: مَلَّ ، ورجل سؤومٌ وقد أسْأَمَهُ هو . وفي الحديث : ان الله لا يسأمُ حتى تسأموا ، قال ابن الاثير : هذا مثل قوله لا يملُّ حتى تملُّوا ، وهو الرواية المشهورة ، والسأمةُ: الملل والضجر. لسان العرب مادة /سأم
ملل[4]	5	الملالُ وهو ان تَمَلَّ شيئاً وتعرض عنه ، قال الشاعر وأُقْسِمُ ما بي جفاءٍ ولا مَلل. لسان العرب / مادة ملل.

ثانياً : الصورة الشعرية:

---

[1] جاءت الإحصائية من خلال استقراء مجموع الدواوين والاختيارات التي تضمنها الرسالة.

[2] ينظر : الاصمعيات /101-102 (مرتين) ، العمدة 153/2 ، النمر بن تولب/13 (مرتين) .

[3] ينظر : المعمرون والوصايا /94 ، ديوان زهير /30(مرتين)، طبقات الشعراء /29، عدي بن زيد /40.

[4] ينظر / المعمرون والوصايا /94(مرتين) ،شعر النمر بن تولب /118، عشرة شعراء مقلون /44، المعمرون والوصايا/84(مرة واحدة).

يستأثر مفهوم الصورة في الدراسات النقدية القديمة باهتمام كبير ، فليس ثمة شاعر يقدم على قرينه إلا ذكر ان سبب تقديمه أمر يتعلق بالصورة. وللباحث ان يراها في مسميات التشبيه والاستعارة والكناية وغيرها .[1]

ويكاد الجاحظ (ت255هـ) يكون اول ناقد عربي يتناول مصطلح (الصورة أو التصوير) في آرائه النقدية مركزاً على مفهومه فيقول : " وإنما الشعر صناعة ، وضرب من النسج وجنس من التصوير "[2].

ثم يتقدم عبد القاهر الجرجاني (ت471 هـ) ليمنح مفهوم هذا المصطلح صياغة جديدة تمتاز بالدقة والوضوح الذي بدا في قوله :" ومعلوم ان سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة ، وان سبيل المعنى الذي يعبر عنه الشيء الذي يقع للتصوير والصوغ فيه ،كالقصة والذهب يصاغ منهما خاتم او سوار "[3]. كما حاول نقاد محدثون تقديم تعريفات لمصطلح (الصورة) ،معتمدين على أسس متباينة نتج عنها تباين واضح في تعريفاتهم لها ، وإذا كان المفهوم القديم قد قصر الصورة على التشبيه والاستعارة والكناية[4]....فالمفهوم الجديد يوسع من إطارها وقدرتها في ترك الأثر عند الملتقي ، فتارة هي طريقة التعبير عن المرئيات والوجدانيات لإثارة مشاعر الملتقي وأفكاره [5]، وتارة أخرى هي ثمرة عاطفة الأديب وما يشعر به من انفعالات متباينة يعبر عنها بوساطة أساليب مجازية تكتسب صياغتها الأدبية تفرداً واضحاً[6]. وقد حاول الدكتور مرشد الزبيدي ان يحدد للصورة إطاراً متكاملاً ويمنحها ذاتية واضحة داخل البناء الكلي للقصيدة ، اذ مثلت لديه أداءً فنياً قائماً على أسس جمالية

---

[1] ينظر : الصورة الفنية في النقد الشعري /42.

[2] الحيوان /132.

[3] دلائل الأعجاز /255.

[4] وقد تناول د. عبد الإله الصائغ أراء نقادنا القدامى في الصورة والتصوير في كتابه (الصورة الفنية معياراً نقدياً) / 107-125.

[5] ينظر : الصورة في شعر الاخطل الصغير/35.

[6] ينظر : اتجاهات النقد الأدبي في القرن الخامس الهجري/368.

، يحمل بين طياته دلالات مختلفة غير محددة ، تعبر عن جوهر تجربة معينة ، متخذاً مكانة مهمة في البناء الكلي للنص الشعري[1].

ولنا ان نلاحظ هنا دقة تحديده لمفهوم الصورة إذ تظل العلاقة بين الصورة والسياق الكلي للتجربة الشعرية المحور الأساس الذي ينبغي ان تنبع منه الدراسة فلا يمكن ان نفهم دور الصورة في القصيدة إلا ضمن سياقها في العمل الشعري كما أننا لا نستطيع مناقشة بنية النص الشعري من دون النظر إلى فعل الصورة ضمن تجربة الشاعر ، حيث تشكل ملمحاً بارزاً في البنية الشعرية التي تتألف من مجموعة من العناصر المتصلة بعضها مع بعض في بناء شعري يفضي إلى توصيل الأفكار والعواطف.

وبذلك تكمن أهمية الصورة في كونها تزيل عن العمل الفني أي صيغة تقريرية مباشرة ، وتتوخى التعبير عن أغوار النفس ، فتصبح الألفاظ ضمن هذا الأسلوب الابداعي حركة تفاعل ومعطيات تتدفق المشاعر الإنسانية خلالها فتخلق قيمة جمالية فضلاً عن قيمتها الفنية وقيمتها الموضوعية .

ويعتمد هذا كله على القدرة الإبداعية ، وطبيعة التجربة الموضوعية التي تملي على الشاعر صيغة متفردة تبرز شخصيته ، وتعبر عن مكامن ذاته بالشكل الذي ابتغاه هو ، وعلى الهيأة التي أرادها. وبذلك تعد الصورة أهم أداة فنية يتخذها الشاعر لإبراز تجربته الموضوعية وتجسيمها وطرح معاناته من خلال أساليبها المختلفة مع العناصر الأخرى بناءً كلياً متكاملاً.

---

[1] ينظر : بناء القصيدة الفني في النقد العربي القديم والمعاصر /52.

وسائل التصوير:

ان للصورة الشعرية منطقاً خاصاً " وهو منطق يختلف تماماً عن المنطق الذي تتبعه الكلمات في تآلفها لتشكل جملة في الكتابة النثرية . الألفاظ في هذا النوع الأخير من الكتابة تتجمع لتؤدي معنى ، ومعنى واحداً يكون هو بعينه المقصود من خلال الجملة . بينما في الصورة الشعرية يتحكم اللامنطق في تكوين عناصرها.او بالأحرى هنالك منطق خاص لا يخضع للمقاييس العقلية التقليدية"[1].

إذن للصورة الفنية منطق تعبيري يخرجها من الاتجاه التقريري النفعي [2] ويدخلها في عالم المجاز الواسع ، ويدخل تحت مفهوم المجاز : التشبيه والاستعارة والكناية وغيرها ، فهذه الوسائل البيانية ما هي الا مظاهر الصورة في التعبير ، تتزاوج عن طريقها " المقومات الحسية والعقلية لتبني تصوراً جديداً بإقامة علاقات اسنادية تذيب شيئية الجزئيات ودلالاتها المباشرة (بالتوهم و التخيل)[3]، لقد اعتمد الشعراء على مختلف الأساليب البيانية في صوغ صورهم ، فما كان همهم ان يأتوا بتشبيه او استعارة او كناية ، وإنما كان همهم الأول والأخير ان ينقلوا ما يعتمل في نفوسهم وخواطرهم نقلاً دقيقاً ويعبروا عما يختلج في كيانهم من أحاسيس بأدق صورة من الصور التعبيرية ليصلوا إلى ما يشعرون به ، ومن أهم هذه الوسائل عند الشعراء.

---

[1] الصورة الشعرية والبلاغة – بحث– /26.

[2] ينظر : بناء الصورة الفنية في البيان العربي /268.

[3] المنظور البلاغي في نقد الشعر ، بحث /196.

1 – التشبيه :

يعدّ التشبيه من الوسائل البيانية التي تعتمد على " عقد الصلة بين شيئين او أشياء لا يمكن ان تفسر على الحقيقة لأنها لو فسرت كذلك لأصبح كذباً "[1]، ومن هنا تأتي مجازية هذه الوسيلة البلاغية وجماليتها الادائية .

وقد لقيت هذه الصيغة البلاغية عناية كبيرة من نقادنا القدامى فهي الوسيلة الصورية المفضلة عند جميع هؤلاء النقاد تقريباً ، وذلك لأنهم –من جهة – رأوا التشبيه اللون الذي جاء كثيراً في أشعار العرب قبل الإسلام وكلامهم ، حتى لو قال قائل : " هو اكثر كلامهم لم يبتعد "[2]، ولأنهم من جهة أخرى لمسوا فيه القدرة على توفير الومضة الجمالية السريعة التي أحبوها . وقد عده بعضهم أصلاً من أصول الشعر ، بل بمنزلة المديح والرثاء والهجاء من الشعر [3]

ولا عجب من امتلاك هذا الأسلوب البياني أرضية واسعة وقف عليها الشعراء في رسم صورهم الفنية ، فهو أسلوب امتاز بالوضوح والقدرة على التعبير عن خلجات النفس تجاه محيطها ، ولذلك ارتبطت هذه الوسيلة البيانية بأعماق ذات الشاعر ومكامن رؤاه مبتعدة عن أية سطحية كان من الممكن ان ينظر بها الى الأشياء فجاءت صورة مثقلة بالمشاعر ومعبرة عن المعاناة والعاطفة ومنها مشاعر الصبر والجزع ، ومن ذلك قول النمر بن تولب:

أصبحت لا يحمل بعضي بعضا أشكو العروق النابيات نبضا
كما تشكي الارحبيُّ الغرضا كأنما كان شبابي قَرْضَاْ[4]

فقد طوع الشاعر هذه الصورة ليبرز لنا مشاعر الفزع والخوف التي كان عليها في تلك اللحظة . فالشاعر ينطلق من واقع بيئي واجتماعي ليرسم ملامح معاناته

---

[1] فنون بلاغيه /36، وينظر : نقد الشعر /124، مفتاح العلوم /588، البرهان 414/3.
[2] الكامل 818/3.
[3] ينظر على سبيل المثال : قواعد الشعر /37، ونقد الشعر /58.
[4] شعره /70 .

،والشعراء عادة ما يركزون في صورهم التشبيهية على " تقرير حالة ذهنية وصيغة معنوية في مشاهد بيئية ، وذلك لحرصهم على الوضوح والابانة ولتكون أشد وقعاً وتأثيراً في المتلقي "[1] واستخدام امرؤ القيس التشبيه للتعبير عن جزعه من خلال تشبيه نفسه بالنساء اللواتي في الهوادج لعجزه عن القيام والحركة وذلك في قوله :

فأمـــا تريـنـــي فـــي رحالـــةِ جـــابرٍ علـى حـرجٍ كـالقّرِ تخفـقُ اكفـاني[2]

وقد يميل الشاعر الجاهلي إلى اتخاذ اتجاه بعينيه في رسم صورة لذلك امتلكت الكثير من الصور التشبيهية صفة مادية ولكننا لا نملك تجاهها الا ان ننعتها بالجمال والدقة حيث استطاعت ان تستوعب مما جال في نفسه وان تعبر عنه بصورة دقيقة كصورة عروة حينما شبه نفسه بالفرخ العاجز عن القيام والحركة مبيناً من خلالها مدى ضعفه وجزعه من الشيخوخة ، التي هي وليدة تجربته القاسية ، اذ يقول :

رهينـــة قعـــر البيـــت كـــل عشـــية يطيـف بـي الوالـدان اهـدج كـالرالِ[3]

ومن هنا نتمكن من تلمس طبيعة هذه الصور في البنية الفنية والفكرية ، اذ تنبع أهميتها من توظيفها الخاص في تقديم المعنى ، وتأثيرها في المتلقي واثر تلك الاستجابة التي تصاحبه لتحفزه على نوع من الاستدلال ينشط في ذهنه ، ويشعره انه إزاء نوع من فاعلية هذه الصور التي تدفعه إلى تأمل علاقات التبادل والتناسب التي

---

[1] الصورة البيانية في الشعر العربي /173.

[2] ديوانه /90.

[3] ديوانه /114.(رَهَن) الشيء دام وثَبَتَ . (الرال) : الفرخ.

تقوم عليها الصورة من خلال التشبيه ، الذي حدد قيمة هذه الصور وبراعتها البيانية [1].

ويوظف الشعراء التشبيه في غرض الوصف اذ يحاول اغلبهم من خلاله رسم صورهم الشعرية كالذي نجده عند الأعشى والذي يعكس صبره على ابنته طالباً منها ان يكون صبرها شبيهاً بصبر تلك التي عندما غاب وافدها انتظرته آملة في رجوعه سالماً ، اذ يقول :

كـوني كمثـل التـي إذ غـاب وافـدها أهـدت لـه مـن بعيـد نظـرةً جزعـا[2]

وسلك الشنفرى المسلك نفسه في تصوير صبره على الجوع وتشبيه انطوائه بانطواء الحبل ولفه والبيت يوحي بحالته النفسية التي كانت تتسرب من خلال الصورة بشكل غير مباشر ، فالبيت عميق الدلالة على حالته النفسية وما كان يعانيه من إحساس عميق باليأس ، اذ يقول :

واطوي على الخمص الحوايا كما انطوت خيوطـــة مـــاريٍّ تغـــارُ وتفتـــل[3]

فاستخراج وجه الشبه بين المشبه والمشبه به يدل على قوة الملاحظة لدى الشاعر الذي ينبغي " ان تكون له معرفة بنعوت الأشياء التي من شأن الشعر ان يتعرض لوصفها ..... وان تكون له قوة الملاحظة لما يناسب الأشياء والقضايا الواقعة من أشياء أخر تشبهها"[4]. وقوة الملاحظة تكون في إعطاء الصورة الشعرية

---

[1] ينظر : الصورة الفنية في التراث النقدية والبلاغي /71.

[2] ديوانه /153.

[3] شعره /74. (الخمصُ) : خلاء البطن من الطعام جوعاً. الحوايا : الامعاء ، الماري : الحائك ، تغار : تفتل خيوطه.

[4] منهاج البلغاء وسراج الأدباء/42.

– من خلال الإبداع والتفرج – الإحساس بالتصديق [1]. ويصف الاعشى تجلده على الراحلة في يوم شديد الحر ، بقوله:

ويــومٍ مــن الشّــعرى كــأن ظبــاءَهُ كواعــبُ مقصــور عليهــا ســتورها
عصــيتُ لــه رأســي وكلّفْــتُ قطعــهُ هنالــك حرجوجــاً بطيئــاً فثورهــا
تــدلت عليــه الشــمس حتــى كأنهــا مــن الحــرِّ ترمــى بالســكينة قورهــا
ومــاءٍ صــرٍ لــم ألــقَ الا القطابــه ومشــهورة الاطــراقِ ورقــاً نحورهــا
كــأن عصــير الضــيح فــي ســديانه دفونــاً وأســداما" طــويلا" دثورهــا
وليــلٍ يقــول القــومُ مــن ظلماتــهِ ســواء بصــيرات العيــون وعورهــا
كــأن لنــا منــه بيوتــاً حصــينةً مســوح أعاليهــا وســاج كســورها
تجاوزتــه حتــى مضــى مــد لهمُّــهُ ولاحَ مـن الشـمسِ المضـيئةِ نورهـا[2]

وهكذا نجد " ان ما يمنح الصورة فاعليتها ليس حيويتها كصورة بقدر ميزتها كحادثة ذهنية ترتبط نوعياً بالإحساس "[3]وهذا ما نلمسه عند تأبط شراً الذي وصف لنا جزعه من مواجهة الموت فكان اكبر جزعه من ان تترك جثته لتنهش منها الضباع ، فيقول :

ولقــــد علمــــتُ لتعــــدونّ علــــيّ شِــــيمُ كالحســــائلِ
يــــأكلْن اوصــــالاً ولحــــ ــــماً كالشــــكاعي غيــــر جــــادل

---

[1] ينظر : الشيب والهرم /124.

[2] ديوانه /373. (القور) : جمع قارة وهي الصخرة السوداء، (القطا) : الطائر (الضيح) : اللبن ، (المسوح): الثوب الخشن المنسوج من الشعر . (الساج) الطيلسان الأسود او الأخضر ،(مدلهمّهُ) : مظلمة .

[3] نظرية الأدب /241.

يـــــــاطيرُ كُلْـــــــنُ فـــــــإنّني ســـــمٌ لكـــــنّ وذوُ دغـــــاول[1]

ولكن هذه الصور على الرغم مما اتسمت به مثلت فرصة إبداع متميزة بحيث أننا في كل صورة من هذه الصور البيانية ذات الرؤية الشخصية المكثفة والمكيفة للتأمل الشعري نحس بقدرة الشاعر على توظيف ما بين يديه من مكونات رسم من خلالها صوراً اختلفت باختلاف ظرفه القائم .

ويحق لنا بعد ذلك ان نقول ان التشبيه مثل بؤرة الصور البيانية عند الشاعر الجاهلي وعليه عول في إظهار القدرة والبراعة في إثبات جزعه من المثيرات اكثر من صبره عليها ولا سيما جزعه من الشيخوخة من خلال توليده لصور متنوعة ذات دلالات ايحائية يبثها في نصوصه فيرسم من خلالها أفكاره ومشاعره وبما يتناسب مع الجانب الموضوعي ، مرتفعاً بها فوق أي صبغ لغوية مألوفة ، لذا كان التشبيه اكثر الصيغ البيانية جذباً لانتباه الشاعر وأكثرها إثارة لإعجاب المتلقين .

---

[1] ديوانه /195. (شيم) : سود ، الحسائل:جماعة البقر ، غير جادل : ليس غليظ ، الشكاعي : نبت، دغاول : دواهي.

2. الكنايــة :

تعد الكناية من المجاز لكونها نمطاً من التعبير يريد المتحدث به " اثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له من اللغة ، ولكن يجئ إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومئ به اليه ويجعله دليلاً عليه "[1]. ان أهم ما في الكناية معرفة خفاياها ودلالاتها الإيحائية التي تخرج من مكامن ذات الشاعر لتفصح عن بنية تتشابك فيها العلاقات وتتفاعل لتنتج اثراً فعالاً ينفتح على العمل الفني ويضيء أبعاده ، كما انه يضاء بأبعاد هذا العمل . ولا يخفى ما للكناية من أهمية حيث تقف إلى جانب التشبيه والاستعارة في كونها وسيلة من وسائل تشكيل الصورة الشعرية ، وأكد أهميتها هذه عبد القادر الجرجاني في قوله :" قد اجمع الجميع على ان الكناية ابلغ من الإفصاح والتعريض أوقع من التصريح "[2]، فالتعبير بها له منزلة التصوير بالاستعارة،فكل منها يصدر عن ذائقة فنية ، وقيمة بلاغية تتعلق بفن القول ، وهي غاية لا يصل أليها الأمن لطف طبعه ، وصفت قريحته ، والسر في بلاغتها إنها : " تعطيك الحقيقة مصحوبة بدليلها ، والقضية وفي طيها برهانها "[3] والكناية هي أحد الفنون البيانية التي وظفها الشاعر الجاهلي في توليد صوره لتوضيح أفكاره ومعانيه لما تمتاز به من تعدد الإيحاءات التي تمنحها للنص مع البراعة في الايجاز والتعبير ، فعندما أراد امرؤ القيس التعبير عن الموت متمنياً اياه ، كنى عنه بقوله :

---

[1] دلائل الأعجاز /105، وينظر : الصناعتين ،381، الجامع الكبير /156.

[2] دلائل الأعجاز /70.

[3] جواهر البلاغة /354.

وأعلـــم أننـــي عمـــا قريـــب سأنشـب فـي شـبا ظفـر ونـاب[1]

وهي كناية بليغة ورائعة إذ إنها مبالغة ولدتها الكناية لتضفي على المعنى حسناً وبهاءً

وان هذه الدقة في التعبير تدل على براعة الشاعر في صياغة معانيه بأسلوب رفيع وعبارة موجزة تنبع من الذات ، وتعبر عن شخصيته المبدعة في عملية الخلق الشعري ، فكنايات الشاعر قد تنطوي على قيم وأفكار تأصلت في ذاته ، حاول ان عبر عنها من خلال رسم صوره المنبثقة من ارض الواقع ومن هذه القيم التحلي بالصبر فقد عبر الأسود بن يعفر عن صبره على الموت بقوله : (يومي قددنا) اذ قال :

فـان يـك يـومي قـددنا واخالـهُ كـوادرةٍ يومـاً علـى غيـر منهـلِ[2]

ونلمح كناية جميلة أخرى لشاعر آخر وهو حسان بن ثابت الذي رسم صورة الحياء والعفة متخذاً من صورة الصبر على مصائب الحياة اداة لإيصال صورته كنائية ، اذ يقول :

فـلا المـالُ ينسـيني حيـائي وعفتـي ولا واقعـات الـدّهرِ يفْللـنَ مبْـردي[3]

وينطلق ذو الاصبع العدواني منطلقاً آخر فيرسم صورة جزعه من الشيخوخة والكبر من خلال ذكر صفات الخور والضعف ، مما يقودنا إلى واقع الشاعر المعبر عن معاناته الذاتية بالصيغة المثلى من خلال منحها أبعاداً تعبيرية مبدعة تكشف

---

[1] ديوانه /199.

[2] ديوانه /56.

[3] ديوانه /128.

المستوى النفسي والمستوى الشعري للشاعر من خلال عقد مقارنة بين حاله في أيام الشباب وقوته وبين حاله في الكبر وعجزه ، يقول ذو الاصبع العدواني في ذلك :

وكنت امشي على الرجلين معتدلاً فصرتُ امشي على ما ينبت الشجر[1]

وعندما أراد تأبط شراً التعبير عن عظيم ألمه وما يكابده من ضعف ووهن لكثرة جولاته في هذهِ الصحراء قدم هذا المعنى في صورة كانت الكناية وسيلة في تشكيلها ، فقد برزت عظام صدره لضمور بطنه ، وهزاله وهي صورة تحمل معاني الألم الا ان الشاعر وعلى الرغم من ذلك كان يفخر بها فالشعراء الصعاليك كانوا دائماً في ترحال ولهذا كان من الطبيعي ان تضمر أجسادهم وتهزل لانهم ليسوا من ذوي الترف او قعيدي البيوت ، يقول في ذلك :

قليل ادّ خار الزّاد ، الاّ تعلَّةً وقد نشزالشرسوف والتصق المعيَ[2]

فالشاعر لم يحاول ان يعبر عما في فكره ومكامن ذاته بشكل صريح ، وانما قدم ما هو دليل على هذا من نشز للشرسوف ، فحمل المتلقي على تأمل هذا التركيب الذي جمع الكثير من الإيماءات للتعبير عن ذاته .

وجميع كنايات الشاعر الجاهلي توحي بمعانٍ متناسقة ومتوافقة تربط بين فنية الصورة والموضوع ، فكل صورة تختلف عن الصورة الأخرى من خلال ملامحها التي تضيء الطريق وتحفز المتلقي بكل إيماءاتها على الكشف عن تلك العلاقات فيتمكن المتلقي من تلمس هذه الأفكار المختلفة متدرجاً بكل وضوح في توظيف الشاعر الكناية في البنية الموضوعية للنصوص التي قدمت أنماطاً من الواقع ، من خلال

---

[1] ديوانه /34.

[2] ديوانه /115. (الشرسف) : أطراف أضلاع الصدر التي تشرف على البطن ، (المعي) الأمعاء.

الدقة في التعبير وفي صياغة المعاني بأسلوب رفيع وعبارة موجزة صادرة عن تجربة آنية ، مستمدة من شخصية الشاعر المبدعة في عملية الخلق الشعرية.

وهكذا تستحوذ صور الصبر على الكنايات وتضفي لمسات موحية لتصل الى المطلوب من القول ، فطوعها الشاعر لخدمة الموضوع ، فأحالها الى إبداع ، ومن هنا فان اختيار الشاعر للكناية ، كان رهناً مخصوصاً بالتجربة الآنية والموضوعية وواقع الحياة ، قد يعجز الشاعر عن التعبير عنها من خلال ادائها حقيقية . وكانت صور الصبر أداة لايصال الصور الكنائية اكثر من صور الجزع وبذلك ترتسم هذه الصور وتتحدد تبعاً لرؤى الشاعر ومواقفه فهذه " الرؤيا الذاتية الداخلية هي التي تولد التبني الفكري المشحون بالمشاعر الفردية ، وهذا التبني هو الذي يشكل الصور ويربط بينها في اطار الوحدة التكاملية "[1]

[1] الصورة الفنية في شعر زهير بن ابي سلمى /91.

3.1الاستعارة:

تعد الاستعارة من أهم الوسائل البلاغية التي اعتمد عليها الشعراء ما قبل الإسلام في تشكيل صورهم ، مما لفت انتباه نقادنا القدامى فاهتموا في تحديد مفهومها وتوضيح ميزاتها ، فالاستعارة " تعليق العبارة ، على غير ما وضعت له في اصل اللغة على جهة النقل والابانة "[1]، وهي " افضل المجاز ، وفي محاسن الكلام ، إذا وقعت موقعها ونزلت موضعها "[2]، فتعددت وظائفها في اخراج الكلام من الغموض [3]، والشرح والابانة والمبالغة [4]، والايجاز [5]، ومع ان الاستعارة هي تشبيه حذف منه أحد طرفيه ، الا إنها تتفوق عليه لأنها أكثر إيجازا" وأشد مبالغة وأوسع تفنناً " حيث أنها تقوم على تناسي التشبيه وحذف أحد طرفيه ، حتى يتعمد حمل السامع على تخيل صورة جديدة تنسيك روعتها ما تضمنه الكلام من تشبيه خفي مستور "[6]

فالاستعارة تمتلك قدرة كبيرة على الإيحاء والتخييل ، فهي أعمق من التشبيه تصويراً ، وتحمل المتلقي إلى عالم التخييل ، ليرى الصورة التي يشكلها الشاعر

---

[1] قواعد الشعر/ 57 ، الوساطة بين المتبني وخصومه /41 ، دلائل الأعجاز / 106 ، البديع في نقد الشعر /41، المثل السائر 265/1، النكت في أعجاز القرآن / 79.

[2] العمدة 268/1.

[3] ينظر: م.ن287/1.

[4] ينظر : الصناعتين /277.

[5] ينظر : م.ن /277.

[6] الصورة الفنية في النقد الشعري /368.

متخطياً جميع العلاقات المنطقية او المألوفة على صعيد الواقع إلى صيغ جديدة مبتكرة تثير الدهشة فيصغي اليها الذهن ، وتسمعها النفس لتشعر بما كمن في ذات الشاعر في تلك اللحظة وهذا ما نلمسه في قول تأبط شراً :

وإنّـــي-ولا علـــمٌ-لأعلـــمُ أننّـــي سالقى سنان الموتِ يَرْشق أصلعا[1]

حيث جعل للموت (سنانا) بارزاً يبرق متهيئاً للنيل منه بالصبر عليه ، وليس للموت أي سنان مما يفصح لنا عن خطرات نفسية شخصها الشاعر في صورة قد رآها.

ولنا ان نلاحظ كيفية استثمار الشاعر الجاهلي الصيغ التعبيرية ليدل على مضمون فكره ، فضلاً عن التعبير عن مشاعره موظفاً إياها في صيغ إبداعية خلقت توازناً فنياً بين أفكار الشاعر من ناحية ومشاعره من ناحية أخرى ، فقد استعار قيس بين الحدادية لفظة الفيضان للدموع مبالغاً للتعبير عن شدة الحزن والجزع تاركاً لفظة القطرات الدالة على الحزن الاعتيادي الذي يزول مع الأيام ، وذلك لتهويل الأمر و إعلان المصاب جهاراً وذلك في قوله :

فقالـــت وعيناهـــا تفيضـــان عبـــرةً بأهلي بينّ لـي متـى انـت راجـع؟[2]

ولشدة جزع الشاعر اسند البكاء الى غير العاقل (الأرض) والمتداول ان البكاء للعاقل وهي صورة مكررة في الشعر الجاهلي ، فجاء إبداع الشاعر في صورته هذه موحياً بخاصة التفرد المستوحاة من مخيلته ...وهذا من جمال أسلوب الاستعارة ، حين يجسد ما تعتمل به النفوس واضرب الأخيلة والأفكار ، فيبث الحياة والحركة

---

[1] شعره /118. (الرّشق) : الرمي، اصلعا : بمعنى مكشوف يبرق.

[2] عشرة شعراء مقلون /49.

في الجماد ، ويبدو الكون في مشاركة وتفاعل [1]. ويرى نقادنا العرب ان الكلام المشتمل على الخيال أروع تأثيراً في النفس من الكلام الذي يكون حقيقة كله [2]. وما يواجه الشاعر من مواقف وما يشعر به من مشاعر تختلج في ذاته من جراء تلك الحياة حتى ان لبيداً عبر عن جزعه من ذلك مستعيراً البكاء للأرض ، وهو بذلك لم يخرج عن الحدود التي رسمها الشعراء قبله في اخذ الاستعارة من عناصر البيئة ، فهو يقول :

بكتنـــا أرضـــنا لمـــا ظعنّـــا وحيّتنـــا ســـفيرةُ والخيـــام[3]

لقد استعار الشاعر هنا صفة الانسان ومقوماته للأرض ، فالصور نابعة من قيم اجتماعية وإنسانية وكأن الأرض كائن حي له مشاعر وأفكار ، وان الإنسان هو من يبكي لا الجماد....

او قد يسند الشاعر الجاهلي السهم للموت ليدل على دقته في الرماية أي ان الموت واقعٌ لا محال فعبر عروة عن صبره من خلال الاستعارة بقوله :

فـان فـاز ســهمٌ للمنيــة لــم أكــن جزوعاً وهل عن ذاك من متـأخرِ[4]

فلاستعارة تؤدي وظيفتها في اظهار علاقات التشابه والاختلاف ، بين حدي الاستعارة التي وظفها الشاعر للتعبير عن معاناته ، وهذا ما عبر عنه الدكتور مصطفى ناصف ، حين رأى ان الاستعارة مثل المنظار المعظم (التلسكوب) الذي تستطيع بوساطته ان نرى نجوماً لا يمكن ان تراها العين المجردة ، وهي بذلك تحدث

---

[1] ينظر : علم أساليب البيان /188.

[2] ينظر : أسس النقد الأدبي عند العرب /474.

[3] ديوانه / 293.

[4] ديوانه /42.

نشاطاً لغوياً ، وتجعل العمل الأدبي خلاقاً لمعناه ، وليس مجرد صورة محسنة فيها تذوب العناصر جميعاً وتعطي شكلاً او قواماً فنياً جديداً[1].

أوقد يستعير الشاعر آهة الرجل الحزين والمتعب من كثرة الترحال والتنقل ويسندها للناقة التي امتازت بالقوة والصلابة للتعبير عن شدة جزعه وملله حتى قال المثقب العبدي:

اذا مـــا قمـــت ارحلهـــا بليـــلٍ تـــآوّه آهـــة الرجـــل الحـــزين[2]

وتظهر لنا جلياً الجدة والابتكار التي تمتاز بها هذه الصور ، ولكن الاستعارة وبصفتها وسيلة لتشكيل الصورة الشعرية لم تكثر ككثرة التشبيه والكناية وربما يعود ذلك الى ان الاستعارة لم تكن تلبي حاجة الشاعر الادائية بالسرعة الفنية المطلوبة ، وعلى الرغم من ذلك فان قلة الاستعارات عند الشاعر الجاهلي لم يمنعه من تشكيل صور استعارية يبرز فيها الابداع والقدرة الفنية المعبرة عن المشاعر الذاتية .

ولقد انبثقت صور الشاعر الجاهلي من خلال التشبيه أولاً الذي امتلك المساحة الواسعة والغالبية العظمى من بين الوسائل التصويرية الأخرى لأسباب كثيرة كان أهمها ما يمتاز به من سهولة وجمالية التعبير ، ثم يلي ذلك الكناية التي استخدمها الشاعر بشكل دقيق دل على الدقة في اختيار الألفاظ المعبرة عنها والمعبرة عن ذاتية الشاعر ومكامن نفسه . أما الاستعارة فقد اتصفت بقلتها مقارنة بغيرها ولكن هذا لم يحد من إبداع الشاعر الجاهلي في صوغ دقائقها.

---

[1] ينظر : نظرية المعنى في النقد العربي /78-85.

[2] ديوانه /194.

ثالثاً : موسيقى النص الشعري:

تعدُّ بنية القصيدة العربي بنية موسيقية متكاملة [1]، فهي " سلسلة من الأصوات ينبعث عنها المعنى [2]" ، فتشكل هذه الموسيقى عاملاً مهماً في تنسيق البناء العام للقصيدة وتوحيده ، " فالشعر تنظيم لنسق من أصوات اللغة " [3] والشاعر – ككل فنان – يحاول ان يكون نوعاً من التوافق النفسي بينه وبين العالم الخارجي عن طريق ذلك التناغم الموسيقى الذي يهيء له حالة من الاندماج مع مظاهر التناسق والإيقاع في العالم الخارجي ، المنطبعة في نفوسنا في الوقت نفسه على نحو آخر .

والتناغم الموسيقى والمعنى يجريان في حلبة الشعر وهما يرتبطان ارتباطاً لا ينفصم [4]، ولعل السبب في ذلك ان الكلمة داخل النظام العام للتجربة ، تستدعي ما يلائمها موسيقياً ، وتدل أصوات حروفها على معناها [5] ،بصورة خفية، وبذلك يكون " جوهر الشعر هو الصوت" [6]، والتشكيل الشعري في النظرية البنائية هو "شكل

---

[1] ينظر : التفسير النفسي للآداب /63.

[2] نظرية الأدب /205.

[3] م.ن /205.

[4] ينظر : الشعر كيف نفهمه ونتذوقه /60.

[5] ينظر : دراسة الأستاذ حسام النعيمي في (الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني /277 وما بعدها.

[6] الأسلوبية الصوتية في النظرية والتطبيق (بحث) /69 .

صوتي متكرر "[1]، فالموسيقى تمنحنا مفاتيح النص الذي نقرؤه سواء أكانت قراءتنا للمتعة وحدها ام للبحث في مكامن أسرار تكوين مستويات النص المختلفة وقد دفع تأثير موسيقي العام في الشعر بعض النقاد إلى ان يفصلوا التجربة الصوتية عن المعنى وان يعدوها تجربة قائمة بذاتها قادرة وحدها على أثارتنا [2]، ولكن هذا الاتجاه غالى في أهمية الصوت المجرد إلى حد بعيد ، فليس هناك وجود لشعر موسيقى ، كما يقول صاحبا نظرية الأدب ، دون شيء من الإدراك لمعناه ، او على الأقل لنغمته الانفعالية [3]. فبين معنى الشعر وموسيقاه ارتباط حيوي وكلنا يعرف ان معنى القصيدة قد يضيع تماماً إذا ترجمت كلماتها منثورة. ويمكننا ان نسلط الضوء لى موسيقى النص الشعري من خلال :

1:الوزن

عرف القدماء الشعر بأنه " قول موزون مقفى يدل على معنى "[4]، والوزن عند ابن رشيق " اعظم أركان حد الشعر ، وأولاها به خصوصية ، وهو مشتمل على القافية وجالب لها ضرورة....." [5]، وان أسمى درجات الموسيقية تكمن في أوزان الشعر وقوافيه [6]. والموسيقى أساس في الشعر ،كما هي أساس في الغناء " ففي الغناء موسيقى النغمات والألحان ،وفي الشعر موسيقى الألفاظ والأوزان"[7]، وعليه " فان خلو الشعر من الوزن يحرمه خاصية من خواص جماله وتأثيره "[8]، ويحرمه شرطاً من أهم شروط تميزه . والشاعر لا يقوم بنظم ما يحس على بحر يلائم ذلك الإحساس عمداً حيث لا يمكن ان يلتزم كل وزن شعري بعاطفة معينة وانما يأتي

---

[1] نظرية البنائية /390 .

[2] ينظر : المكونات الصوتية للإيقاع وأنماطه /112 .

[3] ينظر : نظرية الأدب /206 .

[4] نقد الشعر /17، وينظر : العمدة 119/1.

[5] العمدة 134/1.

[6] ينظر : دلالة الألفاظ /197.

[7] الحياة العربية من الشعر الجاهلي /183.

[8] م.ن/198.

استخدام الشاعر الجاهلي للبحور بصورة لا إرادية وهذا ما أشار اليه إبراهيم أنيس في قوله " ان الشعراء لا يلتزمون ببحر معين لغرض معين غالباً فهم كانوا يمدحون ويفاخرون او يتغزلون في كل بحور الشعر التي شاعت عندهم ولكن يمكن تحديد القدرة الإبداعية للشاعر على رسم الصورة المؤثرة في المتلقي وتبيان صبر الشاعر وجزعه المتهالك عبر الأداء الموسيقى فنحن لا ننكران للبحور ميزات ومنازل ، ويبدو ان اختيار الشاعر لبحر من البحور الشعرية كان يعتمد على " ضرب من اقتران الحالة الشعورية بالأداء النغمي الذي يمتلك القدرة الإيقاعية المهيأة لاستيعاب آثار التجربة الآنية فقد تشير بعض الحقائق الى ان اختيار الشاعر الجاهلي لوزن نموذجه يظل وثيق الصلة بالأبعاد النفسية للتجربة الآنية التي تستشيره الى القول ،وتحتل صلب نموذجه الفني "[1]ويميل الشاعر الجاهلي في الشعر الذي يغلب على مقاطعة الصبر او الذي يغلب على مقاطعه الجزع الى استخدام البحر الطويل حيث هيأ هذا البحر نفساً طويلاً ناسب أهمية الحدث الذي احزن الشعر وآلمه ، ولذا وجدنا الشاعر قد نظم في هذا البحر اكثر مثيراته التي وردت في الشعر وهذه المثيرات كلها جادة وعميقة يتلاءم معها البحر الطويل اكثر مما يتلاءم مع غيرها ، وهذا ما أكده صاحب المرشد في قوله :" الطويل والبسيط اطولا بحور الشعر العربي و أعظمها أبهة وجلالة واليهما يعمد أصحاب الرصانة وفيهما يفتضح أهل الركاكة والهجنة ...."[2].

---

[1] شعر اوس بن حجر ورواته الجاهليين /507. وقد أشار الأستاذ الدكتور محمود الجادر الى محاولات بعض الباحثين لاستقراء الميادين التي يغلب عليها استخدام بحور معينة ، وتراوح ذلك في دراسة المدلولات الخاصة ، وبعض هذه الدراسات اعتمدت في نتائجها على استقراء إحصائي،توسع فيه الدكتور الجادر الى استقراء دواوين أربعين شاعراً جاهلياً فجاء بنتائج دلت على كثرة البحور الطويلة لامتلاكها القدرة الواسعة على استيعاب التدفق النفسي المتنامي داخل البيت الشعري الواحد ، فكان تدرج ظهورها في الدواوين كما ياتي : الطويل في مقدمة البحور المطروقة ، فالوافر فالكامل فالبسيط .....

[2] المرشد 359/1.

فالشاعر " في حالة اليأس يتخير عادة وزناً طويلاً كثير المقاطع يصب فيه من أشجانه ما ينفس عنه حزنه وجزعه "[1]ففي قصيدة امرئ القيس المقصورة ابان الشاعر فيها عن قدرته الكبيرة في الأداء النفسي والتعبير عن اللوعة والاسى والإخفاق في المحصلة النهائية مما أدى الى اليأس الذي لا انفراج بعده ، وكان تأكيد كلمتي (البلى) و (بكى) بتكرارهما دلالة على انطفاء جذوة الأمل في الحياة مما هيأ له القدرة على تصوير الحالة فضلاً عن استخدامه التضاد بين (جديد والبلى) وكرر الشاعر حرف الشين في اكر من كلمة ليحدث تناغماً موسيقياً ، وكان البحر الطويل قادراً على احتواء معاناة الشاعر وحزنه المتهالك وذلك في قوله :

ان يكُ شيبي قد علاني وفاتني شبابي وأضحى باطلُ القول قد صحا
وابليتُ أثواب الشباب وحسنه وكل جديد سوف يدركه البلى
فلستُ لمن يبكي الشباب بلائمٍ ولكن اراهُ بين العذر ان بكى[2]

وكان البحر الطويل مناسباً للشعر الذي يغلب على مقاطعه الصبر وان كان يخيم أجوائه الحزن والألم ، فقصيدة عبد يغوث تدعو الى الإحساس بالألم من شدة اليأس الذي تسرب الى الشاعر والانسحاق النفسي المنبثق من استخدام الألفاظ التي تعبر عن الصوت العالي الذي يطغى على كل شيء يدور حوله في وضوح الجرس الصوتي ، فالأصوات تنبثق من الركوب والتبليغ والقول وحركة شد اللسان والطلب بإطلاقه ، الى حرمانه من سماع نشيد الرعاة الى صوت ضحك الشيخة العبشمية ،فتكرار الصوت يلح عليه لما في ذلك من رثاء للفروسية والسيادة والحياة بشكل عام بما يمنح الأداء الفني سرداً قصصياً في القصيدة ككل.

وان تكرار حرف القاف الحلقي قد ساعد على تصاعد الجرس الموسيقي فضلاً عن تكرار الكلمات (تقتلوني وتقتلوا) والتضاد في (شدّوا وأطلقوا) والترصيع الوارد في القصيدة والتشديد في(بلغّن) جاء مناسباً مع نفي اللقاء . فضلاً عن كون

---

[1] موسيقى الشعر /177.

[2] ديوانه /330-335.

البحر الطويل قد استوعب معاناته المرة في رثائه لذاته ويأسه من مصيره الذي أنبأتنا به ألفاظ الأبيات التي تدل على استحالة العودة الى قومه والى حياته السابقة . على ان تكرار صورة اليأس في صياغات مختلفة أضفت طابعاً مأساوياً متنامياً بعد الأداء الموسيقى الداخلي ، وظلت الموسيقى الحزينة العالية تطغى على القصيدة مما حفزت حاستي السمع والبصر لدى المتلقي للتعاطف مع الشاعر والتأثر لحالته النفسية وكأن القصيدة بصخب إيقاعها وجرسها تنادي لإنقاذه أو هي تعويض عن لسانه المشدود لتخليصه من الأسر ، ورثاء الشاعرلنفسه في البحر الطويل كان متلائماً مع قافيه الياء المتبوعة بألف وعلى الرغم من الحزن المخيم على جو القصيدة فان الشاعر كان صابراً قوياً متجلداً ، يقول عبد يغوث في ذلك :

فيا راكباً إمّا عرضتَ فبلغّن ... نداماي من نجران أن لا تلاقيا
أقولُ وقد شدّوا لساني بنسعةٍ ... أمعشر تيم اطلقوا عن لسانيا
فان تقتلوني تقتلوا بي سيّداً ... وإنْ تطلقوني تحربوني بماليا
أحقاً عباد اللهِ ان لستُ سامعاً ... نشيدَ الرّعاء المُعزبين المتاليا
وتضحك مني شيخةٌ عبشميةٌ ... كأن لم تري قبلي أسيراً يمانيا[1]

ولقد نال الكامل المرتبة الثانية [2]من بحور النصوص التي يغلب عليها الصبر وهو بحر مشهور بقدرته على أداء الجلبة والاندفاع [3]، وتفعيلاته " من النوع الجهير الواضح الذي يهجم على السامع مع المعنى والعواطف "[4]، وكان لمجيء هذا البحر في المثير الاجتماعي أهمية كبيرة تفصح عن مدى اعتماد الشاعر عليه حيث يعدّ من اكثر البحور جلبة وحركة وفيه لون خاص من الموسيقى تجعله مهيأ

---

[1] شعراء النصرانية /79.
[2] ينظر: الجدول (3).
[3] ينظر: شعر اوس بن حجر ورواته الجاهليين/552.
[4] المرشد 346/1.

لاستيعاب المثيرات الجادة ،و أسبغت عليه غنائية عالية تنسجم مع عواطف الشاعر الجاهلي وأحاسيسه مما حدا بالشاعر إلى الإكثار من استخدامه في مذهب الرقة واللين تارة ومذهب الجلالة والجزالة تارة أخرى ، وعندما أراد عنترة العبسي ان يصور لنا حالته وغربته النفسية لجأ إلى استخدام الإيقاع الداخلي الذي منحه قدرة الأداء النفسي المتمثل في السقم والبرء حيث يقول:

ولقد شفى نفسي وابرأ سقمها قيل الفوارس ويك عنتر أقدمِ[1]

فالمعنى الذي استوعبه البحر الكامل قد اكتسب القدرة على تغيير الحالة المزرية الى حالة اهتمام واعتزاز بالفروسية في المواقف الحرجة ، وطغيان روح الحماسة ، فالتوثب بعد الراحة النفسية كان سمة هذا الإيقاع الذي ساعد على انتقال المعنى في براعة تعبير الشاعر وحسمه ، كما كان لتكرار المعنى بلفظ اخر في الشطر الأول اثر في الجرس الموسيقي للحروف مثل(شفى نفسي وابرأ سقمها) فأثر الطباق كان واضحاً على وحدة الجرس الموسيقي باتجاهين مختلفين خدما صيغة الأداء المعنوي .

بينما امتاز الشطر الثاني بإيقاع طويل واحد لتسلم الشاعر النداء و إرضاء مشاعره ، وإسكات صوت غروره . وان استخدام الشاعر الحروف اللينة في الشطر الأول مثل الشين والفاء والألف والنون والتاء والسين والياء ، للتعبير عن الراحة النفسية بعد توتر حاد في الإيقاع تتجلى في الإيقاع الأول على مقطعين ، ولقد شفى نفسي ، والثاني : وابرأ سقمها . ضم حروفاً مجهورة لتأكيد الشفاء . على أننا لا نعدم حيوية البحر الكامل الذي جاء مجسداً فيه للانفعالات التي اعتملت في صدر عنترة وحماسته وفرحه وفخره لما لبحر الكامل من " لون خاص من الموسيقى يجعله جليلاً مع عنصر ترنمي ظاهر "[2]وجاء البحر البسيط بالمرتبة الثانية [3]من بحور النصوص التي يغلب عليها الجزع ، والبسيط من البحور المهمة في الشعر العربي ،

---

[1] ديوانه /219.

[2] المرشد 246/1.

[3] ينظر / الجدول (4).

ويأتي من حيث الأهمية بعد البحر الطويل ، وحسب البسيط جزالته وفخامته ليكثر الشاعر من استخدامه في المثير الذاتي ولكن الرنة المتوازنة التي جعلته اكثر تلاؤماً مع أهم عواطف الشاعر وهي عواطف العنف والزهو المنبعثين من ذاته قد عززت من هذا الاستخدام عنده . وعلى الرغم من ان بحر البسيط يمتاز بالحيوية نجد البطء الموسيقى في قصيدة الخنساء متلازماً مع حالتها النفسية وجزعها من المصاب لفقد أخيها ، وقد انتشرت حروف اللين بين ثناياها فضلاً عن استخدامها قافية الراء وهي تفيد التكرار وهي من القوافي الذلل[1]. وحاولت عبر تكرار كلمات (مغزار ومدرار) و(دمع) تقوية المعاني التفصلية . فكانت الخنساء متقصدة ان يكون إيقاع قصيدتها بطيئاً متساوقاً مع حالتها النفسية، حيث تقول:

يـاعينِ فيضـي بـدمعٍ منـكِ مغـزار وابكـي لصـخرٍ بـدمعٍ منـكِ مـدرارِ
قـد كنـتَ تحمـلُ قلبـاً غيـر مهتضـمٍ مركبـاً فـي نصـابٍ غيـر خـوارِ
ابلـغْ سـليماً وعوفـاً ان لقيـتهم عميمـة مـن نـداءٍ غيـر اسـرارِ
لا نـوم حتـى تقـودوا الخيـلَ عابسـةً ينبـذن طرحـاً بمهـراتٍ وامهـارِ[2]

ومن خلال تلك الدلالات شكلت الأوزان الشعرية أحد المعايير الفنية التي ترتكز عليها بنية القصيدة العربية لتحقق القيمة الفنية التي يتوخاها المبدع والمتلقي معاً.

وليس غريباً ان يكون لبعض الاوزان استعمال خاص [3]. لذلك يكون للوزن تأثير في الاذهان من خلال تتابعات لفظية – حركاته وسكناته – وهذا يؤدي بدوره الى ربط بين الوزن والموضوع الشعري ، وان صح التعبير بين الشاعر ومتلقيه

ومن ذلك يمكننا القول : على الرغم من تناقض الظاهرتين – ظاهرة الصبر وظاهرة الجزع – فانهما قد اشتركتا في مسألة البحور الشعرية التي أتت عليها مقاطع

---

[1] الذلل : وهي ما كثر على الألسن ، وهي عليه في القديم والحديث . ينظر : (القافية والأصوات اللغوية) /95.

[2] ديوانها /290-301.

[3] ينظر : قراءة عصرية في أدب الذئب عند العرب /98.

الصبر ومقاطع الجزع فقد توافقا على ان يكون البحر الطويل في مركز الصدارة لكليهما وذلك لقدرته على متابعة دقائق الصورة واستيعابها مما لا يتسير مع البحور القصيرة ، فالطويل ميدان الشاعر الحقيقي الذي تظهر فيه قدرته الفنية . الا انهما قد اختلفا مرة ثانية في ترتيب البحور بالمراكز الثلاثة الأخرى وبنسب متفاوته ثم عادا وتوافقا بالمرتبتين الخامسة والسادسة ....الخ[1]. فالحالة النفسية هي التي خدمت الشاعر وساقته الى استخدام هذا البحر او ذاك.

الجدول (3)

أوزان الشعر التي غلب عليها الصبر حسب المثيرات							
المثير الذاتي		المثير الاجتماعي		المثير البيئي		أوزان الصبر عامة	
الوزن	العدد	الوزن	العدد	الوزن	العدد	الوزن	العدد
الطويل	24	الطويل	26	الطويل	17	الطويل	67
الوافر	9	الكامل	11	البسيط	3	الكامل	19
البسيط	6	الوافر	8	الكامل	3	الوافر	18
الكامل	5	البسيط	4	مجـــزوء الكامل	2	البسيط	13
المتقارب	5	الخفيف	2	الخفيف	1	الخفيف	8
الخفيف	5	السريع	2	الوافر	1	المتقارب	6
المنسرح	1	الرمل	2	الرمل	1	الرمل	4
الرمل	1	المتقارب	1	السريع	1	السريع	3
		مجـــزوء الوافر	1			مجـــزوء الكامل	2
						المنسرح	1

[1] ينظر : الجدول (3) و(4).

						مجـــــزوء الوافر	1

الجدول (4)

أوزان الشعر التي غلب عليها الجزع حسب المثيرات							
المثير الذاتي		المثير الاجتماعي		المثير البيئي		أوزان الجزع عامة	
الوزن	العدد	الوزن	العدد	الوزن	العدد	الوزن	العدد
الطويل	23	الطويل	18	الطويل	14	الطويل	55
البسيط	14	البسيط	8	الكامل	5	البسيط	24
الكامل	11	الوافر	5	الوافر	2	الكامل	20
الوافر	4	الكامل	4	مجـــزوء الكامل	2	الوافر	11
الخفيف	2	المتقارب	3	البسيط	2	الخفيف	3
الرجز	1	مجـــزوء الكامل	1	السريع	1	المتقارب	3
الهزج	1	الرمل	1	الخفيف	1	مجـــزوء الكامل	3
		السريع	1			السريع	2
						الرجز	1

1	الهزج						
1	الرمل						

2: القافـية :

القافيـة ختـام البيـت مـن الشـعر سـميت بهـذا الاسـم لأنهـا فـي آخـر البيـت " مـأخوذة من قفوت فلاناً إذا تبعته .....وقافية الرأس مؤخرة"[1] . وسمة القافية في النظم التكرار وهي تختلف حدة ورقة عن سائر البيت " فالقافية ظاهرة بالغة التعقيد ، فلها وظيفتها الخاصة في التطريب كإعادة – او ما يشبه الإعادة – للأصوات .....ان التقفية بالأحرف الصوتية تتحد بمعاودة النغمات التي تكون أعلى او اخفض من النغمة الأساسية "[2]. وقد قال ابن رشيق ان القافية تشترك مع الوزن " في الاختصاص بالشعر، ولا يسمى شعراً حتى يكوون له وزن وقافية "[3]

وكان الخليل قد ذكر أنها " من آخر البيت إلى أول ساكن يليه مع المتحرك الذي قبل الساكن . وقال الاخفش : هو اخر كلمة في البيت أجمع ، وانما سميت قافية لأنها تقفو الكلام : أي تجيء في آخره"[4] .

وتأتي أهمية القافية من أنها آخر ما يسمع من البيت وعندما ينتهي البيت يبدأ أخر حتى يتوافق عند الإيقاع نفسه وهكذا تفعل القافية فعلها ، والذي ارجحه ان موسيقى القافية هو الذي يفعل فعله في النفس ويستحسن في القافية ان تكون عذبة الحرف وسلسة المخرج ومصرعة في البيت الأول وان تكون طيعة مناسبة متوافقة مع المعنى فلا يختم بما يدل على رقة في مقام فحولة [5].

---

[1] كتاب القوافي /29.

[2] نظرية الأدب /208.

[3] العمدة 151/1.

[4] الوافي في العروض والقوافي /220.

[5] ينظر : نقد الشعر /218،42.

واهم حروف القافية هو حرف الروي " وهو النبرة او النغمة التي ينتهي بها البيت ويلتزم الشاعر تكراره في أبيات القصيدة "[1].

والقافية نوعان مطلقة ومقيدة [2] . اما المطلقة فهي التي يكون حرف رويها متحركاً ، واما المقيدة فهي التي يكون حرف رويها ساكناً.

أ.القافية المطلقة[3]:

وهي التي يكون حرف رويها متحركاً بالحركات المعروفة ، وهذا النوع من القافية هو الذي ينطبق عليه القسم الأعظم من النصوص التي وردت فيها مقاطع الصبر او مقاطع الجزع ، فقد درسنا في الصبر (128) بيتاً جاهلياً تقريباً ووجدنا ان عدد الأبيات ذات المجرى[4] المكسور تؤلف (58) بيتاً ، وان عدد الآبيات ذات المجرى المضوم تؤلف (43) بيتاً ، وان عدد الأبيات ذات المجرى المفتوح تؤلف (27) بيتاً في حين بلغت القافية المطلقة في نصوص الجزع التي درسناها تقريباً (115) بيتاً ، كان عدد المكسور منها (48) بيتاً ، والمضموم منها (37) بيتاً ، اما المفتوح فقد جاء منه (30) بيتاً ، والروي المتحرك هو الكثير الشائع في الشعر العربي ويلتزم الشعراء حركته هذه مراعاة تامة لا يحيدون عنها[5].

وربما تعود كثرة ورود الكسرة حركة للروي في الشعر المتضمن الصبر او المتضمن الجزع إلى كونها تشعر بالرقة واللين[6]، ولأنها يمكن الحصول عليها من المضاف أليه والمجرور بالحرف وتوابعهما ولأنها ربما استعيض عنها بياء الاسم المنقوص او بياء المتكلم او بياء المخاطبة . ولا غرابة في مجيء حرف الروي

---

[1] شرح تحفة الخليل في العروض والقوافي /307.

[2] ينظر :م.ن / 362 .

[3] ينظر الجدول (5)و(6) جاءت الإحصائية من خلال استقراء مجموع الدواوين والاختيارات التي تضمنتها الرسالة.

[4]المجرى : هو حركة الروي المطلق مثل ضمة السين في الشمس وفتحه الباء في (كتبا) ينظر : الوافي /161.

[5]ينظر : موسيقى الشعر /260.

[6] ينظر : المرشد 91/2.

المكسور والمضموم بنسب مرتفعة فهذان المجريان اكثر مجاري الروي وروداً في الشعر العربي ، على ما بينهما من ضدية وتليهما حركة الفتح[1].

2: القافية المقيدة:

وهي التي يكون حرف رويها ساكناً[2]، ومثلما كان " هذا النوع من القافية قليل الشيوع في الشعر العربي "[3]، فانه كان قليل الشيوع في النصوص التي تضمنت مقاطع الصبر او مقاطع الجزع . اذ اقتصرت على أربعة أبيات من مجموع أبيات الشعر الذي غلب عليه الصبر تقريباً ، في حين بلغت هذه القافية في الشعر الذي ورد في أبياته الجزع ثلاثة أبيات .

وفي ضوء ما تقدم يمكنا ترتيب جدول للقوافي الشعرية وعلى النحو الآتي:

---

[1] ينظر: م.ن 91/2.

[2] ينظر : الوافي /22.

[3] موسيقى الشعر /260.

الجدول (5)

قوافي النصوص التي وردت فيها مقاطع الصبر

القافية المطلقة					المقيدة
القافية	العدد	ضمة	فتحة	كسرة	السكون
ل	27	8	3	16	–
ر	22	13	2	5	2
م	16	2	4	10	–
د	13	2	3	7	1
ب	12	2	3	7	–
ع	9	4	4	1	–
ن	7	2	1	4	–
ي	5	1	3	1	–
ق	4	1	1	2	–
ف	3	3	–	–	–
ح	2	1	–	–	1
أ	2	–	2	–	–
ض	2	–	–	2	–
ك	1	–	1	–	–

مج/14	132	43	27	58	4

الجدول (6)

قوافي النصوص التي وردت فيها مقاطع الجزع

القافية المطلقة					المقيدة
القافية	العدد	ضمة	فتحة	كسرة	السكون
ل	27	10	3	14	–
ب	16	7	4	4	1
ع	14	9	2	3	–
ر	14	2	4	7	1
م	10	1	2	6	1
د	9	2	3	4	–
ن	8	–	2	6	–
ح	6	3	2	1	–
ق	3	2	–	1	–
ي	2	–	2	–	–
ف	2	1	–	1	–
ك	2	–	2	–	–
ه	1	–	1	–	–
س	1	–	1	–	–

ض	1	–	1	–	–
أ	1	–	1	–	–
مج/16	118	37	30	48	3

هامش جدول القوافي التي وردت في مقاطع الصبر:

ل / عمرو بن قميئة / 67، الاسود /56، بشر /171، المعمرين /77 ، عبيد 112، شرح اشعار الهذليين / (ابو خراش) ، 1195/3، م.ن1189/3، متمم /132، امرؤ القيس /28، عنترة /248 / 336/251 السمؤال /90 ، المهلهل / 324 ، الاصمعيات 60/1 ، خفاف /61، لبيد /75 ، الاعشى /405, اوس / 82،99، الشنفرى / 73 ،74 ،80 ، 89 ، عروة /114 ، ديوان الهذليين (ابو كبير) 96/2، عمرو بن شأس /64.

ر / زيد الخيل /55، عروة/ 67،77،89 ، عدي /87، 132 ، الخنساء /290 ، دريد /63، 64 مختارات ابن الشجري /8 ، الحماسة البصرية 250/1 وم.ن 64/2 ، المهلهل /241 ، المفضليات (المرار بن منقذ) /27 ،العباس بن مرداس /58 ، عنترة /334 ، الحطيئة /102 طرفة / 62، 68 ، عامر/ 107 ، امرؤ القيس /63، الاعشى /423.

م / النمر بن تولب /101، عنترة / 215، 219 ، 220 ، 209 ، 275 ، الحصين / 112 ، عامر / 225 ، عمرو بن قميئة /73 ، المتلمس الضبعي / 21، ديوان الحماسة 64/1 ، امرؤ القيس /278 ، قيس بن زهير /33، ديوان الهذليين (ابوخراش) 125/2 و 127 ، م ، ن (ابو كبير) 2/ 94.

د / عبيد /62 ، طرفة /53 ، 44، 150 ، حسان / 128 ، الخنساء /256 ، دريد / 48 ، 50 ، الأعشى / 183و 185 ، عمرو بن معد يكرب / 68 ، العباس / 42 ، معجم ما استعجم 347/1 (الحارث بن حلزة).

ب / امرؤ القيس / 99، سلامة /27 ، المؤتلف والمختلف / 162، المعمرين / 60 ، قيس بن الخطيم /37 ، 46 ،58 ، بشر /28، دريد 33، علقمة / 92 طفيل الغنوي / 15 ، الشنفرى /111.

ع / عنترة /264 ، تأبط / 112، 118 ، الأعشى / 151 ، 153 ، عروة / 97 98، قيس بن الحدادية/ 39 ، ابوقيس بن الاسلت /81.

ن / قيس بن الخطيم / 165 ، النابغة الجعدي / 160 ، شعراء النصرانية / 156، مالك / 81، اوس / 129 ، ذو الاصبع / 89 ، الاعشى / 235 .

ي / ديوان الهذليين (ابو ذؤيب) 1 / 68 ، المهلهل / 365 ، المفضليات / 315، الاغاني 15 / 76، عمرو بن قميئة / 62.

ق / امية / 240 ، الخنساء / 62، الاصمعيات / 124 ، تأبط شراً / 140.

ف/ اوس / 74 ، الاصمعيات / 232 ، الشنفرى / 104.

ح / عروة / 44، الاعشى / 291.

أ / كعب بن زهير / 233، عنترة / 289.

ض/ طرفة / 199، امرؤ القيس / 74.

ك / تأبط شراً / 151.

هامش جدول القوافي التي وردت في مقاطع الجزع .

ل/ المزرد /33 ، عروة / 114 ، 119، شرح اشعار الهذليين (ابو كبير) 3/ 1069 ، عبيد / 104 ، 106 ، 112، العمدة 153/2، المهلهل / 321، كتاب بكر وتغلب / 61، تأبط شراً / 181 ، 195 ، السليك / 62، الحطيئة / 282 ، المفضليات 54/1، عمرو بن قميئة / 56 ، أمية / 354 ، عمرو بن معد يكرب / 353 ، قيس بن زهير / 46 ، الشنفرى / 32(مرتين) ، 74، لبيد / 94 ، امرؤ القيس / 8، 117 ، النابغة / 195 ، شرح أشعار الهذليين (الاعلم الهذلي) 3/ 1261.

ب / سلامة / 91 ، عدي / 113 ، علقمة / 33، الخنساء / 15 ، 148 الاغاني 11/ 3864 ، طفيل / 18 ، عبيد / 15 ، امرؤ القيس / 1/ 44 ديوان الحماسة / 213 ، قيس بن الخطيم / 36 ، ديوان الهذليين الاعلم الهذلي 2/ 81، الاعشى / 289 و 361 ، عروة / 151 .

ع / بشر / 112 ، 135 ، الاصمعيات / 101 ، مالك / 110 ، المعمرون والوصايا / 41 ، عشرة شعراء مقلون / 37 ، الحطيئة / 280 ، شرح أشعار الهذليين (قيس بن عيزارة) 2/ 590 ، تأبط / 115 (مرتين) ، لبيد / 169 المفضليات 2/ 207 ، عنترة / 392 ، النابغة / 156 .

ر / ذي الاصبع / 33، المعمرون والوصايا / 94 ، دريد / 66 ، شرح ديوان الخنساء / 33، لبيد / 51 ، شعر الربيع بن زياد / 393 ، الأسود بن يعفر/ 37

، شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام / 39 شرح أشعار الهذليين (ابو كبير) 1081/3 ، عنترة / 327 ، عدي / 59 ، الأعشى / 101 عروة / 56 ، 89.

م / عمرو بن قميئة / 48 ، المعمرون والوصايا / 82، عمرو بن شأس / 102 ، زهير بن ابي سلمى / 18 ، 20 ، 385 ، النمر / 13 ، عبيد / 122، الأعشى / 355 ، عنترة / 142.

د/ الاعشى / 227 ، موسوعة الشعر العربي / 575 ، طرفة / 152 ، امرؤ القيس / 213 ، السليك / 50 ، المثقب / 83 ، قيس / 44، زيد الخيل / 168 الأشباه والنظائر 360/2 .

ن/ المهلهل / 342 ، تأبط / 217 ، النمر / 118 ، طبقات الشعراء / 29 ، المثقب / 194، الحطيئة / 278 ، ذي الاصبع / 89 ، امرؤ القيس / 85 .

ح / المهلهل / 59 ، النابغة الذبياني / 213 ، عمرو بن قميئة / 32 ، طرفة / 26، عروة / 43، عبيد / 41.

ق / امية / 237 ، قيس بن زهير / 50 ، عنترة / 173.

ي / سحيم / 26 ،عشرة شعراء مقلون /44.

ف/ عنترة /91، السليك /5.

ك / الحطيئة / 276 ، عبيد / 92.

هـ/ طرفة / 162.

س / امرؤ القيس / 109 .

ض/ النمر بن تولب / 70.

أ / امرؤ القيس / 330.

ومن النظر في الجدوليين يتبين لنا ان الشاعر الجاهلي قد استعمل في قوافيه حروفاً اشتهر استعمالها ، وتقبلها الذوق العربي آنذاك ، واذا اكتفينا باحصائية إبراهيم أنيس لأكثر حروف الروي شيوعاً في الشعر العربي نجده يقسمها إلى أقسام أربعة[1]: أولاً حروف تجيء روياً بكثرة ، وان أختلفت نسبة شيوعها ، ومن هذه الأحرف نلاحظ ورود : الراء واللام والميم والنون والباء.....

ويعود سبب كثرة استعمالها روياً إلى سهولة مخارجها وكثرة أصولها في الكلام [2]، وما تبعثه من " احساسات التدفق الحماسي مما يبعث على الشجاعة ويحدث النشاط "[3] ، فيعمد الشاعر الجاهلي اليها لتشكل لديه قوة القافية ورنتها والعمق الموضوعي الذي تعكسه الألفاظ والمعاني ، وسعة الأوزان فتخلق من هذا كله " بناءً موسيقياً رفيعاً"[4]. وكانت قافية اللام في مقدمة قوافي القصائد التي يغلب على أجوائها الصبر او التي غلب على أجوائها الجزع ، واللام من أحرف الذلاقة وتتميز من بقية أحرف الذلاقة بميزة حبس النطق عند الوصول أليها ، فهي اثقل حروف الذلاقة ، وتمتاز بالتأني والتفكير أيضاً والسبب الذي جعل القافية في مركز الصدارة هو ارتباطها في اكثر الأحيان بالألف المطلقة ، لان الألف المطلقة تمثل الفتحة التي هي أخف الحركات ، فتقلل من حدة اللام التي هي اثقل حروف الذلاقة.

---

[1] ينظر : موسيقى الشعر /248.

[2] ينظر : في ذلك ما توصلت اليه الباحثة في بحثها (البناء الفني لشعر الفرسان والاجواد)/ 145. ومن أسباب عللت فيها ورود هذه الأحرف روياً بنسبة اكثر من غيرها من الأحرف.

[3] الشعر الجاهلي قضاياه الفنية والموضوعية /299.

[4] م.ن/299.

ثم تأتي قافية الراء بالمرتية الثانية من قوافي القصائد المتضمنة الصبر ، وتفيد التكرار وهي من القوافي الذلل[1]، على خلاف الجزع فقد احتلت فيه الباء المركز الثاني وهي من القوافي الذلل أيضاً ، والباء حرف من الحروف الانفجارية الملائمة لحالة الشاعر ، وإذا ما انتقلنا الى المرتبة الثالثة وجدنا الميم في جدول الصبر – ان صح التعبير – وتميز صوت الميم بحلاوته الموسيقية لما يحويه من غنة ، وقابله حرف العين في جدول الجزع وهو من حروف الحلق وهو صوت انفجاري ومن اكثر الأصوات القادرة على استيعاب مواقف الغضب والعنف.

ولنا ان نلاحظ ندرة ورود القوافي الحوش في الشعر المتضمن أبيات الصبر او المتضمن الجزع وهي الخاء والذال والتاء والظاء والغين[2]. ولا بد لي ان أشير الى حركات حروف الروي التي لم تخرج عن نطاق كونها " أبعاض حروف المد واللين "[3] التي تطوع لتوكيد المعاني وتثبيتها ، فضلاً عما تضفيه من قوة او لين تتألف مع نوعية حرف الروي وحالة العنف والقسوة او حالة السكينة التي يمر بها الشاعر الجاهلي فيختار لرؤية ما يتناسب وهذه الحالات النفسية الخاصة المحكومة بطبيعة الأحداث قوة او ضعفاً ، ومن هنا كان التركيز على أيراد حركة بعينها تطرد في نهاياتها الأبيات حرصاً على قوة الصوت وتوافق تسلسله فتخضع لها الكلمات حسب أيراد هذه الحركة فالمرفوع يكسر للضرورة أو يسكن او يطلق.

وخلاصة ما تقدم:

ان الشاعر الجاهلي وهو في حالة الجزع كان يعمد الى القافية ذات الصوت الانفجاري القوي القادرة على استيعاب الغضب والعنف في حين ان الشاعر الصابر كان يعمد الى القوافي التي تقلل من حدة طبعه وتجعله في حالة الهدوء والاستسلام لأمره بعيداً عن الصخب والانفعال.

---

[1] الذلل : وهي ما كثر على الالسن ، وهي عليه في القديم والحديث . وينظر : (القافية والأصوات اللغوية)/95.

[2] ينظر: تطور الشعر الجاهلي /213-214.

[3] الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني/277.

الخاتمة

الخاتمة :

انتهى البحث في حدود دراسته على وفق الخطة التي وضعت له ، ولقد تناول ظاهرة – الصبر والجزع – في مجموع الحصيلة الاستقرائية للنصوص الشعرية التي كانت موضع الدراسة ، إذ وقف من خلالها على بغيته على وفق منهج علمي وعُزِزَ ما توصلنا إليه باراء الباحثين الذين أشادوا إلى جوانب كثيرة في الشعر العربي قبل الإسلام من خلال ما طرقه الشعراء معبرين عن حاجتهم التي تشكل ركائز أساسية لعماد حياتهم .....

1. فمن خلال قراءة مركزة لا غلب دواوين الشعر الجاهلي وجدنا ان الصبر ظاهرة لازمت الإنسان العربي منذ ان خلق وهي صفة يفتخر بها الشاعر الجاهلي ويشيد بها حتى انه تجاوز ذاته وجعلها سمة مرتبطة بمن يعجب به . فالصبر اكثر ما كان في أغراض (الفخر والمدح والرثاء) ولكن هذا لا يعني ان الإنسان كان بعيداً عن الجزع بل هو قريب منه ، ولكن الصبر كان مقدماً عليه ، حتى وان كان الشاعر الجاهلي في قمة الجزع فانه يتظاهر بالصبر حتى يقال عنه صبور.
2. ومن خلال مراجعتنا للمثيرات الذاتية وجدنا ان صبر الشاعر الجاهلي على الموت اكثر من جزعه منه وهو بهذا المنطق قريب من الروح الإسلامية من خلال الايمان بحتمية الموت وانه ليس الوحيد الذي سيناله الموت بل هنالك من سبقه إليه ، فكان يتحلى في مواجهته بالشجاعة والحلم والتعقل . ويهون من شأن الموت لان ذلك خير وسيلة لاقناع النفس والتغلب على هواجس الخوف مما جعل الشاعر الجاهلي ينفض يده من التشبث بالحياة ودوامها ... والشعراء الذين واجهوا معضلات الحياة كانوا ذوي حكمة وأبياتهم الشعرية تحمل بين طياتها النصيحة واغلب من تحدث عن الحياة وصبرهم على قسوتها هم الشعراء المعمرون.
3. في حين برز جزع الشاعر من الشيخوخة والهرم بنسبة كبيرة جداً اذا ما قارناها بصبر الشاعر عليها ، وقد ارتبط جزعه هذا بالشكوى ويبقى جزع الشاعر لمفارقته الشباب أمراً حتمياً تفسره حالة البكاء التي تنتابه ، فضلاً عن الذكريات

التي التقت ببكاء الشباب الذي ادبر عنه وارتحل دون ان يلقى مثيلاً له حتى عده الشعراء نذيراً للموت ثم كان الشيب داعياً لإنصراف الآخرين عنهم لاسيما الحبيبة.

4. وليس الفارق كبيراً بين جزع الشاعر من الشيخوخة وجزعه عند فقد أحبته فقد كان البكاء سلاحاً للتعبير عن جزعه على الميت وكانت نسبة النساء الجازعات تفوق نسبة النساء الصابرات على فقيدهن في حين ان الرجال كانوا اقل جزعاً منهن او بعبارة اخرى انهم لم يحاولوا ان يظهروا جزعهم بصورة مباشرة .

ويرد في أبيات المراثي الحديث عن شجاعة المرثي فضلاً عن اسناد صفات أخرى اليه ، وهي كما يبدو ذات طابع معنوي كالثبات والصبر والحكمة والتعقل وهي صفات لها اثر كبير في إثبات معنى الشجاعة قولاً وفعلاً على ارض المعركة . وان معاني الاعجاب بشكلها المجرد يفيض في عرضها شعراء المراثي العرب ليجعلونا نشاركهم الإحساس بالخسارة والألم واللوعة لفقدان شخص له مثل هذه الصفات والأخلاق الكريمة .

ويعبر الحزين عن أوجاعه بالبكاء الشديد وأحياناً تكون الصدمة شديدة عليه فيصاب بالذهول وتجمد عيناه عن البكاء . أي ان جزع الإنسان قد يكون عنيفاً وقد يكون هادئاً حكيماً وعندما يكون عنيفاً قاسياً نراه يتخذ عند الراثي صوراً ومظاهر شتى فهو عند النساء مثلاً يتمثل في إيذاء النفس وشق الجيب وتخميش الوجه ، أما عند الرجال فيأخذ صورة الثأر الفظيع والانتقام الهائل.

5. والحرب تتطلب الصبر والثبات على الموت وأهوال المعارك ولهذا كانت هذه الصفة من مفاخر المحارب الشجاع التي يكثر من ذكرها الشعراء المحاربين الشجعان ومن اجل هذا الصبر وتلك الإرادة القوية في ميدان السلم والحرب كان الصبر أول أسباب النصر وبعد ان تزول أيام الكريهة يصبح النجاح والفوز مع النصر مضمونين اما الجزع والحزن فلا يجديان نفعاً ويظهر ان الإنسان بمظهر الضعيف المتخاذل.

6. وضمن العلاقات الأسرية أعلن الشاعر الجاهلي جزعه من المرأة ولا سيما الحبيبة حينما كانت تتمنع وتخلف المواعيد فوشح قصائده بالحسرة لفراقهما الا ان

هنالك نسبة ضئيلة من جزع الأمهات والأباء على أولادهم وكان هذا الجزع ممزوجاً بالعتاب حِفاظاً على صلة القرابة والمودة .

7. ويعلن الشاعر الجاهلي صبره على القبيلة اكثر من إعلانه جزعه عليها فالفرد كان عاجزاً بمفرده عن مواجهة الحياة وكان من الطبيعي ان يلتجئ الى أهله وقبيلته فنشأ عن ذلك علاقة مشتركة تقوم على القرابة والمنفعة على ان لوم الشاعر للقبيلة وعتابه لها لا يعني كرهه لقومه وان كان هذا التعارض لا يفضي دائماً الى الانحلال .
8. ويبدو ان هذه الحياة القاسية لم تسحق الشاعر الجاهلي بمرارتها وتخنق عاطفته وتكبت خيالاته وانفعالاته ، بل انه كان أقوى منها فجعلها سائغة لأنه كان يحبها ويعشقها ، ويبدو ان صحراءها بعثت فيه فضلاً عن روح القوة والصبر والاستبسال ، قوة الخيال والروح الشعرية الرائعة . والبيئة القاسية جعلت العربي صلباً شديد المراس لا يقبل الضيم ويرفض الذّل ويعشق الحرية والانطلاق كانطلاق صحرائه واتساعها كما أثرت في عواطفه فجعلته سريع الغضب مندفعاً . فضلاً عن كونها عاملاً مهماً في بناء بنية الشاعر القائمة على الصلابة والتحدي .
9. وفي الدراسة الفنية خلصنا من مبحث الألفاظ في الشعر العربي قبل الإسلام ولا سيما الأشعار الخاصة بموضوع الصبر والجزع إلى ان الألفاظ كانت تتفاوت بين الجزالة والغرابة لاسيما في مقاطع الجزع والرقة والسهولة بالنسبة لمقاطع الصبر ، وقد لاحظنا من خلال معجم الألفاظ ان صورة الصبر ومفرداتها كانت تحتل حيزاً كبيراً من حياة العرب في ذلك العصر اذ كانت صفة يفتخر بها العربي الأصيل فضلاً عن كونها وسيلة في التعبير عن المشاعر ، لذا جاءت ألفاظها كثيرة كثرة ملحوظة.
10. وقد وجدنا ان للصبر ألفاظاً مرادفة له وهي : الحلم والعزاء والتجمل والتجلد والتأسي.

أما الألفاظ المرادفة للجزع فهي : السأم والملل وكلها ألفاظ لمسنا ترددها في النصوص الشعرية .

11. وقد انبثقت صور الشاعر الجاهلي من خلال التشبيه أولاً الذي امتلك المساحة الواسعة من بين الوسائل التصويرية الأخرى لما يمتاز به من سهولة وجمال، ثم يلي ذلك الكناية التي استخدمها الشاعر بشكل دقيق دل على الدقة في اختيار الألفاظ .

أما الاستعارة فقد اتصفت بقلتها مقارنة بغيرها ولكن هذا لم يقلل من إبداع الشاعر الجاهلي في صوغ دقائقها .

12. وعلى الرغم من تناقض الظاهرتين – الصبر والجزع–فانهما قد اشتركتا في مسألة البحور الشعرية التي أتت عليها مقاطع الصبر ومقاطع الجزع فقد توافقا على ان يكون البحر الطويل في مركز الصدارة لكليهما وذلك لقدرته على متابعة دقائق الصورة واستيعابها مما لا يتيسر مع البحور القصيرة ، فالطويل ميدان الشاعر الحقيقي الذي اظهر فيه قدرته الفنية .

13. وان الشاعر الجاهلي وهو في حالة الجزع كان يعمد الى القافية ذات الصوت الانفجاري القوي القادرة على استيعاب الغضب والعنف ، في حين ان الشاعر الصابر كان يعمد الى القوافي التي تقلل من حدة طبعه وتجعله في حالة الهدوء والاستسلام للأمر ، بعيداً عن الصخب والانفعال .

وما تلك النتائج التي توصل أليها البحث الا ثمرة رحلته المضنية ،آمل ان أكون قد أسديت خدمة لتراثنا المجيد فيما قصدت أليه ، فان وفقت لتلك الغاية السامية فبعون الله وفضله ، وفضل أستاذي الكريم ، وإلا فحسبي شرف المحاولة والغاية وحسن النية الخالصة وثواب التوجه للبحث بإخلاص وهمة، وما الكمال الا لله وحده فهو نعم المولى ونعم النصير وله الحمد أولاً وأخراً على فضله ورحمته .

المصادر والمراجع

المصادر والمرجع:

- القرآن الكريم .
- اتجاهات النقد الأدبي في القرن الخامس الهجري / د. منصور عبد الرحمن دار القلم للطباعة ، د.ت.
- أحياء علوم الدين / ابو حامد الغزالي ، دار الشعب ، ج12 ، د.ت.
- أدب العرب بين الجاهلية والإسلام / د.عبد الحميد محمود المسلون الطبعة الأولى – الجامعة الليبية ،1973م.
- أسرار البلاغة / لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (ت474 هـ) ، تحقيق : هـ – ريتر ، استانبول ، مطبعة وزارة المعارف ، 1954م.
- أسس النقد الأدبي عند العرب / د. احمد احمد بدوي ، الطبعة الأولى 1980م.
- الأسلوبية الصوتية في النظرية والتطبيق / د. ماهر مهدي هلالي ، آفاق عربية ، بغداد ، العدد (12) السنة السابعة عشرة ، كانون الأول 1992 م.
- الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين للخالديين لآبي بكر محمد(ت380هـ) ولآبي عثمان بن سعيد (ت319 هـ) تحقيق : د. محمد يوسف مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر 1958م .
- الاصمعيات / ابو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي (ت 216 هـ) تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ، مطبعة دار المعارف بمصر ، د.ت .
- أصول علم النفس / د. احمد عزت راجح ،المكتب المصري الحديث للطباعة والنشر الطبعة الثامنة ، 1970م.
- الأطفال مرآة المجتمع / محمد عماد الدين إسماعيل ، سلسة علم المعرفة الكويت ، 1986م.
- الأغاني / لابي الفرج علي بن الحسين الاصبهاني (ت356هـ) ، طبعة دار الفكر ، بيروت ، طبعت أجزاؤه بين 1957،1955م.

- افنون التغلبي /د.عادل جاسم البياتي(مقالة) مجلة كلية الآداب ،العدد العشرون ،سنة 1960 م.
- أمية بن ابي الصلت حياته وشعره دراسة وتحقيق /د.بهجت الحديثي خزانة التراث مطبعة العاني ، بغداد ، الطبعة الثانية ، 1991م.
- الإنسان والزمان في الشعر الجاهلي / د.حسين عبد الجليل يوسف ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة،1988م.
- البديع في نقد الشعر / ابن منقذ (ابو المظفر أسامة بن مرشد الكناني الكلبي (ت584 هـ) تحقيق: د . احمد احمد بدوي ، د. حامد عبد المجيد مطبعة البابي الحلبي وأولاده ، القاهرة ، 1960م.
- البرهان في علوم القرآن / الزركشي (بدر الدين محمد بن عبد الله (ت 794 هـ) تحقيق : محمد ابو الفضل إبراهيم ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، الطبعة الأولى ، 1958 م.
- بكاء الناس على الشباب وجزعهم من المشيب ، تصنيف ابن الجوزي عبد الرحمن بن علي ،تحقيق :هلال ناجي ، مجلة المورد ، المجلد الثاني العدد الثالث ، 1973 م.
- البلاغة والتطبيق /د. احمد مطلوب ، د. كامل حسن البصير ، الطبعة الثانية 1990 م.
- بناء الصورة الفنية في البيان العربي موازنة وتطبيق /د. كامل حسن البصير ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، 1987 م.
- البناء الفني لشعر الفرسان والاجواد في عصر ما قبل الإسلام / فائزة يحيى عاكف الخزرجي ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة بغداد 1990 م.
- البناء الفني للقصيدة العربية / د. محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الطباعة المحمدية ، القاهرة ، (د.ت) .
- بناء القصيدة الفني في النقد العربي القديم والمعاصر / مرشد الزبيدي بغداد ، 1994 م.

- بواعث البكاء ودلالاته الفنية والموضوعية في الشعر العربي قبل الإسلام سمير جعفر ياسين الدوري ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة بغداد' 1998 م.
- تاج العروس من جواهر القاموس للسيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، د.ت.
- تاريخ ابن خلدون (المسمى بكتاب العبر ، ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي المغربي (ت808هـ) بيروت مؤسسة جمال للطباعة والنشر ،1399 هـ /1979 م.
- تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي) /د. شوقي ضيف، دار المعارف' مصر ، الطبعة الثامنة ، 1960 م.
- تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام / تأليف د. نوري القيسي ، د. عادل البياتي ، د.مصطفى عبد اللطيف ، مطبعة التعليم العالي ، الموصل 1989 م.
- تاريخ العرب قبل الإسلام / د. جواد علي ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، 1959 م.
- الترغيب والترهيب / المنذري ، قطر ، 1985 م.
- التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان / د. محمد ابو موسى ، دار التضامن للطباعة ، الطبعة الثانية ، 1400 هـ / 1980 م.
- تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام / شكري فيصل ،دار العلم للملايين بيروت (د.ت).
- التعازي والمراثي / المبرد محمد بن يزيد ، تحقيق : محمد الديباجي دمشق ،مطبعة زيد بن ثابت،1976م.
- التفسير النفسي للأدب / د. عز الدين إسماعيل ، دار المعارف ، القاهرة 1963م.

- الجامع الكبير في صياغة المنظم من الكلام والمنثور / لابن الأثير (ضياء الدين بن الأثير الجزري ، ت630هـ) تحقيق : د. مصطفى جواد ، د. جميل سعيد ، مطبعة المجمع العلمي العراقي 1956،1375م.
- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع / احمد الهاشمي ، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ، الطبعة الثانية عشرة ،1379هـ/1960م.
- الحرمان في الشعر العربي قبل الإسلام / وليد محمد رشيد الجوخدار رسالة الدكتوراه ، جامعة بغداد ، كلية الآداب ، 1997م.
- حضارة العرب / جوستاف لويون ، ترجمة عادل زعيتر ، الحلبي ' الطبعة الرابعة ، 1964م.
- الحماسة البصرية / البصري ، صدر الدين علي بن ابي الفرج بن الحسين (ت659هـ) تصحيح وتعليق: د. مختار الدين احمد ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، الهند ، حيدر اباد الدكن ، الطبعة الأولى ، 1964م.
- الحياة العربية من الشعر الجاهلي / د. احمد محمد الحوفي ، دار القلم بيروت ، الطبعة الخامسة ،1972م.
- الحياة والموت في الشعر العربي في صدر الإسلام والعصر الأموي حميدة حسن نعمة الموسوي ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، 1422هـ /2001م.
- الحيوان / الجاحظ (ت255هـ) ، تحقيق عبد السلام محمد هارون مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، مصر ، الطبعة الأولى 1945 م.
- الخلق الكامل / محمد احمد جاد المولى، المطبعة العثمانية ، الطبعة الأولى، الجزء الرابع ، 1936م.
- دراسات في الأدب الجاهلي / د. عادل البياتي ، دار النشر المغربية ، دار البيضاء ، 1986م.
- الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني / حسام سعيد النعيمي ، وزارة الثقافة والأعلام ، بغداد ،1980م.

- الدراسات نقدية في الأدب العربي / د. محمود عبد الله الجادر ، الموصل 1990م.
- دلائل الأعجاز / الجرجاني ، ابو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن (ت 471 هـ) ،حققه عبد المنعم الخفاجي ، القاهرة ، الطبعة الأولى 1389هـ / 1969م.
- دلالة الألفاظ / إبراهيم أنيس ، لجنة البيان العربي ، القاهرة ، 1958م.
- الدوافع النفسية لنشوء الفن / عاطف محمود عمر ، دار العلم ، بيروت (د.ت).
- ديوان الأسود بن يعفر / صنعه د. نوري القيسي ، مطبعة الجمهورية بغداد ، 1970م.
- ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس / شرح وتعليق د. محمد حسين المطبعة النموذجية ،1950م.
- ديوان امرئ القيس / تحقيق :محمد ابو الفضل إبراهيم ،دار المعارف مصر، سلسلة ذخائر العرب ، 1958م.
- ديوان اوس بن حجر / تحقيق وشرح د.محمد يوسف نجم ، الجامعة الأمريكية ، بيروت ، 1960م.
- ديوان بشر بن أبي خازم الاسدي / تحقيق د.عزة حسن ، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم ، دمشق ، 1960م.
- ديوان تأبط شراً واخباره / جمع وتحقيق :علي ذو الفقار شاكر ، الطبعة الأولى ، 1984م.
- ديوان الحطيئة شرح ابن السكيت والسكري والسجستاني ، تحقيق : نعمان أمين طه ،مطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده ، مصر ، 1958 م.
- ديوان الحماسة / تأليف ابي تمام حبيب بن اوس الطائي ت(231هـ) برواية ابي منصور بن احمد بن محمد بن الخضر الجواليقي (ت540هـ) تحقيق: عبد المنعم احمد صالح ،دار الرشيد للنشر 1980م.

- ديوان الخنساء / شرحه ثعلب ، ابو العباس ، احمد بن يحيى بن سيار الشيباني النجومي(ت291هـ) حققه د.انور ابو سويلم ، جامعة مؤتة دار عمار ، الطبعة الأولى ، 1409هـ ، 1988م.
- ديوان دريد بن الصمة الجشمي / قدم له د. شاكر الفحام ، جمع وتحقيق وشرح محمد خير البقاعي ، دار قتيبة ،1981م.
- ديوان ذي الاصبع العدواني / تحقيق : عبد الوهاب محمد وعلي العدواني ومحمد نايف الدليمي ، الموصل ، مطبعة الجمهورية ، 1973م.
- ديوان زيد الخيل الطائي / صنعة د. نوري القيسي ، مطبعة النعمان النجف الاشرف ، 1968م.
- ديوان سحيم عبد بني الحسحاس / تحقيق : عبد العزيز الميمني ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، 1950م.
- ديوان سلامة بن جندل / رواية الاصمعي وابي عمرو الشيباني تحقيق د. د. فخر الدين قباوة ، مطبعة الأصيل ، حلب ، الطبعة الأولى 1387هـ،1968م.
- ديوان السمؤال بن عادياء/ طبعة دار صادر ، بيروت ، 1964م.
- ديوان شعر المتلمس الضبعي / رواية الاثرم وأبي عبيدة عن الاصمعي تحقيق وشرح وتعليق :حسن كامل الصيرفي ، القاهرة ،1390هـ 1970م.
- ديوان شعر المثقب العبدي /عُني بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه : حسن كامل الصيرفي ، الشركة المصرية للطباعة والنشر ، 1391هـ 1971م.
- ديوان طرفة بن العبد / شرح الأعلم الشنتمري (ت 410هـ) وتليه طائفة من الشعر المنسوب الى طرفة ، تحقيق : درية الخطيب ، لطفي الصقال مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، دمشق ، 1395هـ / 1975م.
- ديوان طفيل الغنوي / تحقيق : محمد عبد القادر احمد ، دار الكتب الجديد، الطبعة الأولى ، 1968م.
- ديوان عامر بن الطفيل العامري / تحقيق د. محمد عبد الله الجادر ، د. عبد الرزاق الدليمي ، بغداد ، دار الشؤون الثقافية ، 2001م.

- ديوان العباس بن مرداس /جمعه وحققه د. يحيى الجبوري ، المؤسسة العامة للصحافة والطباعة دار الجمهورية ، بغداد ، 1388هـ / 1968م.
- ديوان عبيد بن الأبرص /تحقيق وشرح حسين نصار ، مطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر ، الطبعة الاولى ، 1377هـ / 1957م.
- ديوان عدي بن زيد العبادي /حققه وجمعه محمد جبار المعيبد ، شركة دار الجمهورية للنشر ، بغداد ،1965 م.
- ديوان عروة بن الورد / شرح ابن السكيت(ت244هـ) تحقيق : عبد المعين الملوحي ، مطبوعات مديرية أحياء التراث القديم ، دمشق (د.ت).
- ديوان علقمة الفحل / شرح ابي الحجاج يوسف بن سليمان المعروف بالاعلم الشنتري (ت 476هـ) حققه لطفي الصقال ودرية الخطيب ، دار الكتاب العربي ، حلب ، الطبعة الأولى ، 1969م.
- ديوان عمرو بن قميئة / شرح وتحقيق :خليل إبراهيم العطية ، سلسلة كتب التراث ، دار الحرية للطباعة ، بغداد 1972م.
- ديوان عمرو بن معد يكرب / تحقيق هاشم الطعان ، سلسلة كتاب التراث مطبعة الجمهورية ، 1970م.
- ديوان عنترة / تحقيق ودراسة: محمد سعيد مولوي ، مطبوعات المكتب الإسلامي ، القاهرة ، 1964م.
- ديوان قيس بن الخطيم / تحقيق د. ناصر الدين الأسد ، مكتبة دار العروبة القاهرة ، الطبعة الأولى ، 1962م.
- ديوان المزرد بن أضرار الغطفاني / تحقيق : خليل إبراهيم العطية / ساعدت وزارة المعارف على نشره ، بغداد ، الطبعة الأولى ، 1962م.
- ديوان المعاني / للإمام اللغوي الأديب ابي هلال العسكري (ت395هـ)' مكتبة القدسي القاهرة ، باب الخلق ،1352هـ.
- دوان النابغة الذبياني / تحقيق :محمد ابو الفضل إبراهيم ، دار المعارف' مصر (د.ت).

- ديوان الهذليين / تحقيق: احمد الزين ،ادار القومية للطباعة والنشر ' القاهرة، 1385 هـ / 1965م.
- رثاء الأبطال في الأدب العربي قبل الإسلام / د.عادل البياتي ، مستلة من مجلة كلية الآداب المستنصرية ، ملحق العدد السادس ،1982م.
- رثاء الأبناء في الشعر العربي الى نهاية القرن الخامس الهجري / د. مخيمر صالح موسى يحيى ، مكتبة المنار ، الطبعة الأولى '(د.ت).
- الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الإسلام / د. بشرى الخطيب ، مطبعة الادارة المحلية ، بغداد ، 1977م.
- الرثاء في الشعر العربي او جرحات القلوب / د. محمود حسن ابو ناجي بيروت ، لبنان ،الطبعة الثانية،1402هـ.
- رمز المرأة في أدب أيام العرب / (بحث) د.عادل البياتي، نشرة في مجلة آفاق عربية العراقية ، العدد (12) لسنة 1977م.
- رؤية جديدة لشعرنا القديم / د.حسن فتح الباب ، دار الحرية للطباعة والتوزيع والنشر ، بيروت ، الطبعة الأولى 1984م.
- الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام / عبد الاله الصائغ ، دار الرشيد للنشر ، 1982م.
- زهر الآداب وثمر الألباب / لابي اسحق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني (ت453هـ) مفصل ومضبوط ومشروح: د. زكي مبارك ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، 1972م.
- السليك بن السلكة دراسة وجمع وتحقيق / ادم ثويني ، وكامل سعيد عواد مطبعة العاني ، بغداد ، الطبعة الأولى ،1984م.
- السيرة النبوية / لابن هشام ابو محمد عبد الملك بن هشام المعافري (ت213هـ) تحقيق : مصطفى السقا وآخرين ، مطبعة البابي الحلبي' مصر ، الطبعة الثانية ، 1955م.
- شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام / جمعه ورتبه ووقف على طبعه: بشير يموت المطبعة الوطنية ، بيروت ، الطبعة الأولى ' 1353هـ 1934م.

- الشاعر الجاهلي طرفة بن العبد / تحقيق ودراسة :د. علي الجندي ، دار الفكر العربي' القاهرة ، (د.ت).
- شرح أشعار الهذليين / صنعه أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري (ت275هـ) حققه عبد الستار احمد فراج ، راجعه محمود محمد شاكر' مكتبة دار العروبة ، مطبعة المدني ، (د.ت).
- شرح تحفة الخليل في العروض والقوافي / (السيد محمد الحسين بن السيد الكاظم ت1356هـ) عبد الحميد الراضي ، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، الطبعة الثانية ، 1395هـ/ 1975م.
- شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري / صنعه وضبط الديوان عبد الرحمن البرقوقي ، مطبعة السعادة ، مصر ، (د.ت).
- شرح ديوان الحماسة / للمرزوقي ، ابوعلي احمد بن محمد بن الحسن (ت 421هـ) تحقيق: احمد امين وعبد السلام هارون ، مطبعة لجنة التأليف والنشر ، 1388هـ / 1968م.
- شرح ديوان زهير بن ابي سلمى / صنعة الامام ابي العباس احمد بن يحيى بن زيد ثعلب (ت 291هـ) ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب سنة 1944م ، الدار القومية للطباعة والنشر' 1964م.
- شرح ديوان كعب بن زهير / صنعه الإمام ابي سعيد الحسن بن الحسين ابن عبد الله السكري (ت 275هـ) نسخة مصورة من مطبعة دار الكتب 1950م.الدار القومي للطباعة والنشر ، القاهرة ، 1965م.
- شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري / حققه د. احسان عباس ، سلسلة تصدرها وزارة الارشاد والأنباء ، الكويت ،1968م.
- الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي / د. عبدة بدوي مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر ،1392هـ 1973م.
- الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي / د. يوسف خليف ، دار المعارف' الطبعة الرابعة ، 1966م.

- شعراء النصرانية قبل الإسلام / جمعه ونسقه الأب لويس شيخو اليسوعي، دار المشرق ، بيروت ، الطبعة الثانية ، 1967م.
- شعر اوس بن حجر ورواته الجاهليين /د. محمود عبد الله الجادر' ساعدت جامعة بغداد على طبعة ، دار الرسالة للطباعة ، بغداد ،1979م.
- شعر تأبط شراً / تحقيق : سلمان داود القرة غولي وجبار تعبان جاسم' النجف ، مطبعة الآداب ، 1973م.
- الشعر الجاهلي / محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت' الطبعة الثالثة ، 1973م.
- الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه / د. يحيى الجبوري ، دار التربية' بغداد ، (د.ت) .
- الشعر الجاهلي قضاياه الفنية والموضوعية / د. إبراهيم عبد الرحمن' الطبعة الثانية ،1976م.
- الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه /د.محمد النويهي ، دار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ،(د.ت).
- شعر الحرب في العصر الجاهلي /د.علي الجندي ، مكتبة الانجلو المصرية ، الطبعة الثانية ، الجزء الأول ،1963م.
- شعر الحصين بن حمام المري / جمع وتحقيق: مهدي عبيد جاسم (مجلة المورد ، المجلد السابع عشر ، العدد الثالث ، خريف ،1988م.
- شعر خفاف بن ندبة السلمي / جمعه وحققه :د.نوري القيسي ، مطبعة المعارف ،1967م.
- شعر الربيع بن زياد العبسي / صنعه د.عادل البياتي ، مجلة كلية الآداب' مطبعة المعارف ، العدد الرابع عشر ،1970م.
- شعر الشنفرى الازدي / ابو فيد مؤرج بن عمرو السدوسي (ت195هـ) تحقيق وتذييل: د.علي ناصر غالب راجعه: د.عبد العزيز ناصر المانع' الرياض ، الطبعة الأولى ، 1419هـ /1998م.
- شعر الطبيعة في الأدب العربي /د. سيد نوفل ، مطبعة القاهرة ،1945م.

- الشعر العربي قبل الإسلام بين الانتماء القبلي والحس القومي / مصعب حسون الراوي الطبعة الأولى ، بغداد ، 1989م.
- الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية / عز الدين إسماعيل' دار الكاتب العربي للطباعة ، القاهرة ، 1967م.
- شعر عمرو بن شأس الاسدي / تحقيق : د. يحيى الجبوري ، مطبعة الآداب في النجف الأشراف ،1976م.
- شعر قيس بن زهير / د.عادل البياتي ، مطبعة الآداب ، النجف الأشراف' (د.ت).
- الشعر كيف نفهمه ونتذوقه / تأليف : البزابيث دور ، ترجمة : محمد إبراهيم الشوش ، بيروت مطبعة عيناني الجديدة ، 1961م.
- شعر النابغة الجعدي / تحقيق : عبد العزيز رباح ، منشورات المكتب الإسلامي ، دمشق ، الطبعة الأولى ، 1964م.
- شعر النمر بن تولب / صنعة د. نوري القيسي ، مطبعة المعارف ، بغداد، (د .ت) .
- شعر الهذليين في العصر الجاهلي والإسلامي / احمد كمال زكي ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ، 1969م.
- الشعر والشعراء / لابن قتيبة (ابو محمد عبد الله بن مسلم ت 276 هـ) نشر وتوزيع دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، طبعة محققة مفهرسة' 1964م.
- الشيب والشباب في الأدب العربي / تأليف : الحاج محمد حسن الشيخ علي الكتبي ، مطبعة الآداب ، النجف الأشراف ، الطبعة الأولى 1392هـ 1972م.
- الصبر في شعر الفرسان في العصر السابق للإسلام / (بحث) للدكتور أيهم عباس القيسي ، منشور في مجلة الآداب ، العدد الثالث والأربعون، 1997م .
- الصبر والأقدام عند العرب / العقيد الركن حازم القهار الراوي ، مطبعة الراية ، بغداد ، 1987م.

- الصناعتين ، الكناية والشعر / لابي هلال العسكري (ت 395 هـ) تحقيق : علي محمد البجاوي ومحمد ابو الفضل إبراهيم، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، 1952م.
- الصورة البيانية في الشعر العربي قبل الإسلام واثر البيئة فيها / ساهرة عبد الكريم ، رسالة دكتوراه بالآلة الكاتبة ، كلية الآداب ، جامعة بغداد 1404هـ 1984م.
- الصورة الشعرية والبلاغة / د. صبحي البستاني ، مجلة آفاق عربية العدد 12 ، لسنة 12 ، كانون الأول ، 1987م.
- الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي / د. جابر احمد عصفور' القاهرة 1974م.
- الصورة الفنية في شعر زهير بن ابي سلمى / د. عبد القادر الرباعي' دار العلوم للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى ، 1405 هـ /1984م.
- الصورة الفنية في النقد الشعري دراسة في النظرية والتطبيق / د. عبد القادر الرباعي ، مكتبة الكناني ، اربد ، الطبعة الثانية ، 1995م.
- الصورة الفنية معياراً نقدياً / د. عبد الإله الصائغ ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، 1987م.
- الصورة في شعر الأخطل الصغير / د. احمد مطلوب ، دار الفكر' الأردن ، 1985م.
- الصورة في الشعر العربي حتى أخر القرن الثاني الهجري / د. علي البطل ، دار الأندلس ، الطبعة الأولى ، 1980م.
- الطبيعة في الشعر الجاهلي / د. نوري القيسي ، دار الإرشاد للطباعة' والنشر ، بيروت ، 1970 م.
- عشرة شعراء مقلون / صنعة د. حاتم الضامن ، دار الحكمة للطباعة' الموصل ،1990م.
- العصبية القبيلة و أثرها في الشعر الأموي / د. إحسان النص ، منشورات دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر ، بيروت ، (د.ت).

- العقد الفريد / لابن عبد ربه احمد بن محمد الأندلس (ت328 هـ) تحقيق: احمد أمين وصاحبيه ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة' الطبعة الثالثة ،1384هـ /1965م.
- علم أساليب البيان / د. غازي يموت ، دار الأصالة ، الطبعة الأولى' 1403 هـ / 1983 م.
- علم البديع / د. عبد العزيز عتيق ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر' بيروت ، 1974م.
- علم المعاني / د. عبد العزيز عتيق ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر' بيروت ، الطبعة الثانية ،1970م.
- علم النفس الاجتماعي / حامد عبد السلام زهران ، الطبعة الخامسة' 1984م.
- العمدة في محاسن الشاعر وآدابه ونقده / ابن رشيق (ابو علي الحسن بن رشيق القيروان ت456 هـ) حققه وعلق على حواشيه محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الجبل والنشر والتوزيع والطباعة ، بيروت ، الطبعة الرابعة ، 1972م.
- عنوان المجد في تاريخ نجد / لابن بشر ، وزارة المعارف ، الرياض (د. ت) .
- عيون الأخبار / لابن قتيبة (ت276 هـ) ، نسخة مصورة عن دار الكتب ، المؤسسة المصرية للتأليف والنشر ، 1963م.
- الغربة في الشعر الجاهلي / عبد الرزاق الخشروم ، دار الأنوار للطباعة' دمشق ' 1982م.
- الغربة والحنين في الشعر العربي قبل الإسلام / صاحب خليل إبراهيم' كلية الآداب ، الجامعة المستنصرية / 1409 هـ 1988م.
- الغرض الشعري دراسة نقدية / نادية غازي جبر ، رسالة دكتوراه بالآلة الكاتبة ، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، 1415 هـ 1994م.

- الفتوة عند العرب أو أحاديث الفروسية والمثل العليا / عمر الدسوقي ، دار النهضة ، الطبعة الرابعة ، (د.ت) .
- الفروسية في الشعر الجاهلي / د. نوري القيسي ، مطابع دار التضامن' بغداد ، 1964 م.
- فن البلاغة / د. عبد القادر حسين ، بيروت عالم الكتب ، الطبعة الثانية' 1405 هـ 1984 م.
- فن الفخر وتطوره في الأدب العربي / ايليا الحاوي ، منشورات دار الشرق الجديد ، الطبعة الأولى ،1960م.
- فنون بلاغية ، البيان والبديع / د. احمد مطلوب ، دار البحوث العلمية' الطبعة الأولى ، 1395هـ / 1975م.
- في النقد الأدبي / د. شوقي ضيف،دار المعارف ، مصر ، 1962م.
- القافية والأصوات اللغوية / محمد عوني عبد الرؤوف ، مكتبة الخانجي،1977م.
- قراءة عصرية في أدب الذئب عند العرب / د. عناد غزوان ، مجلة المورد، دار الجاحظ ، الجمهورية العراقية ، المجلد الثامن ، العدد الأول ، دار الحرية، للطباعة ،بغداد ، 1399هـ 1979 م.
- القلق بلباس العصر الحاضر / خير الدين العمري ، شركة اسيا للطبع والنشر المحدودة ، 1987م.
- قلق الموت / د. احمد محمد عبد الخالق ، مطابع الرسالة ، الكويت' 1987م.
- قواعد الشعر / لثعلب (ابو العباس احمد بن يحيى ت 291 هـ) ، تحقيق وتقد وتعليق د. رمضان عبد التواب ، دار المعرفة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، 1966م.
- قوة تحمل الشخصية وأساليب التعامل مع ضغوط الحياة / بثينة منصور الحلو ، رسالة دكتوراه ، جامعة بغداد ، 1485هـ /1995م.

- الكامل في اللغة والأدب / للمبرد (ابو العباس محمد بن يزيد ت285 هـ)، عارضه وعلق عليه محمد ابو الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، الجزء الأول ، (د. ت) .
- كتاب بكر وتغلب / لمؤلف مجهول ، بمبي ، 1935م.
- كتاب القوافي / للأخفش (أبو الحس سعيد بن مسعدة (ت 215 هـ) تحقيق د. عزة حسن ، مطبوعات مديرية احياء التراث القديم ، دمشق' 1390 هـ 1970م.
- كتاب المعمرين / لأبي حاتم سهيل السجستاني (ت 250 هـ) طبع بمدينة ليدن المحروسة ، بمطبعة بريل ، 1899م.
- لامية العرب / الشنفرى ، شرح وتحقيق محمد بديع شريف ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، 1964م.
- لسان العرب / لابن منظور (ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقي ت 711 هـ) ، دار صادر ، بيروت ، 1968م.
- مالك ومتمم ابنا نويرة اليربوعي / د. ابتسام مرهون الصفار ، مطبعة الارشاد ، بغداد ، 1968م.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر / لابن الأثير (ضياء الدين ابو الفتح نصر الله بن ابي المكارم ت 637 هـ) تحقيق د. احمد الحوفي' د. بدوي طبانة ، مكتبة نهضة مصر ، الطبعة الأولى 1380هـ 1960م.
- مجمع الأمثال / الميداني ، ابو الفضل احمد بن احمد النيسابوري (ت518 هـ) ، الناشر عبد الرحمن وملتزم الطبع ، مصر ، 1353هـ .
- محاضرات الادباء ومحاورات الشعراء والبلغاء / لابي القاسم الاصباهي ' مكتبة الحياة ، بيروت ، الجزء الرابع ' 1961 م.
- محاضرات في تاريخ العرب / د. صالح احمد علي ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ، الطبعة الرابعة ، 1968م.
- المحبر / لابن حبيب ابو جعفر محمد بن حبيب (ت 245 هـ) ، تحقيق ايلزة ليختن شتيتر ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، (د. ت) .

- مختارات ابن الشجري / الشجري ، الشريف ابي السعادات هبة الله (ت 542 هـ) ضبطها وشرحها محمد حسن المازني ، مطبعة الاعتماد' بمصر ' 1344 هـ 1925 م .
- مدخل علم النفس / تأليف لندال . دافيدوف ترجمة د. سيد الطواب ود . محمود عمر ،د. نجيب خزام مراجعة وتقديم د. فؤاد ابو حطب' منشورات مكتبة التحرير ، الطبعة الثالثة ، (د. ت) .
- المرأة في الشعر الجاهلي / د. علي الهاشمي ، مطبعة المعارف ، بغداد' 1960م .
- المرشد الى فهم اشعار العرب وصناعتها / عبد الله الطيب المجذوب ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، 1970م.
- المزاج الطبيعي لمنطقة نجد / د. عزة النص ، مجلة كلية الآداب ، جامعة؛ الرياض ، المجلد الأول ، السنة الأولى ، 1970م.
- المستطرف من كل فن مستظرف / الابشيهي : شهاب الدين محمد بن احمد (ت850 هـ) مؤسسة دار الندوة الجديدة للطباعة والنشر ، بيروت، (د.ت).
- مشكلة الحياة / د. زكريا إبراهيم ، مكتبة مصر ، دار مصر للطباعة، مصر ، 1971م.
- مشكلة الفن / د. زكريا إبراهيم ، دار مصر ، 1976م.
- المطر في الشعر الجاهلي / د. أنور عليان ابو سويلم ، دار عمار ، عمان' دار الجيل ، بيروت ، الطبعة الأولى ، 1973م.
- معاني النحو / د. فاضل السامرائي ، دار الحكمة ، الموصل / 1091م.
- معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضيع / البكري (ابو عبيد الله بن عبد العزيز الأندلسي ت 487 هـ) ، حققه وضبطه وشرحه مصطفى السقا ، وطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الطبعة الأولى ، 1368 هـ 1949م.

- المعمرون والوصايا / لابي حاتم السجستاني (ت 250 هـ) ، تحقيق عبد المنعم عامر دار أحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه' 1961م.
- مفتاح العلوم / للسكاكي ، ابو يعقوب يوسف بن ابي بكر (ت 226 هـ)' تحقيق أكرم عثمان يوسف ، دار الرسالة ، بغداد ، 1402 هـ 1982م.
- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام / د. جواد علي ، دار العلم للملايين' بيروت ، الطبعة الثالثة ، 1980م.
- المفضليات / ابو العباس المفضل محمد بن ابي يعلي الضبي (ت 178هـ)' تحقيق وشرح احمد شاكر وعبد السلام هارون ، دار المعارف ، الطبعة الثالثة، 1964م.
- مقالات في الشعر الجاهلي / يوسف اليوسف ، دار الحقائق بالتعاون مع ديوان المطبوعات الجامعية بالجزائر ، الطبعة الثانية / 1980م.
- المكونات الصوتية للإيقاع وأنماطه في الشعر والنثر / حامد مزعل حميد الراوي ، رسالة دكتوراه ، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، 1417 هـ 1996م.
- المنظور البلاغي في نقد الشعر / د. ماهر مهدي هلال ، مجلة كلية الآداب العدد (39) لسنة 1411 هـ 1990م.
- المهلهل بن ربيعة التغلبي حياته وشعره / دراسة وتحقيق ، نافع منجل شاهين الراجحي ، اطروحة ماجستير ، كلية الاداب ،المستنصرية 1986م.
- المؤتلف والمختلف / الامدي ، ابو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى (ت370هـ) تحقيق عبد الستار احمد فراج ، دار أحياء الكتب العربية' القاهرة ، 1381هـ ، 1961م.
- الموت والعبقرية / عبد الرحمن بدوي ، دار القلم ، بيروت ، 1945م.
- موسوعة الشعر العربي / اختارها وشرحها وقدم لها مطاوع الصفدي ، ايليا حاوي ، بإشراف د. خليل حاوي ، التحقيق والتصحيح : نصاً ولغةً ورواية: احمد قدامة ، دار النفائس ، بيروت / 1974م.

- موسيقى الشعر / د. ابراهيم انيس ، مكتبة الانجلو ، المطبعة الفنية الحديثة' الطبعة الرابعة ، 1970م.
- نظريات التعلم / د. احمد زكي صالح ، شركة الطباعة الفنية المتحدة' 1971 م .
- نظريات الأدب / رينيه ويلك ، اوستن وارين ، ترجمة محي الدين صبحي' مراجعة الدكتور حسام الخطيب خالد الطرابيشي ، 1972م.
- نظرية بنائية في النقد الادبي / صلاح فاضل ، دار الشؤون العامة 1987م.
- نظرية المعنى في النقد العربي / د. مصطفى ناصف ، دار الاندلس' الطبعة الثانية / 1401 هـ – 1981م.
- نقد الشعر / ابو الفرج قدامة بن جعفر البغدادي (ت337هـ) ، تحقيق وتعليق كمال مصطفى ، مكتبة الخانجي ، مصر ، 1979م.
- نقد الشعر في المنظور النفسي / د. ريكان إبراهيم ، وزارة الثقافة والأعلام دار الشؤون الثقافية العامة ، آفاق عربية ، بغداد ، الطبعة الأولى 1989م.
- النكت في اعجاز القران / الرماني (ابو الحسن علي بن عيسى ت 296هـ) (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القران) ، تحقيق محمد خلف الله، محمد زغلول سلام دار المعارف ، مصر ،(د.ت).
- نهاية الإرب في فنون الأدب / شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب النويري (677–733هـ) ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، السفر الثالث ،(د. ت).
- نيران العرب في شعر ما قبل الإسلام / ليلى كاظم التميمي ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، 1999م.
- الوافي في العروض والقوافي / صنعة الخطيب التبريزي ، تحقيق : عمر يحيى ، د. فخر الدين قباوة ، دار الفكر ، الطبعة الثانية ' 1395 هـ 1975م.
- الوجودية في الجاهلية / فالتربراونه ،مجلة المعرفة السورية ، السنة الثانية العدد الرابع ، حزيران ، 1963م.

- الوساطة بين المتنبي وخصومه / القاصي الجرجاني (علي بن عبد العزيز ت366هـ) ، تحقيق وشرح ، محمد ابو الفضل إبراهيم ، وعلي محمد البجاوي ، دار احياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي ، الطبعة الثالثة،(د.ت).
- اليهود في القرآن / عبد الكريم الخطيب ، دار الشروق ، طبعة أولى' 1974م.

Summery

1. Through a deep reading to all collections of unfamiliar poems we found that the endurance is a phenomenon accompany with the human since they create and it is an adjective which unfamiliar poet proud on it , but this not mean that the human was faraway horror but it was near him .
2. The unfamiliar poet`s endurance on the death more than his horror , so in this, he was near the islam spirit .
3. The horror of the poet from senility appear more than his endurance on them .
4. The difference between the poets horror from senility and his horror when he lost those who loved them not big . Crying was the weapon to reflect his horror on death .
5. The war required endurance and stability on death and battles for this , this quality was one of brave man quality .
6. The unfamiliar poet declared his horror from woman especially the beloved while there was little from the parents horror about their sons.
7. The unfamiliar poet declared his endurance on tribe more his horror.
8. The hard environment made the Arabic man harder and like freedom.
9. In the technical study we found that the expressions be different between eloquent and strange in horror , simplicity according to the endurance.
10. There is synonym for endurance that are : patience , comfort , beautifying and sorrow .
    While the synonym for horror are : weariness and boredom .
11. The picture of unfamiliar poet arise through simile then metonymy while metaphor is very little .
12. Although the endurance and horror are difference they are participate in poetry rhymes they agree that long rhyme be first for them.
13. The unfamiliar poet in his horror use the rhyme which it has strong
14. voice while the endurance poet used the rhymes which make him quit .

Patienca andTiredness between excitngexiting And response in poetry al Pre –lsLamic

Thises to cauncit al college al Arts /Baghdad Unvirsity Lt is part al requirments getting Dr dagree In Arabic Language and its literaure

submited
by student
Raja.Lazim . Ramadan

Supervised
by
Prof. Dr Mahmud Abid AljADlR

1425 H **2004-A .c**